



د. محمد زينهم محمد عزب

قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب



الكتاب من مرفوعات

مدونة برج بن عزوز

قيام وتطور
الدولة الرسمية في المغرب



٢ شارع امتداد رمسيس (١) - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٢٤٦١٢ - ٢٤٠٥١٤٩٨

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٣ م / صَفَر ١٤٣٤ هـ

رقم الإيداع: ١٩١١٧ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: ٣. ١٢١. ٤٩٥. ٩٧٧. ٩٧٨

صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي

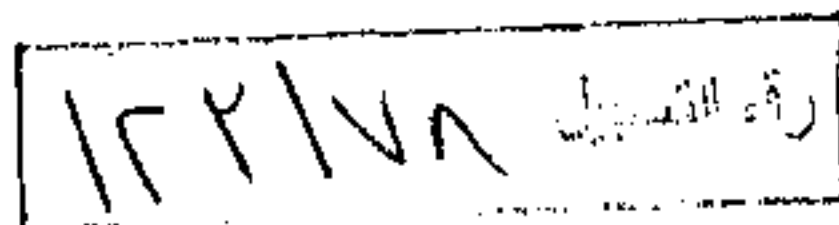
965.02

A991

قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب

تأليف

د. محمد زينهم محمد عزب



بيانات الفهرسة المكتبية

(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

عزب، محمد زينهم محمد.

قيام وتطور

الدولة الرستمية في المغرب /

تأليف محمد زينهم محمد عزب ..

ط ١ .. القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١٣.

١٨٠ ص: ٢٤ سم ..

(صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي)

تدملك: ١٢١.٣ - ٤٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١. المغرب - تاريخ - العصر الإسلامي

١٩١٢.٦٤٧

ديوي ٩٥٣.٠٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وبه نستعين

تمهيد: الجغرافية والبشرية للمغرب الأوسط:

موطن الرستميين:

أسست دولة الرستميين في منطقة المغرب الأوسط الذي يمثل جزءاً من كلمة عامة هي المغرب، وقد أطلق العرب كلمة المغرب على تلك المساحات الواسعة التي تلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي^(١). ولم تكن بلاد المغرب معروفة بهذا الاسم عند الفاتحين المسلمين حينما زحفت جيوشهم على تلك البلاد^(٢). بل أطلق العرب على بلاد المغرب اسم إفريقية الذي كان سائداً إذ ذاك لدى البيزنطيين^(٣). وبامتداد حركة الفتح الإسلامي إلى ساحل المحيط الأطلسي، ومنها إلى بلاد الأندلس أصبح لفظ

(١) شملت معنى لفظ المغرب عند بعض الجغرافيين من أمثال الاصطخرى والمقدسي فشمّل المغرب عندهما كل ما يلي مصر غرباً ابتداء من برقة حتى طنجة والسوس، ويُدخلان ضمنه بلاد الأندلس، بل إن مفهوم المغرب اتسع أكثر من هذا عند ابن خرداذبه مثلاً، فيسمى كل المناطق الواقعة في غرب سُرّ من رأى النى تقع في مسير شروق الشمس مشرقاً. انظر المزيدي: الأصبخري: المسالك والممالك ٣٣ تحقيق الدكتور: محمد جابر عبد العال الحيني - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة ١٩٦١م المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢١٦ - مكتبة مدهولي - القاهرة ١٩٩٥م - ابن خرداذبه: المسالك والممالك ٤١ و ٨٤ و ١١٦ مكتبة المثنى ببغداد، ابن خلدون: العبر - دار الكتاب اللبناني ج١ ٢٠١، ١٩٥٨م، ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٥ تحقيق ليفي برونسالي - دار الثقافة - بيروت ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ٢٠ تحقيق محمد شمام - المكتبة العتيقة بتونس ١٣٧٨هـ: يعقوبي: كتاب البلدان ٣٤٢ مكتبة المثنى - بغداد ١٨٩١م.

(٢) د. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب ١-٢ مكتبة الآداب - القاهرة ١٩٤٧م.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب ٢٣٢ تحقيق عبد المنعم عامر - لجنة البيان العربي - القاهرة ١٩٦١م «إفريقية» بكسر الهمزة وهو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية «ياقوت الحموي: معجم البلدان ١ / ٣٠٠ طبعة محمد أمين الخانجي، القاهرة ١٩٠٦م».

إفريقية غير كافٍ لتحديد هذا المجال العظيم الذى انطلق فيه المسلمون، ومن ثم بدأ لفظ إفريقية يتقلص شيئاً فشيئاً، بينما أخذ لفظ المغرب فى الظهور^(١)، وأصبح مدلول إفريقية مقصوراً على الإقليم الذى تتوسطه القيروان^(٢) والذى يمتد من طرابلس^(٣) «إطرابلس» شرقاً حتى بجاية^(٤) أو ملىانة غرباً^(٥)، وصارت تُعرف إفريقية فيما بعد.

كما ميّز الجغرافيون العرب الأقاليم البعيدة من بلاد المغرب فأطلقوا عليها اسم المغرب أو المغرب الأقصى^(٦) وفى الوقت نفسه ظهر مصطلح المغرب الأوسط، وذلك على نحو ما جاء عند البكرى^(٧) وأصبح مجرى وادى ملوية مثل خط التقسيم

(١) ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ١٩.

(٢) القُيُروَان: مدينة عظيمة بإفريقية.. انظر المزيد فى: معجم البلدان ٧/ ١٩٣ مطبعة الخانجي.

(٣) البغدادي: مرآة الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ١/ ١٠٠ - ١٠١ تحقيق على محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٤ م.

طَرَابُلس: بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضاً مضمومة وسين مهملة - ياقوت الحموي: معجم البلدان ٦/ ٣٤ مطبعة الخانجي - القاهرة.

(٤) بجاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء، مدينة على ساحل البحرين إفريقية والمغرب: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٦٢ مطبعة الخانجي القاهرة.

(٥) ملىانة بالكسر ثم السكون وياء تحتهما نقطتان خفيفة وبعد الألف نون، مدينة فى آخر إفريقية بينها وبين تنس أربعة أيام، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/ ١٥٥، مطبعة الخانجي، القاهرة.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ١١-١٢ دار المعارف القاهرة ١٩٦٥، أبو عبيد البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧٦، مكتبة المثنى - بغداد.

(٧) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى أبو عبيد، مؤرخ جغرافى، ثقة علامة بالأدب له معرفة بالنبات نسبتة إلى بكر بن رائل، كانت لسلفه إمارة فى غربي الأندلس، وقيل كان أميراً وتغلب عليه المعتضد، وقال الصفدى: «كان ملوك الأندلس يتهادون مصنفاته، وكان معاقراً للراح، مدمناً يكاد لا يصحرو» ولد فى شلطيّش Saltes غربي إشبيلية وانتقل إلى قرطبة ثم صار إلى المرية فاصطفاه صاحبها محمد بن معن لصحبته ووسع راتبه، وهذا ما حمل بعض المؤرخين على نعتة بالوزير. ورجع إلى قرطبة بعد غزوة المرابطين، فتوفى بها عن عالية سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م. له عدة مصنفات منها: «المسالك والممالك» و«معجم ما استعجم» و«أعلام النبوة» و«شرح أمالى القالى فى أماليه» و«فصل العقال فى شرح كتاب الأمثال لابن سلام» و«الإحصاء لطبقات الشعراء» و«أعيان النبات» وله «رسائل» بحث بها إلى بعض معاصريه، وإنشأه مسجع على طريقة كتاب زمانه. انظر المزيدنى: الصلة ٢٨٢، طبقات الأطباء ٢/ ٢، بغية الوعاة ٢٨٥. آداب اللغة ٣/ ٨٤.

الذي يفصل بين المغربيين الأوسط والأقصى^(١)، وعلى هذا فالحد الشمالي الغربي الأوسط الذي صار دائرة للرستميين يبدأ من بجاية شرقاً إلى وادي ملوية وجبال تارة غرباً^(٢)، وهذه الواجهة الشمالية للمغرب الأوسط تطل كلها على البحر المتوسط، وتمتاز بساحلها الصخري الصلب الذي تتدافع عليه الأمواج التي تزيد من حدتها الرياح الغربية؛ بحيث يتعذر على السفن المعادية الاستقرار على الساحل، وفي الوقت نفسه توفرت في هذا الساحل ظاهرة الخلجان التي أقام عليها الرستميون موانئهم التي ربطت بلادهم ببلاد المغرب، والأندلس، وتمتد هذه الخلجان على هيئة أنصاف دوائر مثل خليج^(٣) وَهْرَان^(٤) وَمُسْتَعَانِم^(٥) وَتَنْس^(٦) وَشَرْشَال^(٧).

وتمثل الصحراء الكبرى الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط، وقد ضُمَّت هذه الصحراء كثيراً من العوامل التي سهَّلت قيام علاقات تجارية وثقافية وطيدة بين الرستميين وجيرانهم في جهات السودان الغربي؛ إذ حفلت هذه الصحراء بكثير من منابع المياه والواحات التي انتشرت في أنحائها فمكنت القوافل التجارية من القيام بمهامها الاقتصادية فجنى الرستميون من ورائها أرباحاً طائلة دعمت أركان دولتهم. وأشهر هذه الواحات والقواعد الصحراوية في صحراء المغرب الأوسط^(٨) قَاعْدَةُ وَرْجَلَان^(٩).

(١) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١٢.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧٦.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والغربي ١٠ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٠ م - القاهرة، محمد علي ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٥١٧ القاهرة ١٩٦٣ م، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٦ و ٨١ و ٨٢، أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر ١٦١ و ٢٤٥، الجزائر ١٣٥٠ هـ.

(٤) بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره نون، مدينة على البر الأعظم من المغرب، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/ ٤٣٦ مطبعة الخانجي - القاهرة.

(٥) مدينة بالقرب من مصب نهر شلف.

(٦) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٩.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١٦ د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١١، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٨٤ ابن خلدون: العبر ٦/ ١٩٩.

(٨) وَرْجَلَان: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون، كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨/ ٤١٤.

أما الحدود الشرقية للمغرب الأوسط فتتميز بأنها حدود مفتوحة طبيعياً سهلت اتصال المغرب الأوسط بجهات إفريقية الجنوبية وإقليم طرابلس وجبل نفوسة حيث لا توجد هناك فواصل عرضية تعوق الانتقال بين المغرب الأوسط وبين الجهات^(١). وقد منح هذا الوضع الجغرافي القويدي الحركة الإباضية التي انطلقت منها الدولة الرستمية كثيراً من فرص النجاح، فالمعروف أن هذه الجهات كانت مهبطاً للدعوة الإباضية قبل قيام الدولة الرستمية. وما أن فشل دعاة الإباضية في إقامة دولة لهم هناك حتى انتقل كثير منهم إلى المغرب الأوسط، مستفيدين من هذا الوضع الجغرافي، وهناك نجحوا في إقامة الدولة الرستمية الإباضية، وكان من الطبيعي بعد قيام هذه الدولة وتأكيد سلطانها في المغرب الأوسط أن تنضم هذه الجهات إليها وتصبح جزءاً منها:

بجانب هذه الحدود الطبيعية التي تمتع بها المغرب الأوسط كانت هناك عناصر السطح المتنوعة التي بسط الرستميون نفوذهم عليها، فتمتد في أراضي المغرب الأوسط سلسلتا الجبال المعروفة باسم أطلس التل وأطلس الصحراء^(٢). وتحاذي أطلس التل ساحل البحر فتقسم شمال المغرب الأوسط إلى ثلاث مناطق - تتباين بعضها عن بعض. وهذه المناطق هي: المنطقة الساحلية، وهي منطقة سهول ضيقة غنية كثيرة السكان. وتلي هذه المنطقة المنطقة التلية، وهي الوجه الجبلي من جبال الأطلس التلي الذي يلي البحر، وهذه المنطقة أخصب جهات المغرب الأوسط وأغناها من حيث التربة والغابات، ومن هاتين المنطقتين خرج كثير من الحاصلات الزراعية وغيرها عن طريق الموانئ الرستمية إلى بلاد الأندلس^(٣). أما المنطقة الثالثة فهي منطقة النجود أو الشطوط وتقع بين سلسلتى جبال الأطلس التلي والصحراوي. وهي منطقة فقيرة التربة قليلة المياه، لا تسمح للإنسان بدوام الاستقرار؛ لذا فهي قليلة السكان ضعيفة العمران^(٤).

(١) د. إبراهيم رزقانة: المغرب العربي - معهد الدراسات الإسلامية - القاهرة.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١١.

(٣) ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا ١٤٢ بيروت ١٩٧٠ م، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ١٣٣ - تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد.

(٤) د. إحسان حقى: الجزائر العربية ١٣ منشورات المكتب التجاري ١٩٦١ م، أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر ١٦١.

وتمتد بعد ذلك سلاسل جبال الأطلس الصحراوي، وهي تنحدر شديداً نحو الصحراء، وتتميز بأنها منابع لبعض المجاري المائية القصيرة التي تغذي عدداً من واحات الصحراء^(١). وقد ارتبط أهالي منطقة النجود أو الشطوط التي تقع بين أطلس التل وأطلس الصحراء بيدو الصحراء أكثر من ارتباطهم بأهل السهل الساحلي، وهذا الإقليم ازدهرت فيه المراعى التي أمدت الدولة الرستمية بثروة رعوية لا بأس بها^(٢) كما ساهمت هذه المناطق الجبلية بدورها في حماية الدولة الرستمية.

مصادر المياه في المغرب الأوسط

لم يُحط بالمغرب الأوسط بعدد كبير من الأنهار، فأنهاره قليلة صغيرة، وبعضها لا تكثر فيه المياه إلا في فصل الشتاء عندما تهطل الأمطار^(٣). وقد كان لهذه الأنهار أثرها في ازدهار العمران في المغرب الأوسط وفي الدولة الرستمية بصفة خاصة؛ حيث أسس عبد الرحمن بن رستم عاصمة دولته على نهر مينة^(٤). وأشهر أنهار المغرب الأوسط:

- ١ - نهر الشلف: وينبع هذا النهر من جبل وانشرش، ويصب مأؤه في البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة مستغانم^(٥).
- ٢ - نهر سيرات: ويجري هذا النهر بالقرب من قلعة هواره، ويسقى هذا النهر فحوص سيرات الذي يبلغ طوله أربعين ميلاً^(٦).

(١) محمد أحمد حسونة: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية ٥٣ - مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ١٩٦١ م.

(٢) محمد أحمد حسونة المرجع السابق ٥٣.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ١٤.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ٦٦.

(٥) ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا ١٤١، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ٦٩.

(٦) البكري: المصدر السابق ٦٩ - ٧٠.

٣- نهر مينة: وهذا النهر يأتي من جهة القبلة لمدينة تاهرت^(١) عاصمة الرستميين^(٢).

والى جانب هذه الأنهار هناك وديان صغيرة يأتيها الماء من العيون أو من قسم الجبال^(٣). ومن هذه الأنهار الصغيرة والوديان ذلك النهر الذي يتجمع من عيون تسمى تاتشى وعليه يعتمد أهل تاهرت فى شربهم ورى بساتينهم، ونهر تامن وهوند تامن وهو نهر يأتي من الجبال فى جنوب تنس وعليه تعتمد مزارع تنس التى اشتهرت بزراعة الحبوب كالقمح^(٤). وقد ساهمت هذه الأنهار والوديان والعيون فى قيام حياة زراعية هيات الاستقرار لكثير من المواطنين الرستميين، بالإضافة إلى أنها شكلت مصدراً مهماً من مصادر رخاء الدولة الرستمية وازدهارها اقتصادياً.

المناخ فى المغرب الأوسط

ونتيجة تنوع عناصر السطح فى المغرب الأوسط من سهول ساحلية إلى هضاب وجبال وصحارى، فقد تنوعت عناصر المناخ المتمثلة فى درجات الحرارة وكميات الأمطار، وكان لهذا التنوع أثره الكبير فى تعدد النشاط البشرى لسكان المغرب الأوسط.

فالمنطقة الساحلية ذات طقس معتدل لطيف فى الشتاء خفيف فى الصيف كثير الرطوبة، كما تشتد الحرارة فى السهول المرتفعة الداخلية^(٥)، وفى هاتين المنطقتين تغزر الأمطار فيشتغل السكان بالزراعة ويحيون حياة الاستقرار والتحضر^(٦).

أما الأنجاد أو الشطوط فجوها بارد لاذع فى الشتاء شديد الحرارة فى الصيف

(١) بفتح الهاء وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لإحدهما تاهرت القديمة، والأخرى تاهرت المحدثنة بين تلمسان وقلعة بنى حماد.

انظر: البغدادى: مرصد الاطلاع ١ / ٢٥١.

(٢) البكرى: المصدر السابق ٦٦.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ١٤.

(٤) ابن سعيد المغربى: كتاب الجغرافيا ١٤٢، مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار ١٣٣.

(٥) أحمد توفيق المدنى: كتاب الجزائر ١٧٢ - ١٧٣.

(٦) يحيى بوعزيز: الموجز فى تاريخ الجزائر ٢٠ المطبوعات الوطنية الجزائرية ١٩٦٥ م، د. جمال الدين الدناصورى وآخرون: جغرافية العالم - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ٢ / ١٣٨.

ويستمر ارتفاع الحرارة كلما تقدمنا نحو الصحراء، وبالتالي تقل كمية الأمطار حتى تندر أو تكاد تنعدم؛ لذا كان النشاط البشرى الذى يمارسه السكان فى هاتين المنطقتين هو حرفة الرعى التى تفرض عليهم أن يعيشوا حياة التنقل والترحال وراء العشب والمراعى^(١).

السكان

جاء تكوين السكان فى الدولة الرستمية صورة صادقة للتكوين الذى كان سائداً فى بلاد المغرب فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى، وتتضح معالم هذا التكوين فى انقسام السكان فى الدولة إلى أربعة أقسام هى:

١ - الأفارقة: وكانوا يشكلون بوجه عام سكان المدن والمراكز القريبة من المدن، وهم مزيج من بقايا الأمم التى احتلت بلاد المغرب كالرومان والبيزنطيين وبقايا الشعب القرطاجنى القديم، وهؤلاء لا يرجع أصلهم إلى البربر، ولا تجمعهم أصول دموية واحدة، ولا جدّ أعلى ينحدرون منه، وإنما انصهروا فى الحياة الجديدة فى مدن المغرب، واستقروا فيها وعاشوا مختلطين بمن تحضر من البربر، وأصبحت تجمعهم هذه الحياة المشتركة من استقرار فى الأرض وارتباط بالمعيشة فهم تجمعهم حياة المدينة وما يتصل بها من أرباض ومزارع هى على الأغلب جزء منها^(٢). وقد عاش أفارقة المغرب الأوسط فى المجتمع الرستمى حياة المواطن العادى من أبناء الدولة. بل إن بعض هؤلاء الأفارقة من المسيحيين كانت لهم منزلة خاصة لدى بعض أئمة الرستميين كأبى بكر بن أفلح^(٣).

٢ - العرب: وهم الجند الذين وفدوا إلى بلاد المغرب فى أثناء الفتح الإسلامى لهذه البلاد، والعرب الذين انتقلوا إلى هذه البلاد بعد تمام الفتح واتخذوا منها موطناً

(١) د. جمال الدين الدناصورى وآخرون جغرافية العالم ١٣٧/٢، د. أحمد توفيق المدنى: الجزائر ١٧٣، د. إحسان حقى: الجزائر العربية ١٣.

(٢) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٥، د. حسن على حسن: دولة الإدارة بالمغرب: قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى - رسالة ماجستير كلية دار العلوم - القاهرة ١٩٦٧م ص ١٠٠، د. شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ١٨٠، دار العلم للملايين - بيروت.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٣٦، تحقيق: مولنسكى - باريس ١٩٠٧م.

لهم فاستقروا فيها وأقاموا بها، ومنهم أيضًا هؤلاء الذين أرسلهم الخلفاء لبثّ تعاليم الإسلام ونشره بين سكان البلاد. يضاف إليهم أيضًا هؤلاء الذين لجئوا إلى بلاد المغرب لنشر آرائهم ومبادئهم كالخوارج؛ إذ وجدوا في هذه الأرض مرتعًا خصبًا لأفكارهم وآرائهم، كما أنهم في هذه الأراضي البعيدة عن دمشق وبغداد يكونون في أمن من ضربات الخلافة^(١). وقد حظى المغرب الأوسط بأعداد كبيرة من هؤلاء الخوارج فكان مسرحًا للدعوة الإباضية ومن ثم كان المغرب الأوسط في نظر عبد الرحمن من رستم أنسب الأماكن لتأسيس دولة إباضية به، وقد ظل هؤلاء العرب في مجتمع الدولة الرستمية على حالهم يمثلون طبقة معروفة لدى الجميع، فكان يطلق عليهم العرب^(٢).

٣ - العجم: وهم الفرس الذين جاءوا إلى بلاد المغرب ضمن جيوش المسلمين الفاتحين أو الذين قَدِموا مع الجيوش الخلافية لإخماد ثورات البربر^(٣)، وكان يطلق عليهم اسم العجم، وكان لهؤلاء العجم دور كبير في أحداث الدولة الرستمية في عهد الإمام أبي بكر بن أفلح وأخيه أبي اليقظان، كذلك في عهد الإمام أبي حاتم يوسف ابن محمد، وقد أطلق عليهم ابن الصغير الذي عاصر أحداث الدولة الرستمية وأرخ اسم العجم^(٤).

٤ - البربر^(٥): وهم السكان الأصليون لبلاد المغرب، وهم يمثلون الغالبية العظمى

(١) د. حسن على حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ١٠-١١.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٧-٣٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ق ١ ورقة ١٩-٢٠.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٧-٣٩ و ٥٢.

(٥) البربر اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب لأنهم كانوا ينظرون للبربر على أنهم أعاجم على حضارتهم ولذلك سموهم «البرابرة» وجاء العرب فاستخدموا هذه التسمية بعد أن عربوها إلى «بربر» أو «برابر»، وما أن جاء القرن الرابع الهجري حتى دُوِّنت أنساب البربر بالعربية، وأصبحت هذه الأنساب علمًا مثل أنساب العرب، بل إن نسبة البربر اتخذوا من شجرة الأنساب العربية - التي تقسم العرب إلى شعيبين كبيرين ينحدران من عدنان وقحطان - نموذجًا يُحتذى في تقسيم قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما: البتر والبرانس إلى جد واحد.

د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٤-٢٥ د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ١٣٣ الإسكندرية ١٩٦٦ م.

Julien, Hist. de l'Afrique du Nord Delaconquete Arale A 1830 - P. 10.

فى التكوين السكانى للمغرب الأوسط وقد رجب هؤلاء البربر بالمبادئ التى حملها
إليهم عبد الرحمن بن رستم واعتنقوها، وكانوا العنصر الأساسى الذى اعتمد عليه
عبد الرحمن بن رستم فأقام دولته بينهم.

وينقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين: البربر الحضري
وهؤلاء يسكنون السهول الخصبة والمدن والهضاب المزروعة، وكانوا يتصلون
اتصالًا قويًا بالحضارة القرطاجنية واللاتينية ويعتمدون فى معيشتهم على الزراعة
والصناعة. والبربر الرُّحَّل وهؤلاء يعيشون على الرعى ويميلون إلى الإغارة على
السهول وما يجاورهم من جهات العمران^(١).

وقد تحدث ابن خلدون عن هاتين المجموعتين فقال: «هذا الجيل من الآدميين
هم سكان المغرب القديم ملئوا البساتن والجبال من تلولة وأريافه وضواحيه
وأمصاره، يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر
والوبر، يظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة، لا
يجوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس ومكاسبهم الشاء والبقر والخيول
والغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن
العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلاح ودواجن السائمة، ومعاشى المعتزين أهل
الانتجاع والأطعان فى نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم، وأكثر أثاثهم
من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة، ويفرغون عليها البرانس الكحل
ورءوسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعهدونها بالحلق، ولغتهم من الرطانة الأعجمية
متميزة بنوعيتها وهى التى اختصوا من أجلها بهذا الاسم «البربر»^(٢).

وابن خلدون فى هذا النص يفرق بين أسلوب البربر الحضري وهؤلاء أطلق عليهم
المؤرخون اسم البرانس، أما البربر الرحل فأطلقوا عليهم اسم البتر^(٣). وقد حاول
النسابة إرجاع هذه التسمية إلى الأصول الأولى التى ينتمى إليها البربر، فقالوا: إن

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ١٣٥، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٦.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦ / ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) السلاوى: الاستقصا ١ / ٣١، ابن خلدون: المصدر السابق ٦ / ١٧٦.

البربر «يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر
فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس»^(١).

ورغم هذا الانقسام إلى بتر وبرانس فقد كان لكل من الفريقين دوره في الدولة
الرستمية وفق ما هيأته طبيعة حياته التي يمارسها للقيام به.

وأهم قبائل البتر التي ساهمت في قيام الدولة ودعمت أركانها:

١ - نفوسة من بني مادغيس الأبتر أبو البتر^(٢).

٢ - لواته: وهي بطن من بطون لواء الأكبر من مادغيس الأبتر، ومن لواته كانت
مزاته وسدراته^(٣).

٣ - لماية: وهي من ولد تمصيت بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر^(٤).

أما البرانس فكانت قبائل هواره الوحيدة من بين قبائل هذا الفرع من البربر التي
شاركت في تأسيس الدولة الرستمية ودعمت أركانها.

(١) ابن خلدون العبر ٦ / ١٧٦.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦ / ١٧٨ - ١٧٩.

نُفُوسَة بالفتح ثم الضم والسكون، وسين مهملة.
الهندادي: مرصد الاطلاع ٣ / ١٣٨٢.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ٦ / ١٧٩ - ١٨٠ لَوَائَة بالفتح والتاء مثناة: قبيلة من البربر، الهندادي:
المصدر السابق ٣ / ١٢١٠

مُرَاتَه: ابن خرداذبة: المسالك والممالك ٩٠ - مكتبة المثنى - بغداد، سدراته: موطنها بالمغرب الأدنى
في شمال الأوراس وجنوبه.

محمد علي دبور: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٧٩.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٩ - ٣٠، ابن خلدون: العبر ٦ / ١٨٠ - ١٨١.
لَمَايَة: محمد علي دبور: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٢٥٧

الفصل الأول

الأحوال السياسية للمغرب الأوسط قبيل قيام الدولة الرستمية

١ - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

تركزت المحاولات الأولى للفتح العربى فى بلاد المغرب - منذ خلافة عمر بن الخطاب^(١) رضى الله عنه حتى قيام الدولة الأموية - فى منطقتى برقة وإفريقية فقط.

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى أبو حفص ثانى الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمر المؤمنين، الصحابى الجليل الشجاع الحازم صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، كان فى الجاهلية من أبطال قريش وأشرفهم، وله السفارة فيهم، يناقر عنهم وينذر من أرادوا إنذاره وهو أحد العبرين اللذين كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو به أن يعز الإسلام بأحدهما، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين وشهد الوقائع. قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر رضى الله عنه. وقال عكرمة: لم يزل الإسلام فى الخفاء حتى أسلم عمر رضى الله عنه. وكانت له تجارة بين الشام والحجاز. وبويع بالخلافة يوم وفاة أبى بكر رضى الله عنه سنة ١١ هـ بعهده منه. وفى أيامه تم فتح الشام والعراق وافتتحت القدس والمدائن ومصر والجزيرة حتى قيل انتصب فى مدته اثنا عشر ألف منبر فى الإسلام، وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجرى، وكانوا يؤرخون بالوقائع، واتخذ بيت مال للمسلمين، وأمر ببناء البصرة والكوفة فبُنيتا، وأول من دوّن الدواوين فى الإسلام جعلها على الطريقة الفارسية لإحصاء أصحاب الأعطيات وتوزيع المرتبات، وكان يطوف فى الأسواق منفرداً ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم وكتب إلى عماله إذا كتبتم لى فابدهوا بأنفسكم. وروى الزهرى: كان عمر رضى الله عنه إذا نزل به الأمر المفصل دعا الشبان فاستشارهم، يبتغى حدة عقولهم. وله كلمات وخطب ورسائل غاية فى البلاغة. وكان لا يكاد يعرض له الأمر إلا أنشد فيه بيت شعر. وكان أول ما فعله لما ولى، أن ردّ سبائيا أهل الردة إلى عشائره وقال: كرهت أن يصير السبى سبية على العرب. وكانت الدراهم فى أيامه على نقش الكسروية وزاد فى بعضها {الحمد لله} وفى بعضها {إلا إله إلا الله وحده} وفى بعضها {محمد رسول الله}. له فى كتب الحديث ٥٣٧ حديثاً. وكان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظاً يا عمر»، وفى الحديث «اتقوا غضب عمر فإن الله يغضب لغضبه». لقبه صلى الله عليه وسلم بالفاروق وكناه بأبى حفص، وكان يقضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالوا فى صفته: كان أبيض عاجى اللون، طوالاً مشرفاً على الناس، كث اللحية، انزع «منحسر الشعر من جانبي الجبهة» يصبغ لحيته بالحناء والكتم. قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسى

ولم تكن هذه المحاولات سوى إغارات سريعة لم يحظ المغرب الأوسط بشيء منها، لذا لم تحقق هذه الإغارات للمسلمين استقراراً يتمكنون عن طريقه من تعريف أهل البلاد بالإسلام وما يحمله من مبادئ سامية ونظم متكاملة، كما أن هذه الغارات لم تقضي على مقاومة الروم «البيزنطيين» التي تعتبر عقبة كبيرة في سبيل انتشار الإسلام وتثبيت دعائم الفتح. لذلك فقد كان على الخلافة الأموية - بعد أن استتبّت الأمور في يد معاوية بن أبي سفيان^(١) سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م أن تتبنى سياسة جديدة تستهدف الفتح المنظم لبلاد المغرب^(٢).

غلام المنيرة بن شعبه غيلة بخنجر في خاصرته وهو في صلاة الصبح وعاش بعد الطعنة ثلاث ليالٍ. انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ١٩/٣ تاريخ الطبري ١/ ١٨٧-٢١٧ ثم ٢/ ٢-٨٢، تاريخ يعقوبى ٢/ ١١٧، الإصابت: ٥٧٣٨، صفة الصفوة ١/ ١٠١، حلية الأولياء ١/ ٣٨، تاريخ الخميس ١/ ٢٥٩ ثم ٢/ ٢٣٩، أخبار القضاة ١/ ١٠٥، البدء والتاريخ ٥/ ٨٨ و١٦٧، الكنى والأسماء ١/ ٧، الإسلام والحضارة ١١١/٢ و٣٦٤.

(١) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي مؤسس الدولة الأموية في الشام وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار كان فصيحاً حليماً وقوراً. ولد بمكة سنة ٢٠ ق. هـ / ٦١٣ م وأسلم يوم فتحها سنة ٨ هـ وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه. ولما ولي أبو بكر رضى الله عنه ولأه قيادة جيش تحت إمرة أخيه. يزيد بن أبي سفيان، فكان على مقدمته في فتح مدينة صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، ولما ولي عمر رضى الله عنه جعله والياً على الأردن ورأى فيه حزماً وعلماً فولاه دمشق بعد موت أميرها يزيد أخيه وجاء عثمان رضى الله عنه فجمع له الديار الشامية كلها وجعل ولاية أمصارها تابعين له، وقتل عثمان رضى الله عنه. فولى على بن أبي طالب رضى الله عنه فوجه لفوره بعزل معاوية، وعلم معاوية بالأمر قبل وصول البريد فنادى بشار عثمان واتهم علياً رضى الله عنه بدمه، ونشبت الحروب الطاحنة بينه وبين علي رضى الله عنه وانتهى الأمر بإمامة معاوية في الشام وإمامة علي في العراق. ثم قتل علي ويبيع بعده ابنه الحسن، فسلم الخلافة إلى معاوية سنة ٤١ هـ. ودامت لمعاوية الخلافة إلى أن بلغ سن الشيخوخة، فعهد بها إلى ابنه يزيد ومات في دمشق. له ١٣٠ حديثاً اتفق البخاري ومسلم على أربعة منها وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة، وهو أحد عظماء الفاتحين في الإسلام، بلغت فتوحاته المحيط الأطلنطي، وافتتح عامه بعصر بلاد السودان سنة ٤٣ هـ. وهو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو. وفي أيامه فتح كثير من جزائر يونان والدرديل وحاصر القسطنطينية براً وبحراً سنة ٤٨ هـ وهو أول من جعل دمشق مقر خلافة، وأول من اتخذ المقاصير «الدور الواسعة المحصنة» وأول من اتخذ الحرس والحجاب في الإسلام. وأول من نصب المحراب في المسجد، كان يخطب قاعداً، وكان طوالاً جسيماً أبيض، إذا ضحك انقلب شفته العليا، وضربت في أيامه دنائير «عليها صورة أعرابي متقلد»، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا نظر إليه يقول: هذا كسرى العرب. انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٤/ ٢، تاريخ الطبري ٦/ ١٨، منهاج السنة ٢/ ٢٠١-٢٦٦، تاريخ يعقوبى ٢/ ١٩٢، تاريخ الخميس ٢/ ٢٩١-٢٦٦، البدء والتاريخ ٦/ ٥، شذور العقود للمقرئى ٦، معجم الشعراء ٣٩٣، مروج الذهب ٢/ ٤٢، خلاصة تدعيب الكمال ٣٢٦، الإسلام والحضارة العربية ٢/ ١٤٦-١٦١ و٣٩٤، المعبر ١٩، الذهب المسبوك ٢٤.

(٢) د. محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة الأموية في العصر الأموي ٢٥٧ القاهرة ١٩٦٦ م.

وكانت المبادرة الأولى في هذه السياسة الأموية أن ولى معاوين بن أبي سفيان «عقبة بن نافع الفهري»^(١) قيادة عمليات الفتح في بلاد المغرب سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م وأمه بعشرة آلاف فارس^(٢)، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة هي مرحلة الفتح المنظم لبلاد المغرب، وامتداد تلك الفتوح خاصة إلى بلاد المغرب الأوسط.

حملة عقبة بن نافع الأولى ٥٠ هـ / ٦٧٠ م

رأى عقبة - في أثناء حملاته على بلاد المغرب - أن فتح تلك البلاد، ينبغي أن يتم في إطار خطة عامة تقوم على تأسيس قاعدة ثابتة يستقر فيها المسلمون، ثم يتابعون منها الغزو ونشر الإسلام^(٣). ووقع اختيار عقبة على مكان لهذه القاعدة التي سماها

(١) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي الفهري فاته من كبار القادة في صدر الإسلام وهو باني مدينة القيروان، وُلد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم سنة ١ ق.هـ / ٦٣٠ م ولا صحبة له، وشهد فتح مصر، وكان ابن خاله عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى إفريقية سنة ٤٢ هـ واليًا فافتتح كثيرًا من تخوم السودان وكورها في طريقه وعلا ذكره، فولاه معاوية إفريقية استقلالاً سنة ٥١ هـ وسير إليه عشرة آلاف فارس، فأوغل في بلاد إفريقية حتى أتى رادى القيروان، فأعجبه فبنى فيه مسجدًا لا يزال إلى اليوم يعرف بجامع عقبة، وأمر من معه فبنوا فيه مساكنهم، وعزله معاوية سنة ٥٥ هـ فعاد إلى المشرق، ولما توفي معاوية بعثه يزيد واليًا على المغرب سنة ٦٢ هـ فقصده القيروان، وخرج منها بجيش كثيف، ففتح حصونًا ومدنًا وصالحة أهل فزان، فسار إلى الزاب وناهرت. وتقدم إلى المغرب الأقصى فبلغ البحر المحيط وعاد، فلما كان في تهوده من أرض الزاب تقدمته العساكر إلى القيروان، وبقي في عدد قليل، فطمع به الفرنج، فأطبقوا عليه فقتلوه ومن معه ودفن بالزاب سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م.

انظر المزيد في: الاستقصا ١/ ٣٦-٣٨، البيان المغرب ١/ ١٩، بغية الرواد ١/ ٧٦، فتح العرب للمغرب ١٣٠ - ١٥٢.

(٢) النويري: نهاية الأرب. ج ٢٢ ق ١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٤٦٥ دار صادر - بيروت - ١٩٦٥ م تحقيق إحسان عباس.

(٣) ظهر عقبة بن نافع على مسرح أحداث الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، حين عهد إليه عمرو بن العاص بحملة لفتح فزان، كما أصبح عقبة أميرًا على إفريقية من قبل عمرو بن العاص وذلك سنة ٢٣ هـ وفي سنة ٤١ هـ استعمله عمرو بن العاص على إفريقية فغزا لواته ومزاته وافتتح غدامس سنة ٤٢ هـ وفي سنة ٤٣ هـ غزا عقبة بعض كور السودان وودان وظل عقبة مقيمًا في برقة وزويلة حتى استعمله معاوية بن أبي سفيان.

انظر: د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٣٠ - ١٣١.

القيروان، وشرع فى بنائها بعد أن فرغ من فتح إفريقية وقضى على مقاومة الروم «البيزنطيين» والبربر بها سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م^(١).

وتجلت عبقرية عقبة الحربية فى اختيار موضع القيروان؛ فموقعها على عتبة إقليم نومنديا يجعلها مفتاحاً لبلاد المغرب الأوسط وما يليها من أراضى المغرب الأقصى^(٢). ثم إن بُعدها عن الساحل يجعلها فى مأمن من غارات الروم المفاجئة. وأخيراً فإن قربها من السبحة يتيح للإبل المسلمين أن تكون آمنة فى مراعيها من اعتداءات البربر والنصارى عليها^(٣).

وقد أوضح عقبة هدفه من تأسيس القيروان حين قال لجنوده: «فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بُدٌّ من الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها «أى بلاد المغرب» الأول فالأول»^(٤).

وانشغل عقبة بتأسيس القيروان أربع سنوات، أو تزيد قليلاً^(٥) تغيرت خلالها الأمور فى بلاد المغرب، وأصبحت الأوضاع تقتضى تغييراً فى القيادة العليا الإسلامية هناك، وكان مسلمة بن مخلد^(٦) - والى مصر - أول من أحس - لقربه من بلاد المغرب - أن الأمور تتغير فى تلك البلاد لغير صالح المسلمين نتيجة السياسة الجديدة التى اتبعها فى تلك البلاد الإمبراطور قسطنطين الرابع، إذ أصدر هذا الإمبراطور أوامره بمنع الاضطهاد الدينى لأهالى المغرب أملاً فى تكوين جبهة داخلية قوية لمقاومة

(١) الدباغ معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ١ / ٨، تحقيق إبراهيم شبوح - الخانجي - القاهرة ١٩٦٨م.

(٢) د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر ٨٩ - ٩٠.

(٣) ابن عذارى البيان: المغرب ١ / ١٩ - ٢٠، الدباغ: معالم الإيمان ١ / ٩.

(٤) ابن عذارى البيان: المغرب ١ / ١٩ - ٢٠.

(٥) د. محمد حلمى محمد أحمد: الخلافة والدولة فى العصر الأموى ٢٥٩.

(٦) هو مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصارى الخزرجى من كبار الأمراء فى صدر الإسلام. وقد على معاوية قبل أن يستتب له الأمر، وشهد معه معارك صفين فولاه إمارة مصر سنة ٤٧هـ ثم أضاف إليها المغرب فأقام بحصر وسير الغزاة إلى المغرب فى البر والبحر. ولما توفى معاوية أقره يزيد فاستمر فى الإمارة إلى أن توفى بالإسكندرية ٦٢هـ / ٦٨٢م وقيل بالمدينة، وهو أول من جعل بنيان المنائر التى هى محل التأذين فى المساجد كان ولده سنة ١هـ / ٦٢٢م انظر المزيد فى الكامل ٤ / ٤٤، الإصابة ت ٧٩٩١، الولاة والقضاة ٣٨ - ٤٠.

المسلمين، تضم الروم مع بربر المغرب الأوسط وبخاصة قبيلة أوربة، والقبائل البدوية الخاضعة لها^(١). وأمام هذه التطورات سعى مسلمة بن مخلد في عزل عقبة عن القيادة العليا في المغرب، وتولية دينار أبي المهاجر سنة ٥٥٥هـ / ٦٧٦م^(٢).

دينار أبو المهاجر «٥٥٥هـ - ٦٧٦م»

قَدِمَ دينار أبو المهاجر إلى إفريقية في هذه الظروف الجديدة من تحالف البيزنطيين مع البربر، وأجمعت معظم المصادر على أنه عزل عقبة وأخرجه إلى المشرق في حراسة مشددة^(٣)، ثم انتهج دينار أبو المهاجر لنفسه سياسة جديدة قوامها التقرب إلى البربر لضرب تحالفهم مع البيزنطيين، فأمر الناس بإخلاء القيروان والاتجاه إلى عمارة بلدة اسمها تيكروان^(٤). وأراد بذلك أن يُظهر تقربه إلى البربر ليفسد على الروم «البيزنطيين» مخططاتهم التي تقوم على غرس العداوة والسخط في نفوس البربر تجاه المسلمين، ونجح أبو المهاجر بعد ذلك في نقل مسرح عملياته العسكرية إلى المغرب الأوسط، فقد رأى أن المنطقة الواقعة بين تاهرات ووهران والتي تتوسطها تلمسان أصبحت مقر نشاط التحالف البيزنطي البربري الجديد^(٥)، ويات الهجوم عليها أمرًا ضروريًا، فخرج بجيشه حتى وصل إلى تلمسان، وهناك اصطدام بالبربر وهزمهم وظفر بكسيلة زعيم أوربة، وبكياسة دينار وحسن سياسته استطاع اجتذاب

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٠٩.

Diehl, Ch, L, Afrique Byrantine P. 576 London 1896.

أوربة: بالفتح ثم السكون وفتح الراء والباء موحدة وهاء: قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس. ياقوت الحموي: معجم البلدان ١ / ٣٧١.

(٢) د. إبراهيم العدوي، بلاد الجزائر ٩١ - ٩٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٢١ - ٢٢.

(٤) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ٢٩، تحقيق: محمد شمام.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون ٢٤٠، القاهرة ١٩٦٣م، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٦٦.

تلمسان: بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة.

ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ٤٠٨، طبعة الخانجي.

كسيلة إلى الدخول في الإسلام^(١) هو وعدد كبير من البربر، فكانت هذه صفحة جديدة في تاريخ انتشار الإسلام في المغرب الأوسط.

وفي سنة ٥٩هـ / ٦٧٨م اتجه أبو المهاجر دينار إلى قرطاجنة التي تمثل أقوى معاقل الروم في الشمال الإفريقي وحاصرها حصارًا شديدًا، ولم يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل الروم عن جزيرة شريك، التي اتخذها أبو المهاجر مركزًا لمراقبة الروم ومعرفة تجمعاتهم وتحركاتهم^(٢).

بعد ذلك اتجه أبو المهاجر إلى ميلة واقتحمها وأقام بها سنتين عاد بعدهما إلى مقره في تيكروان بعد أن حقق أهدافه في المغرب الأوسط^(٣).

ولاية عقبة بن نافع الثانية «٦٢هـ / ٦٨٢م»

أثمرت جهود أبي المهاجر دينار في المغرب الأوسط، فقد عرف كثير من أهله الإسلام ودخلوا فيه، ولكن عقبة بن نافع كان قد استطاع في ذلك الوقت إقناع السلطات المركزية في دمشق بالعودة إلى القيادة العليا في بلاد المغرب بدلا من دينار أبي المهاجر. وحضر عقبة إلى القيروان «سنة ٦٢هـ / ٦٨١م»^(٤) مؤمنا بسياسته القديمة، ورفض تماما سياسة أبي المهاجر التي كانت تقوم على استمالة البربر وتحبيبهم في الإسلام، فلم يكد عقبة يتسلم زمام الأمور حتى أعد العدة لغزو

(١) ابن خلدون: العبر ٤ / ٣٩٩، ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٢٨-٢٩.

Mercier, F. Histoire de L'Afrique Septentrionale. P. 204 London 204.

(٢) د. محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي ٢٦٢.

قرطاجنة: بالفتح ثم السكون وطاء مهملة وجيم ونون مشددة ياقوت الحموي: معجم البلدان ٧ / ٥٢ طبعة الخانجي.

جزيرة شريك: بفتح الشين المعجمة وكسر الراء وياه ساكنة وكاف، كورة بإفريقية بين سوسة وتونس. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣ / ٩٩ الخانجي - القاهرة.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ / ١٥٢ طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٣ م.

ميلة: بالكسر ثم السكون ولا م، مدينة صغيرة بأقصى إفريقية.. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨ / ٢٢٦ طبعة الخانجي - القاهرة.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٧٨-١٧٩.

بلاد المغرب بكاملها. فاستخلف زهير بن قيس البلوى على القيروان وحمل معه أبا المهاجر دينار مكبلا بالحديد انتقامًا منه^(١)، واندفع بقواته يحرز النصر تلو النصر حتى وصل إلى السويس الأقصى بعد أن خاض معارك ضارية في باغاية ولميس والزاب^(٢) وتاهرت، وقد أظهرت هذه المعارك أن البيزنطيين عادوا إلى التحالف مع جماعات البربر المعروفة باسم «البرانس» لتكوين جبهة للمقاومة في المغرب الأوسط^(٣).

ذلك أن عقبة لم يبدأ من حيث انتهى أبو المهاجر دينار، وبذلك فقد عنصرًا مهمًا من عناصر النجاح؛ حيث أعطى تشدده مع البربر وخاصة كسيلة فرصة للروم «البيزنطيين» ليجددوا ما كان بينهم وبين البربر من تحالف ليصبحوا جبهة مقاومة واحدة ضد المسلمين تضرب ضربتها في الوقت المناسب، وفضلا عن ذلك فإن عقبة وقع في تأثير الإغراء الجغرافي لامتداد المغربين الأوسط والأقصى فتقدم بقواته دون أن يوفر لها حماية بحرية^(٤)، ودون أن يضع لنفسه خطة مرسومة محددة الأهداف تؤمن ظهر قواته في تقدمها ورجوعها، وترك جيوبًا كثيرة للأعداء يتحصنون بها خلف ظهره، تجمعت هذه الجيوب بعد ذلك وقضت عليه في يسر وسهولة^(٥).

-
- (١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢٢، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ٣٠.
(٢) الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٤٨-٤٩ النويري: نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١ ورقة ٦، السلاوي: الاستقصا ١/ ٣٨ مع اختلاف طفيف بين الروايات.
السوس الأقصى: كورة مدينتها طرقة.
ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ١٧١-١٧٢.
باغاية: الغين معجمة وألف وياء مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة الهواة.. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٤١.. لميس: موضع بينه وبين مطماطة أمسكرور على وادي ملوية مرحلة، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٤٧.
الزاب: بعد الألف باء موحدة.
ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٦٣.

- (٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٢٤-٢٥، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ١٨٢-١٦٨٣ و١٨٩.
(٤) د. إبراهيم أحمد العدوي: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي ٣٦.. سلسلة أعلام العرب العدد ٦٨.

- (٥) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٠٢-٢٠٣... وعبارة المؤرخين القدامى توضح هذا الإهمال من جانب عقبة فقد كره أن يقيم على حصار الروم في حصونهم التي كانوا يهربون إليها، فكان يترك هذه

اعتقد عقبة عندما وصل إلى شاطئ المحيط أن عملياته الحربية قد انتهت فارتد بسرعة إلى إفريقية، حتى إذا وصل إلى مدينة طنبجة أحس بتواطؤ الروم مع البربر؛ حيث طمروا آبار المياه في طريق عودته، لذا أمر جنوده أن يتقدموا فوجًا بعد فوج إلى القيروان، وسار هو إلى تهوذة لحراسة مؤخرة جنده^(١). فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كسيلة الأوربي الذي كان ضمن قوات عقبة، وكان قد ضاق ذرعًا بسوء معاملة عقبة له، يقول ابن خلدون: «وكان كسيلة ملك أوربة والبرانس مع البربر قد اضطغن عليه «عقبة بن نافع» بما كان يعامله به من الاختصار يقال إنه كان يحاصره كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت لمطبخه^(٢)، وكانت هذه فرصة عظيمة لكسيلة لينتقم من عقبة وها هو ذا يجد الروم يرأسلونه، بعد أن وصلتهم إمدادات كثيرة عن طريق البحر، فاتفق كسيلة معهم، واعترضوا عقبة في تهوذة وقتلوه هو وثلاثمائة من أصحابه من بينهم دينار أبي المهاجر سنة ٦٤ هـ / ٦٨٤ م^(٣).

وتطورت الأمور في القيروان بسرعة فقد وصلتها أنباء مذبحة تهوذة فكان لها وقع سيئ على المسلمين وعظم البلاء عليهم، وكان الجند العائدون قد نالهم التعب والإرهاق ولذلك فضلوا العودة إلى المشرق وترك القيروان، وكان على رأسهم حنش الصنعاني قائد حامية جزيرة شريك^(٤). وينقل ابن عذارى الحوار الذي دار بين زهير بن قيس وحنش الصنعاني حين قام زهير خطيبًا في الناس يدعوهم إلى القتال دفاعًا عن القيروان، فقام زهير بن قيس خطيبًا في الناس فقال: يا معشر المسلمين: إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد منَّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم، ويفتح الله

الحصون ممثلة بالعتاد والفرسان ويتقدم إلى غيرها دون تطهيرها. انظر: الدباغ: معالم الإيمان ١ / ٤٨ - ٤٩، النوبري: نهاية الأرب: مخطوطة ج ٢٢، ق ١، ورقة ٦ - ٧، ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٢٤.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤ / ١٠٦.. طنبجة: بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة، بلدة في طرف إفريقية على ضفة الزاب. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٦ / ٢٨.. تهوذة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو والذال معجمة اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تعرف باسم «تهوذة».. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ٤٣٨.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦ / ٣٩٩.

(٣) إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ٩٨، أرشيبالد لويس: القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٩٨ - ترجمة أحمد محمد عيسى - القاهرة ١٩٦٦ م.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٠٥.

لكم دون ذلك، فقال حنش الصنعاني: لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: يا معشر المسلمين: من أراد منكم القفول إلى مشرقه، فليتبعني، فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته^(١)، ووجد زهير نفسه في موقف بالغ الحرج، ففضل الانسحاب بعد أن رأى أن ما معه من الرجال لا يكفي للوقوف في وجه كسيلة، ومضى زهير حتى وصل إلى برقة، بينما واصل كسيلة المتصير زحفه إلى القيروان فاستولى عليها «وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم»^(٢)، وظل كسيلة يحكم القيروان حتى سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م^(٣).

وعلى الرغم من فشل حملة عقبة في تحقيق أهداف سياسية^(٤)، فإنها كانت موجهة من موجات المد الإسلامي حملت الإسلام إلى آفاق جديدة بدأت تدخل الإسلام شيئاً فشيئاً، ولا شك أنها تركت آثارها في المغرب الأوسط، فقد ظهرت فيه عناصر إسلامية جديدة وبخاصة بين القبائل البدوية «البتري» التي أعلنت العصيان على كسيلة ورفضت الانصياع له. ولذلك أثر كسيلة ألا يتعرض لهذه القبائل لينعم بشيء من الاستقرار في القيروان^(٥).

زهير بن قيس البلوي ٦٩ هـ / ٦٨٨ م

وأقام كسيلة بالقيروان خمس سنوات، كانت الخلافة الأموية خلالها مثقلة بمشكلاتها الكثيرة، وخاصة ثورة عبدالله بن الزبير^(٦) في الحجاز، وحركة المختار

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣١ / ١، السلاوي: الاستقصا ٣٩ / ١.

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١ ورقة ٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١ / ١٧١ - ١٧٢.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ٢٧ / ١، د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ٩٩.

(٦) هو عبدالله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبو بكر فارس قرشي في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة شهد فتح إفريقية زمن عثمان رضي الله عنه، وبيع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ عقيب موت يزيد ابن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة. وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة حتى سيروا إليه الحجاج الثقفي في أيام عبد الملك بن مروان فانتقل إلى مكة وعسكر الحجاج في الطائف ونشبت بينهما حروب أتى المؤرخون على تفصيلها انتهت بمقتل

بن أبي عبيد الثقفي^(١) بالعراق. ولكن ما أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان سنة

ابن الزبير في مكة بعد أن خذله عامة أصحابه وقاتل قتال الأبطال وهو في عمر الثمانين وكان من خطباء قريش المعدودين يشبه في ذلك بأبي بكر رضى الله عنه، مدة خلافته تسع سنين. وكان نقش الدراهم في أيامه بأحد الوجهين «محمد رسول الله» والآخر «أمر الله بالوفاء والعدل» وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة، له في الصحيحين ٢٣ حديثاً وكانت في الأعمال البهناوية بمصر طائفة من بنيهم بنو بدر وبنو مصلح وبنو نصارة.. انظر المزيد في: الكامل ٤/ ١٣٥، فوات الوفيات ١/ ٢١٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٠١، حلية الأولياء ١/ ٣٢٩، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢، صفة الصفوة ١/ ٣٢٢، تاريخ الطبري ٧/ ٢٠٢، تهذيب ابن عساكر ٧/ ٣٩٦، شذور العقود للمقرئزي ٦، جمهرة أنساب العرب ١١٣ - ١١٤.

(١) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق من زعماء الثائرين على بنى أمية وأحد الشجعان الأفلاد من أهل الطائف انتقل منها إلى المدينة مع أبيه في زمن عمر وتوجه أبوه إلى العراق فاستشهد يوم الجسر وبقي المختار في المدينة منقطعاً إلى بنى هاشم وتزوج عبدالله بن عمر بن الخطاب أخته صفية بنت أبي عبيد، ثم كان مع علي بالعراق وسكن البصرة بعد علي رضى الله عنه، ولما قتل الحسين رضى الله عنه سنة ٦١ هـ، انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد أمير البصرة فقبض عليه ابن زياد وجلده وحبسه ونفاه بشفاعة ابن عمر إلى الطائف، ولما مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ وقام عبدالله بن الزبير في المدينة يطلب الخلافة ذهب إليه المختار وعاهده وشهد معه بداية حرب الحرسين ثم استأذنه في التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته فوثق به، وأرسله ووصى عليه غير أنه كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا «الحسين» وقتلوه فدعا إلى إمارة «محمد بن الحنفية»، وقال: إنه استخلفه فبايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سراً، فخرج بهم على رالي الكوفة عبدالله بن مطيع فغلب عليها واستولى على الموصل وعظم شأنه وتبع قتلة الحسين رضى الله عنه فقتل منهم شمر ذى الجوشن الذي باشر قتل الحسين رضى الله عنه وخولى بن يزيد الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي حاربه، وأرسل إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد الذي جهز الجيش لحرب الحسين، فقتل ابن زياد وقتل كثيرين ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة، وكان يرسل بعض المال إلى صهره ابن عمر وإلى ابن عباس وإلى ابن الحنفية فيقبلونه، وشاعت في الناس أخبار عنه بأنه ادعى النبوة وتزول الوحي عليه وأنه كان لا يرقف له على مذهب، ونقلوا عنه أسجاعاً، قيل: كان يزعم أنها من الإلهام، منها: «أما والذي شرع الأديان وحبب الإيمان، وكره العصيان، لأقتلن أزد عمان، وجل فيس عيلان وتميماً أولياء الشيطان، حاشا النجيب بن ظبيان»، وقد يكون هذا من اختراع أصحاب القصص، وقد نقله الثعالبي، وعلم المختار بأن عبدالله بن الزبير اشتد على ابن الحنفية وابن عباس لامتناعهما عن بيعته في المدينة وأنه حصرهما ومن كان معهما في «الشعب» بمكة، فأرسل المختار عسكراً هاجم مكة وأخرجهما من الشعب فانصرف إلى الطائف، وحمد الناس له عمله ورؤيت عنه أبيات قالها في ذلك: تسربت من همدان درعا حصينة.. ترد العوالي بالأنوف الرواغم وعمل مصعب بن الزبير وهو أمير البصرة بالنيابة عن أخيه عبدالله على خضد شوكة المختار فقاتله ونشبت وقائع انتهت بحصر المختار في قصر الكوفة وقتله ومن كان معه، ومدة إمارته ستة عشر شهراً. وفي الإصابة وهو من غريب المصادفات أن عبد الملك بن عمر ذكر أنه رأى المختار وقد جرى برأس

٦٥ هـ / ٦٨٤ م حتى كتب إليه زهير بن قيس البلوي يستنهضه لتخليص إفريقية وتحرير من بها من المسلمين من يد كسيلة^(١). ورأى عبد الملك بن مروان بثاقب فكره أن استرداد إفريقية أمر حيوي يعيد للمجيوش الإسلامية هيبتها في الجناح الغربي للدولة، فاستشار وزراءه واستقر رأي الجميع على اختيار زهير بن قيس نفسه، نظرًا لما يتمتع به من خبرة في الميدان الإفريقي وشئونه، وأمدّه عبد الملك بن مروان بجيش كثيف وأمره بالتوجه إلى إفريقية، فتقدم إليها زهير بقواته سنة ٦٩ هـ^(٢). وبلغ كسيلة خبر تقدمه، فخشى البقاء في القيروان؛ لأن بها خلقًا كثيرًا من المسلمين؛ كما أنها محاطة بطوائف من البربر المواليين للعرب وهؤلاء ولا شك سينقلبون عليه، فيكون قد أوقع نفسه بين شقي الرحى، لذلك فضل أن تكون أرض المعركة في «ممس»^(٣) التي تقع بحصنها على هضبة تتصل بجبال الأوراس، وهذا سهل عليه الحصول على العتاد والمؤن والماء ولأن طبيعة المنطقة الجبلية تمكّنه من الهروب إلى موطنه إذا هُزم أمام زهير^(٤) وصل زهير إلى القيروان، وأقام بظاهرها ثلاثة أيام، فأراح جنده واستراح، وفي اليوم الرابع تقدم للقاء كسيلة، ودارت بينهما معركة عنيفة، أحكم فيها زهير حصار كسيلة، حتى أصبح فراره شيئًا مستحيلًا فهُزم ولقى مصرعه، وأمعنت قوات زهير في طلب الفارين من أتباع كسيلة ومطاردتهم حتى وادى ملوية^(٥). ويذكر المالكي وابن أبي دينار أن زهيرًا اتجه بعد قضاائه على كسيلة إلى الشمال ففتح شقنبارية، وباجة وبعض القلاع الأخرى^(٦).

عبدالله بن زياد، ثم رأى مصعب بن الزبير وقد أتى برأس المختار، ثم رأى عبد الملك بن مروان وقد حُمل إليه رأس مصعب.

انظر المزيد في: الإصابة ت: ٨٥٤٧، الفرق بين الفرق ٣١-٣٧، الكامل في التاريخ ٤/ ٨٢-١٠٨، تاريخ الطبري ٧/ ١٤٦، نمار القلوب ٧١، فرق الشيعة ٢٣، معجم الشعراء ٤٨، الأخبار الطوال ٢٨٢-٣٠٠، الذريعة ١/ ٣٤٨-٣٤٩، الفاطميون في مصر ٣٤-٣٨.

(١) ابن عذاري البيان المغرب ١/ ٣١، ابن الأثير: الكامل ٤/ ١٠٨.

(٢) الدباغ: معالم الإيمان ١/ ٥٧، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٣١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ١٠٩.

(٤) د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٢١.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٣٢، السلاوي: الاستقصا ١/ ٤٢.

(٦) المالكي: رياض النفوس ٣٠٨، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ٣٣، تحقيق: محمد شمام. شقنبارية: بعد القاف باء موحدة وبعد الألف نون وبعد الألف الأخرى راء أماكن بإفريقية، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ٢٨١.

وهكذا كان لجهود زهير نتائج خطيرة أثرت في مجريات الأحداث بعد ذلك، فقد نجح العرب في استرداد المغرب الأوسط وضمه إلى حوزتهم، وكسروا شوكة أوربة البرانس حليفة الروم، فتركت أوربة المغرب الأوسط لتستقر حول مدينة ويلي بالمغرب الأقصى^(١). فكان ذلك إيذانا بخروج بربر البرانس من حلبة الصراع القائم في المغرب.

ولم يهدأ الروم منذ وصلت أنباء انتصارات زهير بن قيس في إفريقية والمغرب الأوسط إلى مسامعهم في القسطنطينية، وأخذوا يدبرون شيئاً في الخفاء، فأبحرت مراكبهم بأعداد كثيرة من قواعدها في صقلية وشنت سلسلة من الإغارات البحرية شملت المناطق الشرقية المتاخمة لبرقة، ورأى زهير ضرورة مطاردة هذه الغارات والقضاء عليها وعلى نشاطها وأن ذلك خير له من الإقامة في القيروان، وعند وصوله إلى برقة استطاع الروم إيقاعه هو ونفر قليل من جنده في كمين أعدوه له على الساحل وتكاثروا عليه فاستشهد هو ومن معه في ساحة النضال، وسجل الروم على أنفسهم غدرًا لا يقل شراسة عما فعلوه مع عقبة في تهودة^(٢). ولم تستطع الخلافة الأموية في هذه الآونة أن تواصل اهتمامها بشئون المغرب، لأن جيوشها كانت تخوض المعارك الفاصلة مع عبدالله بن الزبير في العراق والحجاز، ومع الخوارج في فارس واليمامة^(٣)، وكان ذلك سببًا في فترة من الشعور الحربي في المغرب امتدت من سنة ٦٧١هـ / ٦٩٠م إلى سنة ٧٦هـ / ٦٩٦م انتهت حين استطاع عبد الملك بن مروان التغلب على ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م، فأرسل حسان بن النعمان على رأس قوات ضخمة لإقرار الأوضاع بالمغرب واستكمال فتحه.

باجة: بلد إفريقية تعرف بباجة القمع، سميت بذلك لكثرة حنطتها، بينها وبين تنس يومان. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ٢٥.

(١) السلاوي: الاستقصا ١ / ٤٢.

(٢) الثوري: نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١ ورقة ٨، ابن خلدون: العبر ٤ / ٤٠١، د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٠٥.

Fournel, H. Etude sur la conquête de L'Afrique par les Arabes. P. 28-29.

(٣) د. ضياء الدين الرئيس: عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية ٢٣٠ - ٢٣١ أعلام العرب رقم ٢٥٣.

حمل حسان بن النعمان عبء المرحلة الجديدة في فتح بلاد المغرب، وقد عمل عبد الملك بن مروان على تجهيزه بجيش كبير، يذكر المؤرخون أن المسلمين لم يدخلوا إفريقية بمثله، فقد بلغ عدده أربعين ألفاً تحملت خزانة مصر تكاليف إعدادهم وتجهيزهم بأنواع الأسلحة والمعدات^(١). تقدم حسان بهذا الجيش فاخترق برقة وطرابلس ووصل إلى القيروان دون أي مقاومة، وتمكن حسان أن يحرز نصراً كبيراً على الروم فهزمهم في قرطاجنة وصطقفورة وبنزرت، وفرت بقاياهم إلى صقلية والأندلس^(٢).

وبعد أن أحرز حسان بن النعمان هذه الانتصارات اضطر إلى خوض غمار معركة مع قبيلة جراويّة التي قادتها امرأة تدعى الكاهنة تجمع بعض البربر حولها بعد مقتل كسيلة، وقد ثنى جيش حسان بالهزيمة عندما التقاها عند نهر نيني^(٣)، وطاردته قوات الكاهنة حتى خرج من حدود قابس منسحباً إلى برقة^(٤). وفي تلك الأثناء تمكن أسطول الروم بقيادة البطريق يوحنا من استعادة قرطاجنة مرة ثانية. ويظهر من هذا أن موجة الفتح انحسرت من جديد لتعود المناطق الساحلية إلى سيطرة الروم والمناطق الداخلية إلى

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٣٤، النوير: نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١ ورقة ٨، ابن أبي دينار: المؤنس ٣٣ تحقيق: محمد شمام 38 Fowmel op cit.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤ / ٣٦٩ - ٣٧٠، النوير: نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١ ورقة ٨، ابن خلدون: العبر ٤ / ٤٠١.

برقة: بفتح أوله والقاف اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ١٣٣.

بنزرت: بفتح الزاي وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان، مدينة بأفريقية بينها وبين تونس يومان. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ٢٩٢.

صطقفورة: بالفتح ثم السكون والفاء وبعده واو ساكنة وراء مهملة وهاء، بلدة من نواحي إفريقية ٥ / ٣٥٦.

ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥ / ٣٥٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤ / ٣٧٠.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١٨٥.

قابس: مدينة جلييلة مسورة بالصخر من بنيان الأول وساحلها مرفأ للسفن من كل مكان وحولها قبائل من البربر لواته ولحاية ونفوسة ومزاتة وزواغة وزوارة.

البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٧ - ١٨.

سيطرة البربر^(١)، واتبعت الكاهنة سياسة تدل على عدم فهمها لمجريات الأحداث، والآثار الطبية التي تركتها موجات الفتح الإسلامي المتعاقبة في نفوس الأهالي، ذلك أنها أخذت في تخريب المدن وقطع الأشجار وتبديد العمران، ظناً منها أن ذلك يقطع أطماع العرب عن هذه البلاد. ولكن الذي حدث غير ذلك، فقد ثار البربر عليها ورفضوا الانصياع لها أو البقاء تحت سيطرتها، وقد استفاد حسان من هذا الوضع كثيراً عندما استأنف الزحف على إفريقية وبلاد المغرب سنة ٨١ هـ^(٢)، فاستطاع بمساعدة البربر - الذين ضاقوا ذرعاً بأعمال الكاهنة - أن يحرز نصراً نهائياً عليها ويقتلها سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م عند بئر الكاهنة في جبال الأوراس^(٣)، وطلب أصحابها الأمان فلم يقبل حسان أمانهم حتى أعطوه اثني عشر ألف فارس من جميع قبائلهم، دخلوا بعد ذلك في الإسلام فقسمهم حسان إلى فرقتين جعل على كل فرقة منهما ولدًا من ولدي الكاهنة اللذين دخلا في الإسلام واستأمنوا لحسان على يد يزيد ابن خالد الذي كان أسيراً عند الكاهنة^(٤)، وكانت هذه خطوة ضخمة في مجال الاتصال الاجتماعي بين العرب والبربر لتحقيق الهدف الأسمى من الفتح وهو نشر الإسلام.

لم يبق أمام حسان سوى قرطاجنة فزحف إليها مستعيناً بأسطول إسلامي، كان أول قوة بحرية إسلامية ظهرت في الساحل الإفريقي ودارت في البر والبحر حتى معركة كبيرة أسفرت عن تدمير قرطاجنة وهزيمة الروم وخروجهم نهائياً من إفريقية^(٥).

استقامت الأمور لحسان في المغرب فعكف على تنظيمه وصبغه بالصبغة العربية الإسلامية مثله في ذلك مثل كل الأقاليم التي فتحتها العرب واستقروا بها، ولا شك أن المغرب الأوسط تأثر كثيراً بهذه السياسة التي تهدف إلى إدماج العرب والبربر لخلق حالة من الاستقرار الدائم تستند إلى قاعدة شعبية من البربر، كما سعى حسان إلى ضم البربر إلى الجيش العربي وأخرجهم كما يقول المالكي «مع العرب يفتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر»^(٦).

(١) د. شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي ١٧٤.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون ٢٥٦.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ٢ / ٢٤٨.

(٤) المالكي: رياض النفوس ١ / ٣٦، ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٣٨.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون ٢٥٨، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٦٠.

(٦) المالكي: رياض النفوس ١ / ٣.

وجعل لهم نصيباً في الخطط فلكل قبيلة خطة تؤدي عنها المال، وقسم بينهم الفيء والأرض^(١)، وعندما شرع حسان في بناء قاعدة تونس البحرية جعل البربر يسهمون بنصيب كبير في تأسيسها فكان عليهم جسر الخشب اللازم لبناء السفن^(٢). وسوف يكون لدخول عنصر البربر في الجيش العربي أثره في امتداد الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الأندلس بعد ذلك بقليل.

إلى جانب ذلك اتخذ حسان بعض التنظيمات الإدارية، فدوّن الدواوين ونظّم الخراج^(٣)، وجدّد بناء المسجد الجامع في القيروان^(٤)، وبعث العمال إلى سائر الجهات، كما وزع الفقهاء ينشرون الإسلام واللغة العربية بين البربر^(٥).

شعر البربر إزاء هذه السياسة أن انضمامهم إلى العرب الفاتحين يعلى من شأنهم ويساويهم بهم في الحقوق والواجبات، فأقبلوا على الإسلام وبنوا المساجد واستعملوا المنابر فيها ولم تقف هذه الظاهرة عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط، بل امتدت لتشمل أجزاء من المغرب الأقصى^(٦).

وهكذا استطاع حسان أن يخلق في المغرب وضعاً جديداً يمكن أن نسميه مرحلة الاختلاط والاندماج بين العرب والبربر، ولكن والى مصر عبد العزيز بن مروان - الذي كان يتطلع إلى فتح شامل للمغرب - رأى أن حساناً لم يحقق هذا الهدف، فبادر إلى عزله ودفع إلى المغرب بقائد جديد هو موسى بن نصير.

موسى بن نصير ٨٦هـ / ٧٠٥م

كان موسى بن نصير هو الرجل الذي أعده عبد العزيز بن مروان ليضع حداً لمسألة فتح العرب للمغرب التي طال عليها الأمد، والتي كان يرى عبد العزيز بن مروان

(١) المالكي المصدر السابق ٣٦/١.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٣٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/٣٨، السلاوي: الاستقصا ١/٤٣.

(٤) المالكي: رياض النفوس ١/٣٧.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥١.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ١٩٨ - ١٩٩.

أنها تمثل عبثًا ليس بالقليل على خزانة مصر، وقد وُفق عبد العزيز بن مروان أكبر التوفيق في تولية القيادة في المغرب لموسى بن نصير، وهو رجل من أقدر وأذكى رجال الدولة الأموية^(١).

قَدِمَ موسى بن نصير إلى المغرب في أواخر سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م^(٢)، وفي رأسه دراسة شاملة لكل تجارب قواد الفتح السابقين وخططهم والعقبات التي صادفتهم، مضافًا إليها خبراته الخاصة التي مارسها وعاش فيها، لذلك رأى أن يقوم أولاً بتطهير إفريقية وإقليم الزاب من الروم وعملائهم من البربر^(٣). وقد أكد موسى بن نصير ذلك في خطبته حين قال: «فإن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوًا منه أدنى ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة ويكون عونًا عليه عند النكبة»^(٤).

اتبع موسى بن نصير خطة ترمى إلى ضرب هذه العناصر «الروم وعملائهم من البربر» في وقت واحد وبشدة تقضي على كل مقاومة لهم، فأرسل حملة بقيادة عبد الملك الخشيني إلى قلعة زغوان، وفي الوقت نفسه بعث ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحي القيروان، ووجه ابنه الثاني مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية^(٥)، وبلغ الخمس من سبي المعارك التي خاضوها يومئذ ستين ألف رأس من السبي^(٦).

وهكذا نجح هؤلاء القواد في تأمين إفريقية وتنظيفها من دسائس الروم وحلفائهم

(١) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٤٦ القاهرة ١٩٥٩ م.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥١.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١١٥. يرى الدكتور حسين مؤنس أن الفتح العربي للمغرب قد تم في عهد حسان بن النعمان وأنه لا يسمى أعمال موسى بن نصير في المغرب فتوحًا، وكيف يمكن القول بذلك، وولاية حسان بن النعمان انتهت وإقليم طنجة لم يُفتح بعد، ومناطق كثيرة من المغرب الأقصى، كما أن خطر الروم مازال قائمًا في الجزر القريبة من سواحل الشمال الإفريقي كما أن كثيرًا من القبائل خرجت بعد عودة حسان إلى المشرق واستهوتها دعاوى الروم؟ ولكن يمكن أن يقال: إن موسى أتم الحلقة الأخيرة من فتح المغرب. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٧٦، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٤٢، مجهول: الأخبار المجموعة ٤، د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ٢٦٠، د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ٤٨.

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣، القاهرة ١٩٦٣ م.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٤٠.

من البربر، وكفلوا بذلك حماية تامة لظهر القوات المتقدمة لفتح المغربين الأوسط والأقصى، وقد حظى المغرب الأوسط بأكثر أعمال موسى بن نصير الحربية؛ نظرًا لأن ميدانه كان محورًا للتجالف البيزنطي البربري الذي كان سببًا في إخفاق كثير من الجهود الحربية للمسلمين في المغرب. وأوصى موسى بن نصير قائده عياش بن أخيل الذي أرسله لإخضاع بعض قبائل المغرب الأوسط - بانتهاج سياسة الاسترضاء مع القبائل الراغبة في الصلح، وأن يعاملها معاملة كريمة ويترك تدبير أمورها بيد أناس من أهلها، مع إصراره على ضرورة أخذ الرهائن منهم؛ ضمانًا لاحترامهم العهود والمواثيق^(١).

وتمكن عياش بن أخيل من إرغام قبائل هوارنة وزنانية على الصلح بعد أن أغار عليهم وأسر أميرهم كمامون^(٢). ولما رأت كثامة ذلك أسرع فقدمات على موسى ابن نصير برهائنها فولى عليهم رجالًا منهم^(٣)، وفي الوقت نفسه خرج موسى بنفسه لتطهير بعض مناطق المغرب الأوسط التي رأى أنها لا تزال موضع نشاط الروم وأعوانهم من البربر، فزحف بقواته إلى منطقة «سجوما» وتعقب عملاء الروم حتى وصل إلى نهر ملوية وهزمهم هناك هزيمة فادحة عاد بعدها إلى القيروان^(٤) بعد أن دانت له قبائل المغرب الأوسط تمامًا بالخضوع والولاء.

أما حملات موسى بن نصير في المغرب الأقصى، فقد كانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية قام بها ابنه عبدالله ومروان والقائد زرعة بن أبي مدرك^(٥) واختط فيها للمسلمين^(٦). ولم يبق أمامه غير سبتة التي استعصت عليه فتركها، لعدم خطورتها

(١) د. إبراهيم أحمد العدوي: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٥٤. ويذكر ابن عذارى أن اسمه طامول وأن موسى أرسله إلى عبد العزيز بن مروان فقتله.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٤١.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١١٩.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ٢١٠.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ٢٧٢ - تحقيق صلاح الدين المنجد - القاهرة ١٩٦١ م.

طنجة: بالفتح ثم السكون والتجيم زيادة هاء، مدينة على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء من البر الأعظم وبلاد البربر.

البغدادى: مرصد الاطلاع ٢ / ٨٩٣ - ٨٩٤.

ولأنها نافذة تمكن المسلمين من مراقبة الأحوال في بلاد الأندلس التي كان موسى يتطلع إلى فتحها والتغلب عليها.

وعاد موسى إلى القيروان بعد أن ترك طارق بن زياد والياً على طنجة وجعل مقر عمله في تلمسان^(١)، وكانت هذه الخطوة تويجاً لسياسة موسى بن نصير الرامية إلى استرضاء البربر وتحبيبهم في الإسلام والفاحين، وسيضرب طارق بن زياد ومن معه من مسلمي البربر أروع الأمثلة لتضافر القوى الجديدة مع العرب في فتح بلاد الأندلس، بل إن الخلافة سوف لا تتحمل شيئاً من أعباء الفتح في هذا الميدان^(٢).

تأمين الفتوح الإسلامية في بلاد المغرب

تأكد لموسى بن نصير أن سلامة الفتوح الإسلامية في بلاد المغرب تتطلب تعزيز النشاط البحري في غرب البحر المتوسط، وأن حماية خطوط المواصلات البرية التي تحمل الإمدادات والتموين تقتضي القيام بعمليات بحرية واسعة^(٣) ضد القواعد الحصينة للروم في الجزر القريبة من الساحل المغربي، لذا اهتم موسى بن نصير بعمران تونس وتوسيع دار صناعتها، وشق القناة التي توصل ميناءها بالمدينة، واستطاعت هذه القاعدة أن تبني مائة سفينة حربية انضمت إلى الأسطول^(٤) الأموي العامل في البحر المتوسط، فأصبح شمال إفريقيا مركزاً بحرياً نجح في شل تهديدات أسطول الروم وأصبح في يد المسلمين جزيرة قوصره التي سيطر المسلمون منها على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية^(٥)، كما سيطروا على جزيرتي ميورقة

(١) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٢١ - ١٢٣.

سببته: بلفظ الفعل السرة الواحدة من السبت، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، البغدادي: مراصد الاطلاع ٢/ ٦٨٨.

(٢) حسين مؤنس فجر الأندلس ١٢٢.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٢٣.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١١٥.

(٥) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ١٠١ - ١٠٢.

قوصره: بالفتح ثم السكون والصاد مهملة: جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية.

البغدادي: مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٣. صقلية بثلاث كسرات وتشديد الياء: من جزائر بحر المغرب، مقابلة إفريقية مثالة الشكل. البغدادي: مراصد الاطلاع ٢/ ٨٤٧.

ومنورقة التابعين لملك إسبانيا القوطي^(١)، وبهذا تأكد سلطان المسلمين وسيادتهم على الشمال الإفريقي، وساد تلك البلاد الهدوء والأمن بعد أن أمضى المسلمون قرابة السبعين عامًا في فتح المغرب وهو ما يعتبر شيئًا فريدًا بين سائر الفتوحات الإسلامية. ولم تكن طبيعة المغرب الجغرافية والسياسية والاجتماعية هي السبب الوحيد في طول مدة الفتح، وإنما ينضم إليها أسباب أخرى تتصل بالأحوال الداخلية للخلافة الأموية من حيث انشغالها بإخماد الفتن والثورات التي وجهتها في المشرق.

سياسة موسى بن نصير وأثرها في المغرب الأوسط

استهدفت سياسة موسى بن نصير تثبيت سلطان الإدارة الإسلامية في بلاد المغرب والقضاء على كل مظاهر الفوضى الباقية من العصر الروماني، فقرب البربر إليه وحببهم في الحكومة الجديدة وأشركهم في الأعمال وفي إدارة البلاد مع العرب^(٢)، وبطبيعة الحال فقد تأثر المغرب الأوسط بهذه السياسة الرامية إلى كسب ثقتهم ورضاهم. وزاد من نجاح هذه السياسة أن الإدارة الجديدة اعتبرت أرض الروم مفتوحة عنوة، واعتبرت من تبقى من الروم موالى تتصرف في شئونهم كما تشاء، بينما اعتبرت الأراضي التابعة للبربر مفتوحة صلحًا، وتركها في يد أصحابها على أن يؤدوا المال عنها للدولة، واعتبرت البربر المسلمين أحرارًا كالعرب، فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات^(٣)، كما أتاححت الإدارة الجديدة أمام البربر كل الفرص للاشتراك في الجيوش العربية والانضمام إليها، بل إن طارق بن زياد - وهو من البربر - تولى منصب القيادة في ولاية طنجة ومعه اثنا عشر ألفًا من البربر^(٤)، يرافقهم عدد

(١) د. محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢٢.

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ م.

ميورقة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو والراء يلتقى فيها ساكنان وقاف، جزيرة في شواطئ الأندلس.

البغدادى: مرصد الاطلاع ٣ / ١٣٤٦.

ميورقة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو وفتح الراء: جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة.

البغدادى: مرصد الاطلاع ٣ / ١٣٢٥.

(٢) د. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ١ / ٩٨، القاهرة ١٩٧٤ م.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوي موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي ٥٤. سلسلة أعلام العرب ٦٨.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٧٦، السلاوي: الاستقصا ٤٤، وقارن النويري في نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١ ورقة ١٠ «الذي يذكر أن عددهم كان تسعة عشر ألفًا».

من فقهاء المسلمين يعلمونهم القرآن والفرائض، وهذا يُظهر لنا جانبًا آخر اهتمت به الإدارة الجديدة وهو نشر الإسلام والثقافة العربية بين البربر الذين ظهرت بينهم همّة عالية لنشر هذا الدين بين قبائلهم فبنوا المساجد، وحولوا المساجد التي بناها المشركون قبل ذلك إلى القبلة، ولم يقف نشاطهم الديني هذا عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط، بل تعداه ليشمل المغرب الأقصى أيضًا^(١).

وينبغي أن نشير هنا إلى سياسة موسى بن نصير في أخذ الرهائن والسبايا والغنائم والافراط في جمعها، تلك السياسة التي أفاض المؤرخون القدماء في الحديث عنها، يذكر القيرواني: أن سبي قلعة زغوان وحدها كان عشرة آلاف، وأن سبي السوس الأقصى بلغ أربعين ألفاً، وهناك رواية لابن قتيبة فيها وصف دقيق لما حمله موسى ابن نصير معه عندما قفل عائداً من المغرب إلى دمشق يقول: وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل فيهم بنو كسيلة وبنو قصدر، وبنو ملوك البربر وملك السوس مزدانة ملك قلعة أرساف وملك ميورتق، وأخرج بعشرين ملكاً من ملوك جزائر الروم وأخرج معه مائة من ملوك الأندلس ومن الأفرنجيين ومن القرطبيين وغيرهم، وأخرج معه أيضاً بأصناف ما في كل بلد من بزها ودوابها ورقيقها وطرائفها وما لا يحصى، فأقبل يجرّ الدنيا وراءه جرّاً لم يُسمع بمثله ولا بمثل ما قدم به^(٢). ويبدو أن أرقام السبي التي ذكرها المؤرخون مبالغ فيها كثيراً بدليل التناقض الذي نجده في روايات المؤرخين حول هذه الأرقام، فبينما يذكر ابن خلدون «أن خمس السبي في المعارك الأولى التي خاضها موسى بن نصير قبل فتح طنجة والمغرب الأقصى كان سبعين ألفاً»^(٣)، نجد النويري يقول: إن الخمس منها كان ستين ألفاً^(٤)، بينما نرى ابن عذارى يقول بأن الخمس من معارك إفريقية مستبعداً المغرب الأوسط - كان ستين ألفاً^(٥) وحتى ابن عذارى نفسه يضطرب في هذه الرواية الأخيرة حول سبي إفريقية، فإذا كان السبي من قلعة زغوان عشرة آلاف، والسبي الذي قَدِمَ به عبدالله من نواحي إفريقية مائة ألف،

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣ و ٧١.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٨٢.

(٣) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٢.

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢/ ٦٣ و ٧١.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤٠٢.

والذى جاء به مروان من النواحي الأخرى بإفريقية كان مائة ألف فكيف يكون خمس هذا المجموع كما يذكر ابن عذارى ستين ألفاً^(١) ثم يذكر ابن عبد الحكيم رواية تزيد الأمر تناقضاً وهي أن هذا الخمس كان عشرين ألفاً^(٢)، على أى حال لا يمكننا أن ننكر كثرة السبي الذى جمعه موسى، فقد أجمع المؤرخون على كثرته ولكن ليس إلى هذا الحد الذى ذكره؛ إذ كيف يمكن لجيوش تقاتل فى كل نواحي المغرب أن تسيطر على هذه الأعداد الضخمة من الأسرى؟ كما أن الاحتفاظ بهم شيء باهظ التكاليف، ويبدو أن المؤرخين خلطوا بين أعداد البربر الذين استأنوا وانضموا إلى الإسلام عندما رأوا سطوة الإدارة الجديدة وبين الذين أخذوا على أنهم أسرى أو رهائن.

وطبيعاً أن جزءاً كبيراً من هذا السبي بقى فى المغرب فكان له دور كبير فى حركة التعريب اللغوى^(٣) وانتشار الإسلام؛ لأنهم خالطوا المسلمين وتعاملوا معهم. أما الأعداد التى انتقلت من هذا السبي إلى المشرق فأثرها لا يحصى؛ فقد أعطى هذا السبي من البربر سكان المشرق صورة واضحة للحياة فى المغرب؛ فأصبح المغرب بأقاليمه المختلفة ملاذاً لأى مسلم تطارده الخلافة، وأصبح من السهل عليه أن يجد فى المغرب أمناً وبغيته^(٤).

وإذا كانت سياسة أخذ الرهن والسبي والغنائم التى ابتدعها حسان بن النعمان وتوسع فيها موسى بن نصير قد أدت إلى نمو حركة التعريب وانتشار الإسلام وأقرت الأوضاع نهائياً فى المغرب لصالح المسلمين، فقد كان لها آثار بالغة السوء فى نفوس البربر فأوغرت صدورهم وملأتها حقداً على العرب وغرست فى نفوسهم بذور الثورة تلك البذور التى تعهدا كثير من الولاة بعد موسى من حيث لا يشعرون حين حرصوا على إرهاب البربر وابتزاز أموالهم وخيراتهم وقدموها للخلفاء طمعاً فى رضائهم^(٥)، فكان ذلك مهبطاً لانتشار المبادئ الخارجية فى المغرب تلك المبادئ

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ٤٠ / ١.

(٢) ابن عبد الحكيم: فتح مصر والمغرب ٢٧٥.

(٣) د. شكوى فيصل: المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ١٨٦.

دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٦ م.

(٤) د. حسن على حسن: دولة الإدارة بالمغرب ٣٩.

رسالة ماجستير - دار العلوم ١٩٦٧ م.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ٥٢ / ١.

التي يمثل أصحابها حزب المعارضة للبيت الأموي، وسنرى عندما نستعرض عصر الولاية مدى ما لحق الإدارة الأموية ببلاد المغرب من اضطراب بسبب هذه السياسة، وأن نتيجتها الحتمية كانت انفجار الثورة في طنجة، وامتدادها إلى المغرب الأوسط ممهدة لانفصاله عن الخلافة الأموية.

(ب) عصر الولاية واضطراب أحوال المغرب

فترة هدوء في مطلع عصر الولاية

يُطلق عصر الولاية في بلاد المغرب على الفترة الزمنية التي أعقبت استدعاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك^(١) لموسى بن نصير من الأندلس والمغرب ٩٦هـ / ٧١٤م^(٢) حتى قيام الدول المستقلة بتلك الأرجاء، ولم يكن سليمان بن عبد الملك^(٣). الذي تولى

(١) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان أبو العباس من ملوك الدولة الأموية في الشام ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ فوجه القواد لفتح البلاد، وكان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وامتدت في زمنه حدود الدولة العربية إلى بلاد الهند فتركستان، فأطراف الصين شرقاً فبلغت مسافتها مسيرة ستة أشهر بين الشرق والغرب والجنوب والشمال، وكان ولوعاً بالبناء والعمران فكتب إلى والي المدينة يأمره بتسهيل الثنايا وحضر الآبار وأن يعمل فؤارة، فعملها وأجرى ماءها وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار، ومنع المجذومين من مخالطة الناس وأجرى لهم الأرزاق، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام وجعل لكل أعمى قائداً يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادماً ورئب للقرء أموالاً وأرزاقاً. وأقام بيوتاً ومنازل يأوي إليها الغرباء، وهدم مسجد المدينة والبيوت المحيطة به، ثم بناه بناءً جديداً وصفح الكعبة والميزاب والأساطين في مكة، وبني المسجد الأقصى في القدس، وبني مسجد دمشق الكبير المعروف بالجامع الأموي فكانت نفقات هذا الجامع ١٠٠, ٢٠٠, ١١ دينار أي نحو ستة ملايين دينار ذهبي من نقود زماننا، بدأ فيه سنة ٨٨هـ وأتمه أخوه سليمان وكانت وفاته سنة ٩٦هـ / ٧١٥م من غوطة دمشق ودفن فيه ومدة خلافته ٩ سنين و٨ أشهر وكان نقش خاتمه «يا وليد إنك ميت؟؟؟» وولد سنة ٤٨هـ / ٦٦٨م.

انظر المزيد في الكامل ٣/٥، تاريخ الطبري ٨/٩٧، بلغة الطرفاء ٢٣، تاريخ البعقري ٣/٢٧، تاريخ الخميس ٢/٣١١-٣١٤، مروج الذهب ٢/١١٩-١٢٧، الذهب المسبوك ٢٩.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٦٤.

(٣) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان أبو أيوب الخليفة الأموي. وُلد في دمشق سنة ٥٤هـ / ٦٧٤م، وولى الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ وكان بالرملة فلم يتخلّف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفا عن المجرمين وأحسن إلى الناس، وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح جهز جيشاً كبيراً وسيره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية، وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان وكانتا في أيدي الترك وتوفي في دابق من أرض قيسرين بين حلب ومعرّة النعمان سنة ٩٩هـ / ٧١٧م، وكانت عاصمة دمشق، ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً.

الخلافة بعد الوليد راضياً عن موسى بن نصير^(١) وسياسته في المغرب، فعزله وولى مكانه محمد بن يزيد القرشي^(٢) سنة ٩٧هـ / ٧١٥م^(٣).

انظر المزيد في: الكامل ١٤ / ٥، تاريخ الطبري ٨ / ١٢٦، فوات الوفيات ١ / ١٧٧، تاريخ اليعقوبي ٣ / ٣٦، تاريخ ابن خلدون ٣ / ٧٤، مروج الذهب ٢ / ١٢٧، تاريخ الخميس ٢ / ٣١٤-٣١٥.

(١) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء أبو عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية ونشأ موسى في دمشق وولى غزو البحر لمعاوية فغزا قبرص وبني بها حصوناً، وخدم بني مروان ونبه شأنه وولى لهم الأعمال، فكان على خراج البصرة في عهد الحجاج، وغزا إفريقية في ولاية عبد العزيز بن مروان، ولما آلت الخلافة إلى الوليد ابن عبد الملك ولأه إفريقية الشمالية وما وراءها من المغرب سنة ٨٨هـ فأقام في القيروان ووجه ابنه عبدالله ومروان فأخضعاه له من أطراف البلاد من البربر، واستعمل مولا طارق بن زياد الليثي على طنجة وكان قد فتحها وأسلم أهلها وأمره بغزو شواطئ أوربة، فزحف طارق بقوة قيل عددها ١٩٨٨ بربرياً ونحو ٣٠٠ عربي من حامية طنجة فاحتل سنة ٩٢هـ جعل كلبى Calpe الذي سُمي بعد ذلك جبل طارق وصد مقدمة الإسبانيين وكانوا بقيادة تدمير وعلم الملك رودريك بهزيمة تدمير فحشد جيشاً من القوط والإسبانيين الرومانيين يناهز عدده أربعين ألفاً وقابل طارقاً على ضفاف وادي لكّة بقرب شرش فدامت المعركة ثمانية أيام وانتهت بمقتل رودريك بيد طارق وكتب طارق إلى موسى بما كان، فكتب إليه موسى بأمره بأن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ولم يعأ طارق بأمره خوفاً من أن تنجح للإسبانيين فرصة يجمعون بها شتاتهم وقسم جيشه ثلاثة أقسام، وواصل احتلال البلاد فاستولى قواده في أسابيع على استبحه ومالقة وقرطبة واحتل بنفسه طليطلة دار مملكة القوط واستخلف موسى على القيروان ولده عبدالله وأقبل نحو الأندلس في ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، فدخل إشبانية في رمضان سنة ٩٣هـ، سالكا غير طريق طارق فاحتل قرمونة وأشبيلية وعدداً من المدن بين الوادي الكبير ووادي أنس ولم يتوقف إلا أمام مدينة ماردة وكانت حصينة ففقد كثيراً من رجاله في حصارها ثم استولى عليها وتابع إلى أن بلغ طليطلة، ولما التقى طارقاً عنقه على مخالفته أمره وقيل سجنه مدة وأطلقه وسيّره معه ثم وجهه لإخضاع شرقي شبه الجزيرة وزحف هو مغرباً واجتمع أمام سرقسطة فاستولوا عليها بعد حصارها شهراً وتقدم طارق فافتتح برشونونه وبلنسية ودانية وغيرها، بينما كانت جيوش موسى بن نصير تتوغل في قلب شبه الجزيرة وغربها، وهكذا تم لموسى وطارق فتح ما بين جبل طارق وسفوح جبال البرانس في أقل من سنة وجعل موسى يفكر في مشروع عظيم هو أن يأتي المشرق من طريق القسطنطينية بحيث يكتسح أوربة كلها ويعود إلى سوريا عن طريق شواطئ البحر الأسود فما كاد يتصل خبر عزمه هذا بالخليفة حتى قلق على الجيش وخاف عواقب الإيغال فكتب إلى موسى بأمره بالعودة إلى دمشق وأطاع موسى الأمر فاستخلف ابنه عبد العزيز على قرطبة دار إمارة الأندلس، واستصحب طارقاً معه، ووصل إلى القيروان سنة ٩٥هـ فولّى ابنه عبدالله على إفريقية ووصل إلى المشرق بما اجتمع له من الغنائم، ومات بالمدينة سنة ٩٧هـ / ٧١٥م وكان مولده سنة ١٩هـ / ٦٤٠م. انظر المزيد في: فتح الطيب ١ / ١٠٨ - ١٣٤، الحلة السيرة ٣٠، وفيات الأعيان ٢ / ١٣٤، جذوة المقتبس ٣١٧.

(٢) هو محمد بن يزيد القرشي بالولاء أمير إفريقية أرسله سليمان بن عبد الملك من الشام سنة ٩٧هـ واليا عليها وكانت الأندلس تابعة لها، مات سنة ١٠١هـ / ٧٢٠م.

انظر المزيد في: النجوم الزاهرة ١ / ٢٣٥ - ٢٤٥، الكامل ٨ / ٥ و ٣٨، تاريخ ابن خلدون ٤ / ١٨٨، ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٤٧.

ولم يتوان محمد بن يزيد والي المغرب الجديد في تنفيذ تعليمات سليمان بن عبد الملك الصارمة بتتبع آل موسى بن نصير واستئصال أموالهم التي جمعوها من البربر، حتى إنه قبض على عبدالله بن موسى بن نصير وسجنه، وعهد إلى خالد بن أبي حبيب بقتله والتخلص منه^(١).

ولعل هذه الخطوة من جانب محمد بن يزيد - الذي كان يتصف بالعدل وحسن السيرة - قد خلقت ارتياحاً عاماً لدى البربر ونعموا بالهدوء والأمن والعدل وحسن السياسة. ويذكر ابن عذارى أن محمد بن يزيد كان «يبعث السرية إلى ثغور إفريقية»^(٢)، ويقسم ما تعود به من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئاً منها، ولا بد أن ذلك أدى إلى كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام^(٣). ولكن ولاية محمد بن يزيد لم تدم طويلاً فب وفاة سليمان بن عبد الملك استعمل عمر بن عبد العزيز^(٤) تابعياً جليلاً هو إسماعيل بن عبدالله أبي المهاجر دينار^(٥) سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م^(٦)، وقد شهد المغرب جهوداً عظيمة لهذا الوالي الجديد، فقام بتطبيق سياسة عمر بن عبد العزيز المالية التي كان هدفها تخفيف الأعباء المالية عن المسلمين من أهل البلاد، فميز أرض الصلح عن أرض العنوة، وألغى ما كان متبعاً من بيع أبناء لواته من البربر في

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٤٧.

(١) ابن الأثير: الكامل ٥ / ٣٨.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٤٧.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٨٩.

(٤) هو أمير المؤمنين والإمام العادل روى عن أنس وصلى أنس خلفه، وقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى، وروى عن الربيع بن سيرة والسائب بن زيد وسعيد ابن المسيب وجماعة. وعنه ابنه عبدالله وعبد العزيز وأبو سلمة بن عبد الرحمن والزهرى وهما من شيوخه. قال ابن سعد: كان ثقة مأموناً، له فقه وعلم وورع، وروى حديثاً كثيراً، وكان إمام عدل، ملك سنتين وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً، ومات يوم الجمعة لعشر بقين من رجب سنة ١٠١ هـ. انظر المزيد في: النجوم الزاهرة ١ / ٢٤٦، العبر ١ / ١٢٠، طبقات القراء لابن الجزري ١ / ٥٩٣، طبقات الفقهاء ٦٤، طبقات ابن سعد ٥ / ٢٤٢، صفوة الصفوة ٢ / ٦٣، شذرات الذهب ١ / ١١٩، خلاصة تهذيب الكمال ٢٤١، حلية الأولياء ٥ / ٢٥٣، تهذيب التهذيب ٧ / ٤٧٥، تذكرة الحفاظ ١ / ١١٨، تاريخ الخلفاء ٢٢٨.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٣٦.

(٦) الدبائع: معالم الإيمان ١ / ٢٠٣.

خواجهم تحقيقاً لمبدأ المساواة بين المسلمين^(١)، وإلى جانب ذلك حرص إسماعيل ابن عبد الله على دعوة البربر إلى الإسلام حتى أسلم على يديه عامة البربر^(٢)، وعاونوه في ذلك عشرة فقهاء من التابعين منهم: عبد الرحمن بن نافع^(٣) وسعد بن مسعود التجيبي^(٤) وغيرهما^(٥).

وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم تعليم البربر وتثقيفهم بالثقافة العربية الإسلامية واستطاعوا بفضل جهودهم أن ينقلوا البربر جميعهم إلى الإسلام. ولكن فترة السلم والهدوء لم تدم طويلاً، فما لبثت الأوضاع أن تبدلت عندما آلت الخلافة إلى يزيد ابن عبد الملك سنة ١٠١هـ / ٧١٩م، وكان يزيد هذا لا يقر إصلاحات عمر بن عبد العزيز ويرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى إلى ضياع مواردها من موارد الدولة وهو الجزية التي كانت تفرض على المعاهدين من النصاري وأهل الذمة^(٦)، ولذا بادر بعزل إسماعيل بن عبد الله وولّى على المغرب يزيد بن أبي مسلم^(٧) الذي قَدِمَ إلى المغرب سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م^(٨).

(١) ابن الأبار: الحلة السراء ٢ / ٣٣٥.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٣٦.

(٣) الدباغ: معالم الإيمان ١ / ٢٠٥.

(٤) الدباغ: المصدر السابق ١ / ٢٠٧.

(٥) المالكي: رياض النفوس ١ / ٦٤ - ٧٥، ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٤٨.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٧) هو يزيد بن دينار الثقفي أبو العلاء والي من الدهاة في العصر الأموي، كان من موالى ثقيف وجعله الحجاج كاتباً له فظهرت مزاياءه، فلما احتضر الحجاج استخلفه على الخراج بالعراق وأقره الوليد بن عبد الملك بعد موت الحجاج سنة ٩٥هـ ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان سنة ٩٦هـ عزله وطلبه فجاء إلى الشام فحادثه سليمان فأعجبه عقله ومنطقه فاستبقاه عنده، ثم ولي إمارة إفريقية سنة ١٠١هـ، فانتقل إليها فانتصر به جماعة من أهلها فقتلوه وأثم بقتله عبد الله بن موسى بن نصير فقتله بشر بن صفوان الكلبي وبعث برأسه إلى يزيد بن عبد الملك فنصبت في الشام، وأبو مسلم كنية أبيه.

انظر: وفيات الأعيان ٢ / ٢٧٦، المحبر ٤٩٢، الاستقصا ١ / ٤٦، الكامل ٥ / ٣٨، النجوم الزاهرة ١ / ٢٤٥ - ٢٤٨، الوزراء والكتاب ١٦٩.

(٨) ابن الأبار: الحلة السراء ٢ / ٣٣٦، ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٤٨.

اتخذ يزيد بن أبي مسلم في المغرب خطوات جريئة تشبه تلك الخطوات التي اتخذها الحجاج بن يوسف الثقفي^(١) في العراق، ولا عجب في ذلك؛ فقد كان ابن أبي مسلم مولى للحجاج وصاحباً لشرطته، بل إن ابن الأبار^(٢) يذكر أنه كان أخاً للحجاج من الرضاعة^(٣) لذا فقد تشبه به في سياسته، فأساء السيرة في البربرية ووضع

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي أبو محمد قائد داهية سفاك، الخطيب وُلد سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م ونشأ في الطائف بالحجاز وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زباع نائب عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته ثم مازال يظهر حتى قلدته عبد الملك أمر عسكره وأمره بقتال عبدالله بن الزبير فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبدالله وفرّق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه فانصرف إلى بغداد في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمامة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة. وكان سفاكاً سفاكاً باتفاق معظم المؤرخين، قال عبد بن شاذب: ما رُئي مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه. وقال أبو عمرو ابن العلاء: ما رأيت أحداً أفصح من الحسن البصري والحجاج. وقال ياقوت في معجم البلدان: ذكر الحجاج عند عبد الوهاب الثقفي بسوء، فغضب وقال: إنما تذكرون المساوي أو ما تعلمون أنه أول من ضرب درهماً عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وأول من بنى مدينة بعد الصحابة في الإسلام، وأول من اتخذ المحامل، وأن امرأة من المسلمين سُببت في الهند فنادت يا حجاجاه فاتصل به ذلك فجعل يقول: ليك لبيك لبيك، وأنفق سبعة آلاف ألف درهم حتى أنقذ المرأة؟ واتخذ «المناظر» بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخن المناظر متصلة بين قزوين وواسط، وأصبحت قزوين ثغراً حيثئذ، مات سنة ٩٥ هـ / ٧١٤ م.

انظر المزيد في: معجم البلدان ٨ / ٣٨٢، وفيات الأعيان ١ / ١٢٣، مروج الذهب ٢ / ١٠٣ - ١١٩، تهذيب التهذيب ٢ / ٢١٠، تهذيب ابن عساكر ٤ / ٤٨، الكامل في التاريخ ٤ / ٢٢٢، البدء والتاريخ ٢٨ / ٦.

(٢) هو محمد بن الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي أبو عبدالله ابن الأبار من أعيان المؤرخين، أديب من أهل بلنسية بالأندلس رحل عنها لما احتلها الإفرنجية واستقر بتونس فقرّبه صاحبها السلطان أبو زكرياء وولاه كتابة «علامته» في صدور الرسائل مدة ثم صرفه عنها، وأعادته ومات أبو زكرياء وخلفه ابنه المستنصر فرفع هذا مكانته، ثم علم المستنصر أن ابن الأبار كان يزري عليه في مجالسه وعزيت إليه أبيات في هجائه فأمر به فقتل «فعضاً بالرماح» في تونس، له عدة مصنفات منها «التكملة لكتاب الصلة» في تراجم علماء الأندلس و«المعجم» في التراجم و«الحلة السيرة» في تاريخ أمراء المغرب واعتاب الكتاب «في أخبار المنشئين و«إيماض البرق في أدباء الشرق» وغيره، مات سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٦ م وكان مولده سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م.

انظر المزيد في: فوات الوفيات ٢ / ٢٢٦، نفع الطيب ١ / ٦٣، أزهار الرياض ٣ / ٢٠٤.

(٣) د. حسين مؤنس: ثورات البربر في إفريقيا والأندلس - مجلة كلية الآداب - المجلد العاشر الجزء الأول - مايو ١٩٤٨ م ص ١٥١.

الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم^(١)، ولم يكتف بذلك بل: «أخذ موالى موسى بن نصير من البربر فوشم أيديهم وجعلهم أحماساً، وأحصى أموالهم وأولادهم، ثم جعلهم حرسه وبطانته، وأخذ محمد بن يزيد القرش فعذبه وجلده جلدًا وجيعًا^(٢)». وقع ظلم يزيد بن أبي مسلم على البربر كالصاعقة، ومن ثم فكروا في وضع حد لأعمال هذا الطاغية الظالم، ولم يجدوا أمامهم سبيلاً غير الثورة للقضاء عليه، ويروى لنا ابن عذارى نهايته فيقول: فقام على المنبر خطيباً فقال «يزيد بن أبي مسلم»: إني رأيت أن أرسم اسم حرسى في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره حرس ليُعرفوا بذلك من بين سائر الناس، فإذا وقفوا على أحد، أسرع لما أمرت به، فلما سمعوا ذلك منه أعنى حرسه اتفقوا على قتله، وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاة^(٣). وحاول البربر الذين كانوا يتوقون إلى المساواة والعدل أن يخففوا من وقع الحادث على الخلافة فولوا عليهم محمد بن أوسى الأنصارى^(٤)، وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك يحدثونه عن دوافع ثورتهم وعن التزامهم بالطاعة قالوا: «إنا لم نخلع يداً من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله ورسوله ففتلناه وأعدنا عاملك، فكتب إليهم يزيد: إني لم أرض ما صنع ابن أبي مسلم وأقر محمد بن أوسى على المغرب^(٥)»، ويبدو أن هذه الحادثة كانت سبباً في وضع حد لحالة القلق التي كان البربر يشعرون بها، فأصبحوا يشعرون بعدها أن بإمكانهم فرض رأيهم على الخلافة ولو أدى هذا بهم إلى استعمال القوة، ولعل هذا كان سبباً في أن بشر بن صفوان^(٦)

(١) ابن خلدون: العبر ٤/ ٤١٣.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٨٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٤٨-٤٩.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٨٩.

(٥) السلاوى: الاستقصا ١/ ٤٧.

(٦) هو بشر بن صفوان الكلبي، أمير المغرب وأحد الشجعان ذوي الرأي والحزم. رلى مصر أولاً سنة ١٠١ هـ من قبل يزيد بن عبد الملك، ثم جاءه كتاب يزيد بتأثيره على إفريقية سنة ١٠٢ هـ فخرج إليها وأقام في القيروان وغزا صقلية وغيرها ومات بالقيروان سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧. انظر المزيد في: الخلاصة النقية ١٣، البيان المغرب ١/ ٤٩، النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٤، تاريخ ابن عساكر ٢/ ٢٤٢، الاستقصا ١/ ٤٧، الولاة والقضاة ٦٩.

- الذي أقامه يزيد بن عبد الملك واليًا على المغرب بعد ذلك سنة ١٠٣هـ / ٧٢١م
- اصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب تهدئة لخواطريهم،
وقام بمصادرة ما تبقى من أموال موسى بن نصير وعذب موالية^(١). ونجح في تهدئة
المغرب، فسادته فترة من الهدوء لم يقطعها غير وفاته سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م عند عودته
من غزو صقلية^(٢).

وقد عاصر سوء الإدارة في بلاد المغرب في أواخر العصر الأموي انتشار
التنافس البغيض بين سكانه للعرب من اليمنية والقيسية وكانت غلبة أي منهما على
الآخر تتوقف على ميول الخلفاء أنفسهم. ولما كان أكثر عرب المغرب من أصل
يكاد يكون يمينًا خالصًا، فقد جرت عاداتهم على التزام الهدوء حين يكون ولايتهم
من اليمنيين، أما إذا كان الولاية من القيسية فإن المغرب يصبح مسرحًا لاضطرابات
عنيفة مفرقة^(٣). وذلك ما حدث بعد وفاة بشر بن صفوان، إذ صادف ذلك تحول
ميول الخليفة هشام بن عبد الملك عن اليمنية إلى القيسية، ومن ثم ولّى على المغرب
عبدة بن عبد الرحمن السلمي^(٤) - وكان من غلاة القيسية - فقدم إلى المغرب في
ربيع الأول سنة ١١٠هـ / ٧٢٨م^(٥)، وما أن صارت الأمور إليه حتى اشتد في معاملة

(١) د. السيد عبد العزيز سائم: المغرب الكبير ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) د. السيد عبد العزيز سائم: المرجع السابق ٢٩٦.

(٣) رينيه دوزي: تاريخ مسلمي إسبانيا.

ترجمة د. حسن حبشي ج ١، ١٣٤، دار المعارف - القاهرة ١٩٦٣م.

(٤) هو عبدة بن عبد الرحمن بن أبي الأضر السلمي من بني ثعلبة بن بهثة بن سليم والي إفريقية والأندلس
وهو ابن أخي أبي الأعور السلمي صاحب خيل معاوية بصفيين ولأه هشام بن عبد الملك على المغرب
بعد وفاة بشر بن صفوان فدخل القيروان سنة ١١٠هـ، ونظر في أمر المغرب والأندلس معًا، واستمر
أربع سنين وستة أشهر. قال ابن الأثير: «ثم إن عبدة سار من إفريقية إلى الشام سنة ١١٤هـ ومعه من
الهدايا والإماء والعبيد والدواب وغيرها شيء كثير واستعفى هشامًا فأجابه إلى ذلك، وعزله». وقال ابن
عذارى ما خلاصته: لما دخل عبدة إفريقية أخذ عمال بشر بن صفوان وأغرمهم وعذبهم، فأنشأ الحسام
بن ضرار الكلبي أبحاثًا بحث بها إلى هشام بن عبد الملك فعزله، ومات سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م. انظر المزيد
في: الاستقصا ٤٧/١، الكامل ٥٤/٥ - ٦٤، البيان المغرب ١/٥٠، النجوم الزاهرة ١/٢٤٥.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/٥٠.

اليمنيين شدة لا مثيل لها فزج بهم في السجون واغتصب منهم أموالاً كثيرة^(١)، ولقى البربر المعاملة السيئة نفسها، فسبى نساءهم، وأسرف في غزو قبائلهم، وكان لهذه السياسة الغاشمة أثرها في اعتناق البربر لمبادئ الخوارج وانتشارها بينهم^(٢). بيد أن هذا الوالى غادر المغرب في شوال سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م^(٣) متوجّهاً إلى دمشق يحمل ما جمعه من أموال وهدايا ليقدّمها إلى هشام بن عبد الملك^(٤)، وكان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة سبعمائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيول والدواب والذهب والفضة والآنية^(٥)، وهناك طلب من هشام أن يعفيه من ولاية المغرب فأعفاه^(٦).

عبيد الله بن الحبحاب ١١٦ هـ / ٧٣٤ م

وأُسند هشام ولاية المغرب إلى عبيد الله بن الحبحاب مولى بنى سلول بن قيس^(٧) الذى كان والياً على مصر. فمضى إلى بلاد المغرب بعد أن استخلف على مصر ابنه

(١) دوزى: تاريخ مسلمى إسبانيا ١

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٢٩٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٥١

(٤) هو هشام بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة الأموية فى الشام. وُلد فى دمشق وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥ هـ، وخرج عليه زيد بن على بن الحسين سنة ١٢٠ هـ بأربعة عشر ألفاً من أهل الكوفة فوجه إليه من قتله وفلّ جمعه ونشبت فى أيامه حرب هائلة مع خاقان الترك فيما وراء النهر، انتهت بمقتل خاقان واستيلاء العرب على بعض بلاده. واجتمع فى خزائن من المال ما لم يجتمع فى خزانة أحد من ملوك بنى أمية فى الشام، وبنى الرصافة على أربعة فراسخ من الرقة غرباً، وهى غير رصافتى بغداد والبصرة، وكان يسكنها فى الصيف وتوفى فيها سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م وكان مولده سنة ٧١ هـ / ٦٩٠ م، وكان حسن السياسة، يقظاً فى أمره يباشر الأعمال بنفسه من كلامه ما بقى على من لذات الدنيا إلا أخ أرفع مؤنة التحفظ بينى وبينه. انظر المزيد فى: الكامل ٥ / ٩٦، تاريخ الطبرى ٨ / ٢٨٣، تاريخ الخميس ٢ / ٣١٨، تاريخ اليعقوبى ٣ / ٥٧، تاريخ ابن خلدون ٣ / ٨٠ - ١٣٨، مروج الذهب ٢ / ١٤٢ - ١٤٥، الذهب المسبوك ٣٤، تاريخ الإسلام ٥ / ١٧٠ - ١٧٢.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٢.

(٦) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٣.

(٧) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ٤٠.

القاسم^(١)، وقد تمتع هذا الوالى بثقافة عالية أشار إليها كثير من المؤرخين أمثال ابن عذارى الذى وصفه بقوله: «هو مولى بنى سلول، وكان رئيساً نبيلًا وأميرًا جليلاً بارعًا فى الفصاحة والخطابة، حافظًا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها»^(٢)، وما أن تسلم ابن الحبحاب ولايته حتى قسمها بين بنيه وأنصاره فاستعمل على الأندلس «عقبة بن الحجاج السلولى»^(٣) واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل ثم عمر بن عبدالله المرادى^(٤). واتبع عبيد الله فى المغرب سياسة قوية متشددة مع البربر ولم يكن هدف هذه السياسة بسط سلطان العرب وتقوية شأنهم فى بلاد المغرب بقدر ما كان هدفها الرغبة فى إرسال الأموال والهدايا والطرف إلى الخلافة التى كانت تواجه ارتباكًا ماليًا خطيرًا فى ميزانيتها وقد أدت هذه السياسة بعبيد الله إلى منزلق خطير؛ حيث استباح لنفسه هو وعماله جمع الأموال من البربر بطرق غير مشروعة ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن والى طنجة عمر بن عبدالله المرادى كما يروى المؤرخون أسماء السيرة وتعدى فى الصدقات والعُشر، وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فىء للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يَحُمِسُون من لم يُجِب للإسلام^(٥).

وكان ذلك تطورًا خطيرًا فى سياسة الإدارة العربية فى بلاد المغرب، الأمر الذى دفع البربر إلى إرسال لجنة من شيوخ القبائل المغربية لتقصي الحقائق عند الخليفة الأموى فى دمشق واستطلاع رأيه قبل أن يندفعوا فى أى عمل من أعمال العنف التى

(١) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤٠٤.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ٤ / ٤٠٥.

(٣) هو عقبة بن الحجاج السلولى أمير كان من أشرف بنى سلول، دخل الأندلس سنة ١١٦ أو ١١٧ واليًا عليها من قبل عبيد الله بن الحبحاب أمير مصر وإفريقية وما والاها فى أيام وهشام بن عبد الملك، فأقام مجاهدًا فاتحًا حتى بلغ أربونة وفتح معها جليقية وبشبلونة، وكان إذا أسر الأسير لا يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويقبح له عبادة الأصنام، فأسلم على يده بهذه الطريقة أكثر من ألف رجل، واختلف المؤرخون فى نهاية عهده، فقبل استشهاد ببلاط الشهداء، وقيل ثار به أهل الأندلس بتحريض عبد الملك بن قطن فخلعوه سنة ١٢٣ هـ، مات بعد سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م. انظر المزيد فى: نفح الطيب ٢ / ٦٩٧، الكامل ٩٢ / ٥، جذوة المقتبس ٣٠١، البيان المغرب ٢ / ٢٩، تاريخ ابن خلدون ٤ / ١١٩.

(٤) المقرئ: نفح الطيب ٢ / ٦٩٧ - ٦٩٨.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٥١ - ٥٢.

طالما زينها لهم الخوارج الذين نشروا مبادئهم آنذاك في أنحاء المغرب وألحوا في إقناع البربر بأن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه وأن الخليفة هو الذي يكرههم على امتصاص دم الرعايا^(١). وقد شرح الطبرى هذه الحقيقة المهمة شرحاً وافياً حيث قال «فما زال أهل المغرب من سمح أهل العراق «أى الخوارج» واستشاروهم، قالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، ولا نحمل ذلك عليهم فقالوا: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقالوا: لا نقبل هذا حتى نخبرهم، فخرج ميسرة المضغرى في بضعة عشر إنساناً حتى قَدِمَ على هشام، فطلبوا الإذن فصعب عليهم، فأتوا الأبرشى - وزير هشام بن عبد الملك - فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين بأن أميرنا يغزو بنا وبجندنا، فإذا أصبنا نفلهم دوننا، وقال: هم أحق به، فقلنا: هو أخلص لجهادنا، وإذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد للجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم.. ثم إنهم «أى الولاة» عمدوا إلى ماشيتنا، فجعلوا يقرونها عن السنحال يطلبون الفراء الأبيض لأمر المؤمنين، فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمر المؤمنين فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، لم نجد هذا في كتاب ولا سنة فنحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم، أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا. قال الأبرشى: نفعل. فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء، وقالوا: هذه أسماءنا وأنسابنا فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه»^(٢). وعلى أثر عودة الوفد اندلعت نيران الثورة المحلية في بلاد المغرب حيث كان يدعو لها إذ ذاك جماعات الخوارج في تلك البلاد.

(ج) انتشار المذاهب الخارجية بين البربر

واندلاع الثورات المحلية ضد الخلافة العباسية

فرَّ عدد من دعاة الخوارج إلى المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب هرباً من بطش الأمويين وضرباتهم، ووجدوا في هذه البلاد مسرحاً بكرّاً لنشاطهم وتربة

(١) يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ١٣٦ و ١٦٨ - ١٦٩ و ٣٣١، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٢٥٤/٤ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة

صالحة لنشر مبادئهم وغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين، والثورة على الظلم في جميع أشكاله، وحاول هؤلاء الدعاة تغيير أفكار البربر واتجاهاتهم السياسية والدينية، وكانت فرق الخوارج التي لجأت إلى المغرب من جماعات الصفيرية والإباضية حيث كانت فرق الخوارج الأخرى المعروفة بالتشدد مثل الأزارقة قد تهاوت في المشرق تحت ضربات الأمويين العنيفة.

وقد اختلف البربر في مدى تقبلهم لهذه التعاليم فانتشرت الصفيرية بين بربر القسم الجنوبي من المغرب الأقصى في المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن، في حين اعتنق بربر المغرب الأوسط والقسم الشمالي من المغرب الأقصى تعاليم الإباضية^(١)، وإلى جانب الصفيرية والإباضية كان هناك المتطرفون الغلاة من البربر الذين يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ولغتها البربرية، وظهرت هذه النزعة في برغواطة عند أتباع صالح بن طريف الذي تسمى بصالح المؤمنين^(٢).

ومما ساعد على انتشار دعوة الخوارج على هذا النطاق الواسع أن دعاة الخوارج من إباضية وصفيرية عندما نشروا دعوتهم ببلاد المغرب حرصوا على عدم ذكر مذهب من المذاهب وإنما نشروها تحت شعار المناداة باسم الإصلاح والعمل بالكتاب والسنة^(٣).

ونجح هؤلاء الدعاة في تفجير الوضع في بلاد المغرب في صورة ثورات متتالية عمّت أرجاء المغرب وأنحاءه، وكانت أولى هذه الثورات ثورة ميسرة.

ثورة ميسرة

اشتهرت هذه الثورة في التاريخ باسم قائدها ميسرة المدغرى نسبة إلى قبيلة

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٠١.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: السابق ٣٠١.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٦٧.

مدغرة التي ينتمى إليها^(١). وبعض المصادر تلقبه بالفقير^(٢)، أو الحقيير^(٣)، وبعضها يلقبه بالسقاء؛ لأنه امتهن بيع الماء بسوق القيروان^(٤)، ولكن ابن خلدون يذكر أنه كان شيخاً لقبيلة مضغرة^(٥)، وهذا هو الأرجح؛ لأنه نجح في ضم كثير من القبائل إلى جانبه حين قام بالثورة، ويؤيد ذلك أيضاً أنه ترأس وفد شيوخ القبائل المغربية إلى الخليفة هشام بن عبد الملك^(٦). ولما لم يجد وفد المغرب من الخلافة اهتماماً يبحث مشكلات البربر ومتاعبهم، وكانوا قد تدارسوا في دمشق المنهاج الذي يسير عليه خوارج المشرق وطريقتهم، لذا فقد قرروا الخروج من المعارضة السلمية الصامتة إلى الثورة والصراع المسلح مع الخلافة وممثليها من العمال^(٧).

وجاء إعلان الثورة في أنسب الظروف حين خرج جيش الوالي في حملة بحرية لغزو صقلية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري^(٨) سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م، وعندها قامت الثورة وادّعى ميسرة الخلافة وتسمى بها وبايعه الثوار عليها^(٩).

وانضم إلى ميسرة في هذه الثورة «بربر مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف، كما انضم إليه الأفارقة في طنجة بزعامة عبد الأعلى بن جريح^(١٠)»، وانضمت إليه

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٣.

(٢) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٣.

(٣) ابن عداوي: البيان المغرب ١ / ٥٢.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ١٤، ابن الأثير: الكامل ٥ / ١٩١.

(٥) ابن خلدون: العبر ٦ / ١١٨.

(٦) ابن خلدون: العبر ٦ / ١١٩، د. حسين مؤنس: ثورات البربر في إفريقيا والأندلس ١٥٦، حسن علي حسن: دولة الإدارة بالمغرب، رسالة ماجستير - دار العلوم - ١٩٦٧، ص ٥٠.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٥٦.

(٨) هو حبيب بن مرة أبي عبيدة بن عتبة بن نافع الفهري القرشي، قائد من الولاة ولد ونشأ بمصر، ودخل الأندلس مع موسى بن نصير وولى بها ولايات ووفد على سليمان بن عبد الملك مع جماعة يحملون رأس عبد العزيز بن موسى بن نصير ثم عاد إلى إفريقية، فولى قيادة الجيش في قتال العصاة من البربر وقتل في إحدى معاركه سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ هـ. انظر المزيد في: تهذيب ابن عساكر ٤٠ / ٢٨، جذوة المقتبس ١٨٧.

(٩) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٥٦.

(١٠) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٠٤.

أيضاً أقوى قبائل المغرب الأوسط وهى زناتة^(١). وقد روى المؤرخون ضراوة هذه الثورة فيقول ابن عذارى «فخرج ميسرة المدغرى وقام على عمر بن عبد الله المرادى بطنجة فقتله»^(٢). وتذكر الأخبار المجموعة أن الثوار «دخلوا مدينة طنجة فقتلوا أهلها ويقال أنهم قتلوا^(٣) الصبيان». وبعد أن سيطر ميسرة على الأمور فى طنجة ترك عليها أحد أعوانه وهو عبد الأعلى بن جريح الإفريقى واتجه إلى السوس، وهناك التقى إسماعيل بن عبيد الله^(٤) فهزمه وقتله^(٥)، وأمام هذه الانتصارات تأجج لهيب الثورة فعمت أنحاء المغرب، حيث وثب كل قوم من البربر على من يليهم فقتلوا وطردوا.

وأمام مفاجأة الثورة لعبيد الله بن الحبحاب حاول جميع قواه لضرب هذه الثورة، فأرسل إلى عقبة بن الحجاج السلولى عامله على الأندلس يطلب إليه مهاجمة مواقع الثوار فى طنجة، ولكن عقبة لم يستطع اتمام هذه المهمة وعاد أدراجه^(٦)، فأرسل ابن الحبحاب جيشاً بقيادة خالد بن حبيب الفهرى، وفى الوقت نفسه أرسل فى استدعاء حبيب بن أبى عبيدة الفهرى من صقلية وبعثه فى أثر خالد^(٧)، ولقى ميسرة خالداً بناحية طنجة فاقتلا قتالاً شديداً ثم تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه، وولوا أمرهم خالد بن حميد الزناتى^(٨) الذى التقى خالد بن حبيب ما بين وادى شلف إلى قرب طنجة^(٩)، وأنزل بالعرب هزيمة فادحة راح فيها كما يقول ابن

(١) د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر ١٧٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٥٢.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ٢٨ - ٢٩.

(٤) هو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى أبو عبد الحميد والى، كان فقيهاً فاضلاً ورعاً، وهو أحد العشرة التابعين، مخزومى قرشى بالولاء، استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم ويفقههم فى الدين سنة ٩٩ هـ، فأسلم على يديه جمهور كبير من البربر ومات بالقيروان سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م. انظر المزيد فى: معالم الإيمان ١ / ١٥٤، الاستقصا ١ / ٤٦، رياض النفوس ١ / ٧٥.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٣.

(٦) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ١٦٧.

(٧) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤٠٥، ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٥٣، الكامل ٥ / ١٩٢.

(٨) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤٠٥، ابن الأثير ٥ / ١٩٢.

(٩) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٥٣.

عذارى «حملة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها»^(١)، لذا سميت هذه المعركة «غزوة الأشراف»^(٢)، وقد تأثر هشام بن عبد الملك لتدهور الأمور في المغرب على هذا النحو وقال: «والله لأغضببن لهم غصبة عربية ولأبعثنّ لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي»^(٣). نجحت ثورة ميسرة في فصل المغرب الأقصى عن الخلافة الأموية وأخذ سكانه من البربر يعتمدون على أنفسهم في حل مشكلاتهم بحسب ما هم فيه من أوضاع سياسية واجتماعية ودينية، وبذا وضحت شخصية المغرب وضوحاً تاماً^(٤).

أما المغرب الأوسط فقد ظل مسرحاً للصراع الدامي بين قوات الخلافة التي تحاول استرداد نفوذها على أرضه بكل الوسائل، وبين ثوار البربر على اختلاف مذاهبهم.

جهود الخلافة لاسترجاع نفوذها في المغرب

تولى أمر المغرب كلثوم بن عياض القشيري وقُدِمَ إلى المغرب سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م (٥) في جيش جرار تضخم تبخخماً عظيماً بمن انضم إليه من جند الشام ومصر وبرقة وطرابلس حتى بلغ عدده ٧٠ «سبعين ألف رجل»^(٦)، ولكن العصية لعبت دورها التعمس في تحطيم صفوف هذا الجيش القوي، فالظاهر أن أهل الشام أتوا يزهدون بعددهم وعديدهم على المناكيد من أهل إفريقية والمغرب الذين حطمهم البربر في أكثر من موقعة^(٧)، علاوة على ذلك فإن قائد الجيش الإفريقي حبيب بن أبي عبيدة لقي الكثير من الإهانة من بلج بن بشر القيسي، ومن كلثوم بن عياض نفسه يقول ابن عبد الحكم «قَدِمَ كلثوم فتلقاء حبيب فتهاون به أيضاً ثم خطب

(١) ابن عذارى: البيان، المغرب ١ / ٥٤.

(٢) ابن أبي: دينار المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ٤٠.

(٣) ابن أبي: دينار المصدر السابق ٤٠.

(٤) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ٦٧، القاهرة ١٩٦٧م.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٦٢.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٦٢.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٢٦٣.

كلثوم الناس على ديدبان له، فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته»^(١). وإلى جانب هذه المعاملة السيئة التي لقيها العرب المقيمون في البلاد فإن كلثومًا استهان بقوة البربر ولم يستفد بخبرة من سبقوه بالقتال في هذا الميدان الوعر فقد أشار حبيب بن أبي عبيدة على كلثوم أن يقاتل البربر الرجال بالرجال والخيل بالخيل^(٢) فقال له كلثوم «ما أغنانا عن رأيك يا ابن أم حبيب»^(٣)، وهكذا أصبح جيش الخلافة على هذه الحالة من التمزق والانشقاق، فما أن دارت المعركة بينه وبين البربر عند وادي سبو حتى^(٤) منى بالهزيمة الفادحة، ويصف ابن عذارى هذه المعركة وصفًا دقيقًا رائعًا فيقول: «ثم نشب القتال وقعدت البربر تحت الدرق، وناشبت الخيل الخيل وكشفت خيل العرب خيل البربر، ثم انكشفت خيل العرب والتقت الرجال بالرجال فكان صبر وقتال. وخالطت خيل البربر ورجالهم كلثومًا وأصحابه فقتل كلثوم، وحبيب بن أبي عبدة وسليمان بن أبي المهاجر ووجوه العرب، فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس وهزيمة أهل مصر وإفريقية إلى إفريقية»^(٥). ويذكر ابن القوطية أن خسائر العرب في هذه المعركة كانت عشرة آلاف كان من بينها كلثوم بن عياض^(٦).

ورغم الهزيمة التي منى بها جيش الخلافة عند وادي سبو «بقدورة»، فقد تابعت الخلافة الأموية جهودها لوضع حد لثورة البربر الصفرية، فأرسلت حنظلة بن صفوان - إلى مصر - لمباشرة هذه المهمة سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢^(٧) وكان قد ظهر في هذه الآونة زعيمان من البربر هما أبو يوسف الهواري وعكاشة بن أيوب الفزاري الصفرى، استطاع هذان الزعيمان أن ينقلا منطقة الصراع إلى بلاد المغرب الأوسط وبخاصة إقليم الزاب في شرق تلك البلاد، وكان كل منهما يتأهب للزحف على القيروان^(٨).

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٥.

(٣) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٥.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٥٥.

(٥) ابن عذارى: المصدر السابق ١ / ٥٥.

(٦) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ٤١.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب ٢٧٢.

(٨) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣١٢.

فسار إليها عكاشة عن طريق مجانة، بينما اتجه عبد الواحد إليها عن طريق جبل باجة وتوقف عبد الواحد على بعد مرحلة من القيروان عند موضع يُعرف بالأصنام، في حين عسكر عكاشة على بعد ستة أميال من القيروان عند موضع يُعرف بالقرن^(١). وأمام تكتل جهود الصفورية لاقتلاع القيروان من قبضة العرب رأى حنظلة أن يلقي كلاً منهما على حدة؛ لذا أرسل إلى عكاشة وأخذ يرغبه ويمنيه^(٢) حتى يكسب مزيداً من الوقت يهاجم فيه عبد الواحد الذي يقف قريباً منه عند الأصنام. وزحف حنظلة إلى عبد الواحد ومن معه «فلقبهم بالأصنام، فهزم الله عبد الواحد وجمعه، وقتل ومن معه قتلاً ما يدرى ما هو، وهرب من هرب منهم»^(٣).

سار حنظلة بعد ذلك برجاله المظفرين نحو موضع القرن قبل أن يبلغ عكاشة الفزاري نبأ مصرع حليفه عبد الواحد، وانقضّ القيروانيون بكل ما عندهم من حماس النصر والقوة على عكاشة الذي أخذ من هول المفاجأة فانهزم وأصحابه^(٤). ويقول ابن عبد الحكم: وهرب عكاشة حتى انتهى إلى بعض نواحي إفريقية فأخذه قوم من البربر أسيراً حتى أتوا به إلى حنظلة فقتله^(٥).

وكانت الخلافة الأموية آنذاك قد دب فيها الضعف وأصابها الوهن وبدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ حيث كانت الدعوة إلى آل البيت على أشدها في المشرق وانشغل الأمويون في الصراع مع هذه الدعوة، وكان لذلك صدها في بلاد المغرب التي أصبحت مرتعاً للمتغلبين عليها من الخوارج والمغامرين من ذوى النفوذ والسلطان^(٦). وكان عبد الرحمن بن حبيب أحد هؤلاء المغامرين من القادة العسكريين الذين عملوا في ميدان المغرب^(٧)، وقد هرب إلى الأندلس بعد أن هُزم في بقلدورة، وهناك حاول أن يصل إلى الإمارة ولكنه فشل في مسعاه فركب سفينة حملته إلى تونس، وهناك قام

(١) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٧٤.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ٢٩٩.

(٣) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ٢٩٩.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٧٦.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٢٩٩.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٢٧٨.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٦٠.

بالدعوة لنفسه وعماونه في ذلك العرب الأفارقة، والبربر الزناتيون، ويبدو أن الذي دفعه إلى ذلك أنه كان يشعر أنه زعيم العرب الأفارقة فهو ينتمي إلى أقدم بيوت العرب الفاتحين فجده الأعلى عقبة بن نافع هو الذي أسس القيروان، كما ساهم أبوه حبيب وجده أبو عبيدة بن عقبة بن نصيب كبير في الفتح الإسلامي للمغرب^(١). وأراد حنظلة أن يخرج لقتال عبد الرحمن بن حبيب ولكنه كره قتال المسلمين وكان رجلاً ذا ورع ودين^(٢) ولعله رأى أن الخلافة الأموية قد تدهورت أحوالها وأنها من الضعف بمكان يصعب معه أن تقوم بمساعدة حنظلة إن هو دخل في صراع جديد في المغرب، لذا قرر حنظلة أن يتنازل عن الإمارة ورحل عن القيروان إلى دمشق في جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤^(٣)، وما أن صارت الأمور لمروان بن محمد واستقرت له الخلافة حتى أمّر عبد الرحمن بن حبيب والياً على المغرب تفادياً للانقسامات والفتن^(٤). وأصبح عبد الرحمن بن حبيب أول أمير استولى على ولاية المغرب.

واستطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يظل^(٥) والياً على بلاد المغرب برغم سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ وقيام الدولة العباسية؛ إذ اضطرت الخلافة العباسية إلى الاعتراف بهذا الوالي جرياً على قاعدة إمارة الاستيلاء؛ لأنها كانت في المراحل الأولى لدعم كيائها في المشرق^(٦).

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٢٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٦٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٣٠١.

(٤) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٤٢ - بنغازي ١٩٦٧ م.

(٥) رفعت فوزي عبد المطلب: الخلافة والخوارج في المغرب العربي ١١٧، القاهرة - ١٩٧٣.

(٦) بقيام العباسيين على عرش الخلافة الإسلامية حدث تطور مهم في الإدارة في المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب، وجاء هذا التطور وليد الأحداث السيئة التي سادت أواخر العصر الأموي، وقد ظهرت دلائل هذا التطور الجديد في تطلع نفر من قادة الجيوش إلى السيطرة على مقاليد الحكم رغبة منهم في تحقيق مطامعهم الشخصية والأسرية، وانقسم أولئك القادة إلى قسمين أحدهما جنح إلى الانفراد بالأمور دون رضا الخلافة وهو النوع الذي أطلق عليه فقهاء المسلمين اسم «أمراء الاستيلاء» والآخر انفرّد بإدارة البلاد بتفويض من الخلافة وهو ما سماه فقهاء المسلمين باسم «أمراء الاستكفاء». انظر المزيد في: إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٧٤.

(د) انتقال مقاليد الصراع في المغرب من الصفرية إلى الإباضية

دخلت ظاهرة الثورات في بلاد المغرب في دور جديد من تاريخها عندما أخذت تنتقل مقاليد القيادة فيها من أيدي الصفرية من الخوارج إلى أيدي الإباضية من فرقة الخوارج نفسها، ويعزى السبب في ذلك إلى أن أهل المغرب ضاقوا ذرعاً بعنف الصفرية. وظهرت بوادر ذلك التطور عندما عين عبد الرحمن بن حبيب أخاه إلياس ابن حبيب والياً على طرابلس؛ إحساساً منه بخطر الإباضية عليه بعد أن بايعوا عبدالله ابن مسعود التجيبي رئيس الإباضية في طرابلس إماماً لهم^(١). فما كان من إلياس إلا أن قتل عبدالله بن مسعود التجيبي^(٢). وكان لهذا التصرف الأخرق من جانب إلياس عواقبه الوخيمة؛ إذ ثار الإباضية وأخذوا يحتشدون للثورة، وحاول عبد الرحمن بن حبيب تهدئة الأمور فعزل إلياس عن طرابلس؛ ولكن هذا الإجراء من جانب عبد الرحمن لم يحل دون ثورة الإباضية بقيادة إمامهم الجديد الحارث بن تليد الحضرمي وقاضيه ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي^(٣). واستطاع هذان الزعيمان الإباضيان أن يحوزا النصر تلو النصر على قوات عبد الرحمن بن حبيب^(٤). إلا أن عبد الرحمن تمكن في النهاية من قتلتهما، ويروي ابن عبد الحكم أن خلافاً حدث بين الزعيمين الإباضيين وأنهما اقتتلا فقتل كل منهما الآخر^(٥). وتولى إمامة الإباضية إسماعيل بن زيادة النفوسي، واستطاع عبد الرحمن بن حبيب القضاء عليه هو الآخر قبل أن يستفحل أمره، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم: «فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى إذا كان بقابس قديم ابن عمه شعيب بن عثمان في خيل فلقبه إسماعيل، فقتل إسماعيل وأصحابه، وأسر من البربر أسارى كثير»^(٦).

(١) محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٢ / ٤١٠.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٣٠١.

(٣) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٤٣.

(٤) ابن عبد الحكم فتوح: مصر والمغرب ٣٠١ - ٣٠٢.

(٥) يذكر محمد علي ذبوز أن عبد الرحمن بن حبيب دس إليهما من قتلتهما ثم أدخلوا في كل واحد منهما سيفاً وجعلوا متبضه إلى جهة الآخر ليتوهم الناس أنهما تنازعا فاقتتلا فقتل كل منهما صاحبه، وقد ثار بين الإباضية خلاف شديد حول البراءة منهما أو الشك في مقتلتهما. انظر: محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٢ / ٤١٣.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ٣٠٢.

ولم تهدأ الأحوال لعبد الرحمن؛ إذ واجه ثورات عديدة كان أكثر القائمين بها من بقايا الصفرية، وقد أجمل ابن عذارى هذه الثورات في قوله «ولما ولي عبد الرحمن ثار عليه جماعة من العرب والبربر، ثم ثار عليه عروة بن الوليد الصديقي فاستولى على تونس، وثار عليه عرب الساحل وقام عليه ابن عطف الأزدي وثار البربر في الجبال وثار ثابت الصنهاجي بباجة فأخذها»^(١). وتمكن عبد الرحمن بن حبيب بعد جهود مضنية من قمع هذه الثورات، وساعده في ذلك أخوه إلياس بن حبيب، وبمرور الوقت ازدادت أقدام عبد الرحمن بن حبيب رسوخاً في إفريقية، فما أن جاءت سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م - ٧٥٣ م حتى وجّه أنظاره نحو المغرب الأوسط^(٢)؛ إدراكاً منه أن المغرب الأوسط عصب الحياة لأي قوة سياسية تريد البقاء في بلاد المغرب. لذا جهد عبد الرحمن في أن يجعل هذا الإقليم المهم ضمن ولايته^(٣)، فغزا أرض زناقة بنواحي تلمسان^(٤). وقام بعد ذلك بتأمين سواحل إمارته بغزو بحري لكل من صقلية وسردانية^(٥). ولكن أحقاد إلياس بن حبيب دفعته إلى قتل أخيه عبد الرحمن ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م وسطاً على الولاية فأخذها لنفسه^(٦) من حبيب بن عبد الرحمن صاحب الحق الشرعي في هذه الولاية، وتردت الأسرة الفهرية في صراع دموي قُتل فيه إلياس بن حبيب سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م^(٧).

ومضت الأمور في البلاد من سيئ إلى أسوأ حيث لاذ إخوة إلياس ببطن من بطون بربر نفره يقال لهم ورفجومه وكانوا من غلاة الصفرية، وهناك طلبوا من أميرها عاصم ابن جميل مساعدتهم ضد منافسهم حبيب بن عبد الرحمن، وكانت هذه فرصة عظيمة للصفرية لتحقيق أهدافهم السياسية بالاستيلاء على القيروان، وقد تم لهم ذلك فعلاً فاستولوا على القيروان سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م^(٨) وتمكن عبد الملك بن أبي الجعد من

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٦١.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٩٣.

(٣) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٧٤ - ١٧٥.

(٤) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤٠٧.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٢٩٣.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٠٠.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٦٩.

(٨) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٣٧.

قتل حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب في المحرم من سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م^(١). وقد استفاد دعاة الإباضية من هذه الأحوال المضطربة فنشروا مذهبهم على نطاق واسع، وساعدهم على ذلك أن كثيرًا من عامة البربر رفضوا سلوك الصفرية ولم يرضوا عن التطرف الشديد الذي تردوا فيه، فقد كانت ثورات الصفرية شرًا مستطيرًا على البربر ومصالحهم، وقد بلغ هذا الشر مداه عندما استولت ورفجومه على القيروان بقيادة أميرها عاصم بن جميل وكان قد ادّعى النبوة والكهانة، فبدّل الدين وزاد في الصلاة، وأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من الأذان^(٢). وزادت فظائع الصفرية في القيروان فاستحلت ورفجومه المحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه^(٣).

وتلك ظاهرة خطيرة استغلها دعاة الإباضية في التقليل من شأن منافسيهم من الصفرية، ومن ناحية أخرى في نشر مذهبهم حتى أصبحوا القوة السياسية الوحيدة التي لا يمكن لأهل القيروان وغيرهم من البربر أن يستغيثوا إلا بها ضد أعمال الصفرية ومفاسدهم بعد أن قُضي على القوة العربية المتمثلة في آل الفهري ونجح هؤلاء الإباضية في إعادة تنظيم صفوفهم من جديد، وتولى أمر هذه المهمة حملة العلم الخمسة الذين درسوا أصول المذهب الإباضي في البصرة على يد داعية الإباضية الأكبر أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة^(٤). ويذكر الشماخي أن رجال الإباضية تشاوروا بموضع يقال له صياد في غربي مدينة طرابلس واستقر رأيهم على تولية أبي الخطاب المعافري إمامًا لهم^(٥).

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٣٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣١٥/٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٧٠/١، ابن الأثير: الكامل ٣١٦/٥.

(٤) هو مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء البصري أبو عبيدة، فقيه من علماء الإباضية. أخذ المذهب عن جابر بن زيد ثم صار مرجعًا فيه تشد إليه الرحال، وكان أعور، ويقال له القفاف وكان يحرض على الخروج وذكر شخصيًا فقال: «إن أراد الدين كما يزعم فليلق بـصاحبنا بحضر موت عبد الله بن يحيى فليقاتل بين يديه حتى يموت» وقيل له: «ما يمنعك من الخروج ولو خرجت ما تخلف عنك أحد؟» فقال: «ما أحب ذلك، ولو أني فعلت ما أحببت أن قيم ما بين الظهر والعصر مخافة الأحكام. انظر المزيد في السير ٨٣، لسان الميزان ٣٢/٦.

(٥) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج ١٦٧.

اتجه أبو الخطاب المعافري بعد مبايعته إلى طرابلس فاستولى عليها وطرده عاملها عمر بن عثمان القرشي سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م^(١)، واتخذها مقراً له، وما أن انتهى من تنظيم شئونها حتى وصلتته أنباء الفطائح التي ترتكبها ورفجومه في القيروان، فقد روى ابن الأثير «أن رجلاً من الإباضية دخل القيروان لحاجة له فرأى ناساً من الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهراً والناس ينظرون فأدخلوها الجامع فترك الإباضي حاجته وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري فأعلمه ذلك فخرج أبو الخطاب وهو يقول: بيتك اللهم بيتك»^(٢).

خرج أبو الخطاب لتحرير القيروان من ربة الصفرية، فاستولى في طريقه على قابس وترك عليها عاملاً من قبله^(٣)، ثم توجه نحو القيروان، فالتقى الصفرية في موضع قرب القيروان يذكر البكري أن اسمه رقاده^(٤)، وهناك دارت رحى معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الصفرية وفرارهم أمام أبي الخطاب الذي دخل القيروان سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م^(٥) فنظم شئونها وترك عليها شخصية من أبرز الشخصيات الإباضية من حملة العلم وهي شخصية عبد الرحمن بن رستم^(٦) الذي تألق نجمه في الأفق السياسي منذ ذلك الوقت فحمل لواء الفكر السياسي في المغرب الأوسط ومناطق كثيرة من أرجاء المغرب الواسعة، ونقل هذه هذا الفكر من مرحلة الدعوة والنظريات إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ في إطار أكد وجوده في بلاد المغرب تحت اسم الدولة الرستمية^(٧). وفي الوقت الذي رشحت فيه أحداث الإباضية شخصية عبد الرحمن بن رستم لتولية شئون القيروان، كانت الخلافة العباسية تدلّى بدلوها في توجيه تلك الأحداث؛ إذ وجّه الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي اهتمامه لاسترداد سلطان الخلافة الإسلامية على بلاد المغرب^(٨).

(١) الشماخي السير ١٢٦.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ٥ / ٣١٦، الشماخي: السير ١٢٧.

(٣) الشماخي: السير ١٢٧ - ١٢٨.

(٤) سميت رقادة لكثرة جثث القتلى ورقادها بعضها فوق بعض. البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٢٨.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧١، العبر ٤ / ٤١٠، ابن الأثير: الكامل ٥ / ٣١٦ - ٣١٧.

(٦) الشماخي: السير ١٢٩.

(٧) د، إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٧٦.

(٨) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤١١، وذكر النويري: أن جماعة خرجت إلى أبي جعفر المنصور منهم: عبد الرحمن

وأصدر أبو جعفر المنصور أواسره إلى محمد بن الأشعث - وإلى مصر - بتحريك الجيوش إلى المغرب، ويبدو أن ابن الأشعث استهان بقوة الحركة الإباضية في إفريقية؛ حيث أرسل قوة من ناحية برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي فخرج إليها أبو الخطاب، وما أن وصل ورداسه حتى وجّه إلى هذه الحملة صحران الهواري فلقى العوام وهزمه بأرض سرت^(١).

فجهّز محمد بن الأشعث جيشاً آخر جعل عليه أبا الأحوص عمر بن الأحوص العجلي فلقبه أبو الخطاب بمغمّداس ١٢٤هـ / ٧٥٩م، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة أبي الأحوص وانسحابه إلى مصر^(٢). أمام هذه الهزائم المتلاحقة أمر أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث بالتوجه إلى المغرب بنفسه بعد أن أسند إليه ولاية إفريقية^(٣). ولم يكتف بذلك بل أمّده بالجيوش، يذكر النويري أن عددها كان أربعين ألفاً منهم ثلاثون ألف فارس من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام^(٤). ويبدو أن هذا الجيش قد تضخم حين خروجه من مصر حتى بلغ خمسين ألفاً من الجنود^(٥)، كان عليهم ثمانية وعشرون قائداً^(٦)، منهم: الأغلب بن سالم^(٧)

بن زياد بن أنعم، ونافع بن عبد الرحمن السلمي، وأبو البهلول بن عبيدة، وأبو العرياص فأتوا المنصور يستنصرون به على البربر، ووصفوا عظيم ما لقوه، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢، ق ١، ورقة ١٩.

(١) الشماخي: السير ١٣٠.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧١، الكامل ٣١٧/ ٥، الكندي: الولاة والقضاة ١٠٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٣١٧/ ٥.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢، ق ١، ورقة ١٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٣١٧/ ٥.

(٦) ابن الأبار: الحلة السيرة ١/ ٦٩، ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٧٢.

(٧) هو الأغلب بن سالم بن عقّال بن خفّافة التميمي، أمير من الشجعان القادة وهو جد «الأغالبة» ملوك إفريقية، وأول من وليها منهم، كان مع أبي مسلم الخراساني حين قيامه بالدعوة العباسية، ورحل إلى إفريقية مع محمد بن الأشعث ثم ولّاه المنصور العباسي الإمارة بإفريقية سنة ١٤٨هـ، فأقام في القيروان ووطد الأمور وانصرف يريد قتال الصفرية، فبايع أهل تونس للحسن بن حرب الكندي ودخل بهم القيروان، فعاد إليه الأغلب فقاتله واستمرت الحرب بينهما إلى أن أصاب الأغلب سهم قتله بقرب تونس سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م، انظر العزيز في: الاستقصا ١/ ٥٧، الكامل ٢١٧/ ٥، البيان المغرب ١/ ٧٤، وفيات الأعيان ١/ ٣٣٩.

التميمي ومحارب بن هلال الفارسي، والمخارق بن غفار الطائي وهم نواب ابن الأشعث في القيادة.

مضى ابن الأشعث بهذا الجيش الكثيف، وكان أبو الخطاب قد تهيأ لحرب ابن الأشعث فأرسل في استدعاء عبد الرحمن بن رستم من القيروان^(١). وتذكر معظم المصادر أن خلافاً كبيراً نشب بين جماعات الإباضية؛ حيث تنازعت زناتة وهوارة، واتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إلى هوارة وفارق بعضهم أرض المعركة^(٢). يقول ابن عذاري: «ثم إن زناتة وهوارة تنازعت فيما بينهما، واتهمت زناتة أبا الخطاب في ميله مع هوارة ففارقه جماعة منهم»^(٣)، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى ضعف جبهة الإباضية رغم كثرة عددهم، فالتقى ابن الأشعث من تبقى مع أبي الخطاب واقتلوا قتالاً شديداً هُزمت فيه الإباضية وانتهت المعركة بمقتل أبي الخطاب سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م^(٤).

والشماخي المؤرخ الإباضي لا يذكر شيئاً من هذا الخلاف بين زناتة وهوارة وإنما يروي أن انصراف الجموع عن أبي الخطاب كان بسبب خدعة حربية أحكمها ابن الأشعث حول الإباضية؛ حيث تظاهر بالعودة إلى مصر، وكان الوقت وقت زرع فتفرق الناس عن أبي الخطاب إلى زروعهم وأوطانهم، فدهم ابن الأشعث الإباضية وهم على هذه الحال فهزمهم عند تورغا^(٥).

وصلت أنباء الكارثة التي حلت بالإباضية إلى مسامع عبد الرحمن بن رستم فسار بأهله إلى المغرب الأوسط، وقد حمل معه ما خفف من ماله تاركاً خلفه القيروان^(٦) التي وصلها محمد بن الأشعث في جمادى الأولى سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م^(٧).

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١ ورقة ١٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧٢، ابن الأثير: الكامل ٥ / ٣١٧ ويبدو أن قبيلة زناتة قد تركت أرض المعركة جملة ولم تشترك في القتال، فالشماخي يروي أن القبائل التي اشتركت مع أبي الخطاب في القتال هي نفوسة وهوارة وطريشة.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥ / ٣١٧.

(٥) الشماخي: السير ١٣١ - ١٣٢.

(٦) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧٢.

(٧) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣١٥.

وتأكد لعبد الرحمن بن رستم أن نجاح الإباضية في منطقة يسود فيها المذهب السني، وتقاتل عنها جيوش الخلافة العباسية بضراوة شديدة أمر غير مكفول النتائج^(١)، ولذلك أصبحت منطقة تاهرت في المغرب الأوسط هي المكان الطبيعي الذي تضمن ظروفه الطبيعية والسياسية إقامة الدولة الإباضية.

(١) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٤٨.

الفصل الثانى تأسيس الدولة

أصل الرستميين

كان انتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط إيذانًا بظهور الدولة الرستمية التي أصبحت قوة جديدة لها أثرها البالغ فى تشكيل أحداث المغرب كله، إلى نهاية القرن الثالث الهجرى. والكلام عن الدولة الرستمية^(١) يقتضينا ومن الكلام عن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذى أثبت المصادر أنه فارسى الأصل، وإن اختلفت هذه المصادر فيما بينها فى تحديد طبيعة هذا الأصل الفارسى.

فالبكرى يرتفع بنسب عبد الرحمن بن رستم إلى أصل ملكى يرتبط بأكاسرة الفرس الساسانيين، فجده هو: بهرام بن ذو شرار بن سابور بن بابكان بن سابور ذى الأكتاف الملك الفارسى^(٢) والرواية نفسها نجدها عند ياقوت الحموى مع مزيد من الإيضاح فى الوصول بهذا النسب إلى الأصل الملكى الفارسى فهو: بهرام بن بهرام جورين شابور بن باذكان بن شابور ذى الأكتاف ملك الفرس^(٣).

(١) يذكر السمعانى فى ضبط الاسم رستم الذى تُنسب إليه الدولة الرستمية الرُستَمى: بضم الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وفى آخرها الميم، هذه النسبة إلى رُستَم وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه، والمشهور بهذا الانتساب جماعة من أهل أصبهان قديمًا وحديثًا. وقد ذكر الطبرى الاسم رستم بفتح التاء، ويؤيد الطبرى والسمعانى فى ضبط النسب الرستمى على هذا النحو ابن خرداذبه يقول: وفى يدى الرُستَمى وهو ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهو من الفرس. انظر المزيد فى: البلدان ٣٥٣، ابن خرداذبه: المسالك والممالك ٨٧، مروج الذهب ١/ ١٨٦، ابن عذارى: البيان المغرب ٦/ ٢٢٥ - ٢٤٦، السمعانى: الأنساب ٢٥٢، الطبرى: تاريخه ٤/ ٢٩٤.

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٣) ياقوت الحموى: معجم البلدان ٨/ ٢.

أما ابن خلدون فيجعل عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس في موقعة القادسية، وقد عبر عن ذلك بقوله: وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح، وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية^(١).

وعند ابن حزم الأندلسي أن بنى رستم ينتمون إلى الملك الفارسي جاماسب ابن فيروز، وجاماسب هذا هو عم أنوشروان يقول «بنو رستم ملوك تاهرت من ولد جاماسب»^(٢).

ولا يُعقل أن يكون عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس في موقعة القادسية؛ إذ إن الأقرب إلى المعتاد من الأعمار يجعل في قبول ذلك كثيرًا من الشك؛ لأن رستم قُتل سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م وتوفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧١ هـ / ٧٧٧ م. فيكون عبد الرحمن قد عمّر مائة وبضعًا وخمسين سنة ولم يذكر هذا أحد من المؤرخين^(٣). أما نسبة عبد الرحمن بن رستم إلى بهرام «مولى عثمان بن عفان» فليس فيه ما يُستبعد^(٤) لأن يزددجرد آخر ملوك فارس كان له ابنان هما بهرام وفيروز وثلاث بنات هن: أدرك، وسها ومرادوزيد^(٥).

وينفرد المسعودي من بين المؤرخين برواية تقول بأن هناك من يرى أن الرستميين من بقايا الإشبان حيث يقول: «وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي وهو إياضي المذهب، وهو الذي أنشأ في ذلك البلد مذهب الخوارج وقيل إنهم الرستميون من بقايا الإشبان»^(٦). وقد اختلف المؤرخون في حقيقة الإشبان فيرى المسعودي أنهم من الفرس الذين انتقلوا إلى المغرب من بلاد أصبهان^(٧). وله رأي آخر في هذا الشأن ذكره في كتابه «أخبار الزمان». فهم من ولد سودان بن كنعان

(١) ابن خلدون: العبر ٦ / ٢٤٦.

(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ٥١١، تحقيق: عبد السلام محمد هارون - القاهرة ١٩٦٢ م.

(٣) محمد بن ناويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٥. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد - المجلد ٥، العدد ١ - ٢، ١٩٥٧ م.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ١ / ١٧٧.

(٦) المسعودي: المصدر السابق ١ / ١٨٦، طبعة بيروت.

(٧) المسعودي: مروج الذهب ١ / ١٨٦.

الذين تناسلوا بالمغرب^(١). وفي ضوء هذين الرأيين للمسعودي يصبح الرستميون من سكان المغرب الأصليين الذين كانوا موجودين قبل الفتح الإسلامي للمغرب.

وقد أشار المقرئ في كتابه نفح الطيب إلى رأى ثالث في حقيقة الإشبان، فهم نسبة إلى ملك الأندلس إشبان بن طيطش الذي تُنسب إليه مدينة إشبيلية، وقد قيل إن إشبان هذا من عجم رومة أو إنه من أصبهان التي وُلد بها^(٢)، وهذا الطرف الأخير من الرواية يعنى أن الإشبان من الفرس وأن الرستميين بالتالي من أصل فارسي، كما تعنى هذه الرواية أيضًا أن البيت الرستمي وافد إلى المغرب من الأندلس، وقد يكون هذا صحيحًا، إلا أن ذلك يعوزه الدليل ولكن الذي يتضح من الروايات السالفة على اختلاف مصادرها أن الرستميين يُنسبون إلى أصل فارسي.

البيت الرستمي

أسفرت حركة الفتح الإسلامي في بلاد فارس، عن انتقال عدد كبير من الفرس إلى أنحاء الجزيرة العربية، ليعيشوا ضمن المجتمع الإسلامي تحت اسم الموالى، وكان بهرام جد عبد الرحمن بن رستم من هؤلاء الموالى، إذ كان مولى لعثمان بن عفان^(٣) وطبيعي أن تتدخل علاقة عثمان بهرام على هذا النحو في تحديد المدينة مكانًا طبيعيًا لإقامة بهرام، حيث يكون قريبًا من موالاه عثمان بن عفان، وبالتالي فإن رستم ولد بهرام أقام في المدينة، وتعتبر إقامة البيت الرستمي على هذا النحو في المدينة دعمًا لأركانه الإسلامية؛ حيث يحتمل أنه درج في بيت الخلافة، فنهل من فيضها الإسلامي الرفيع وغدا ذلك مهيتًا عظيمًا لشخصية عبد الرحمن بن رستم^(٤).

طلائع صلة البيت الرستمي بالمغرب

سلك البيت الرستمي طريقه إلى المغرب ممثلاً في شخص عبد الرحمن بن

(١) المسعودي: أخبار الزمان ٨٧، بيروت - ١٩٦٦ م.

(٢) الحميري: صفة جزيرة الأندلس ١٩ - ٢٧ تحقيق: ليفي بروفنسال، المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١ / ١٣٤ تحقيق: إحسان عباس - بيروت ١٩٦٨ م.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٨ / ٢ - بيروت - بدون تاريخ.

رستم، وقد حدد ابن خلدون طلائع علاقة البيت الرستمى بالمغرب بطوالع الفتح الإسلامى لهذه البلاد حين قال: قَدِمَ عبد الرحمن بن رستم إلى إفريقية مع طوالع الفتح فكان بها^(١)، والمعروف أن الطوالع تتحدد تاريخياً ببداية الفتح وتنتهى بالطوالع التى قَدِمَ بها موسى بن نصير لإتمام فتح المغرب نهائياً وضمّه إلى الدولة الإسلامية.

وللشماخى رواية توضح الإجمال فى رواية ابن خلدون، حول طلائع علاقة البيت الرستمى ببلاد المغرب يقول: «وكان عبد الرحمن بن رستم بمدينة القيروان، وسبب وصوله إليها أن أباه رستم بن بهرام.. قَدِمَ مكة حاجاً بزوجه وابنه عبد الرحمن فمات، فتزوجت زوجته رجلاً من القيروان فأقبل مع أمه»^(٢).

ولم يكن عبد الرحمن بن رستم حين وصل إلى القيروان قد شَبَّ عن الطوق، إذ كان فى طفولته المبكرة، والقرائن التاريخية تؤكد ذلك، فإذا عرفنا أن عبد الرحمن رحل إلى البصرة وهو شاب حدث السن^(٣)، بعد أن تلقى المذهب الإباضى على يد سلمة بن سعيد فى أول القرن الثانى الهجرى^(٤) وقارناً هذه الفترة بطوالع الفتح الأخيرة التى جاء فيها عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب، وصلنا بسهولة ويسر إلى أنه كان طفلاً صغيراً حين انتقل من الحجاز إلى القيروان.

الموطن الجديد

أصبحت القيروان موطناً جديداً لعبد الرحمن بن رستم؛ حيث تفتحت مواهبه فى رحابها على يد فقهاءها وعلمائها، فقد كانت القيروان إذ ذاك مصراً من الأمصار الإسلامية المهمة^(٥) التى كانت تقف مصدراً وحيداً يشعّ بالعلم والمعرفة فى بلاد المغرب كلها. وتمثل عبد الرحمن بن رستم ما استطاع تمثله من ثقافة القيروان، ولكنه مال إلى تعاليم الخوارج كما يقول ابن خلدون: «وأخذ عبد الرحمن بن رستم بدين

(١) ابن خلدون: العبر ٦ / ٢٤٦.

(٢) الشماخى: السير ١٢٤.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٩، مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية.

(٤) الشماخى: السير ١٢٣.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٨٧.

الخارجية والإباضية منهم»^(١)، وكان ذلك بتأثير من سلمة بن سعيد داعية الإباضية الذي كان يجتهد آنذاك في نشر المذهب الإباضي في ربوع المغرب^(٢)، وقد حفظ الدرجيني في طبقاته نصًا جاء على لسان عبد الرحمن بن رستم نفسه يؤكد العلاقة الوطيدة بينه وبين هذا الداعية الإباضي، فقد قال عبد الرحمن بن رستم: أول من جاء بطلب مذهب «الإباضية» ونحن بقيروان إفريقية سلامة بن سعيد. قال عبد الرحمن بن رستم: قَدِمَ علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس معتفين على بعير وسلامة يدعو إلى مذهب الإباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية وسمعت سلامة يقول: وددت أن لو ظهر هذا الأمر يعنى مذهب الإباضية يومًا واحدًا أو النهار إلى آخره فلا أسف على الحياة بعده فقام عبد الرحمن مجتهدًا في طلب ذلك الأمر^(٣).

ويلاحظ أن عبد الرحمن بن رستم عندما اعتنق المذهب الإباضي كما قال ابن خلدون، كان ذلك المذهب قد تطور تطورًا جعله قريبًا من مذهب أهل السنة^(٤). وهو أمر كانت له دلالة في الأسس التي شيد عليها عبد الرحمن بن رستم دولته. فهذا المذهب ينتسب إلى عبدالله بن إياض المرّي التميمي الذي يصفه الدرجيني بأنه كان إمامًا لأهل الطريق ورئيسًا لإباضية البصرة وغيرها من الأقطار^(٥)، ويمثل المذهب الإباضي آخر تطورات الفكر الخارجي^(٦)؛ لأن حركة الخوارج أخذت تلفظ بين صفوفها دعاة التطرف وتجنح إلى كثير من الاعتدال، وتجلى ذلك في مدينة البصرة مركز هذه الحركة بالعراق. فقد تضامن أهل هذه المدينة ضد الخوارج وأخرجوا منها كل متطرف مثل نافع بن الأزرق ولم يبق بالمدينة غير اثنين هما ابن إياض وابن الصفار، وعلى ذلك انقسم الخوارج إلى قسمين، نادى أحدهما بالجهاد وهو القسم الأول المتطرف الذي انهار أمام طرقات الأمويين العنيفة، على حين ظل القسم الآخر المعتدل يتابع نشاطه في خطى وثيدة ومضطردة، وانقسم الفريق المعتدل بدوره إلى

(١) ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٤٦.

(٢) الشماخي: السير ١٢٣.

(٣) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٦، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢ أ.

(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق ١١٣، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٦٠ م.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٨٧.

(٦) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٦٤ - ١٦٥.

قسمين، مال أحدهما بقيادة ابن إباحي إلى مزيد من التسامح مع المخالفين، والآخر إلى التزامه بنوع من عدم التساهل مع المخالفين.

وتتضح أهم معالم الفكر الإباضي في المبادئ التي نادى بها شيوخ هذا المذهب والتي شرحها البغدادي والشهرستاني على النحو التالي: فالإباضية اعتبروا أن مخالفاتهم من هذه الأمة ليسوا مؤمنين ولا مشركين وإنما هم كفار بالنعم، ولذلك أجازوا شهادتهم وحرّموا دماءهم في السر واستحلّوها في العلانية وصحّحوا منّاكتهم والتوارث منهم، واستحلّوا من أموالهم والسلاح في حالة الحرب^(١). كما اعتبروا أن دار مخالفهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان^(٢) بمعنى أنها «دار المخالفين لهم» ليست أرض أعداء وإنما هي وطن للجميع من الخوارج وغير الخوارج دون تمييز، كما اعتبر علماء الإباضية مرتكبي الكبائر وجميع المقصرين في الشئون الدينية موحدين لا مؤمنين، وقد كان هذا التمييز حدثاً مهماً في الحركة الخارجية؛ لأن الأزارقة اعتبروا الشرك واحداً وطبقوه على جميع المخالفين لهم في تطرف شديد^(٣). وقد ترتب على هذه المبادئ القول بالقعود عند الإباضية وعدم محاربتهم للمخالفين والاشتراك معهم في الحياة العامة، وبذلك أصبحت جماعة الإباضية مسالمة إلى أقصى حد وأصبح مذهبها أقرب المذاهب إلى مذهب أهل السنة^(٤).

على أن جماعة الإباضية لقيت الكثير من العنت والاضطهاد من جانب الأمويين في أواخر القرن الأول الهجري على يد الحجاج بن يوسف الثقفي^(٥) مما جعل أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة - الذي كان شيخاً للمذهب الإباضي في أطراف الدولة الإسلامية، وعلى الأخص في بلاد المغرب - يختار رجلاً من أنشط تلاميذه وهو

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٣٤ - القاهرة ١٩٦٨ م - تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، البغدادي: الفرق بين الفرق ١٠٣.

(٢) البغدادي: المصدر السابق ١٠٣، الشهرستاني: المصدر السابق ١/ ١٣٤.

(٣) د. إبراهيم أحمد المدوي: بلاد الجزائر ١٦٥.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ١/ ٣٠٩، د. محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني ١٣١ - القاهرة ١٩٦٠ م.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٣٤.

سلمة ابن سعيد، وكان ذلك استغلالاً ذكياً من أبي عبيدة؛ فالمغرب بعيد عن مقر الخلافة الأموية في دمشق، وهذا يهيئ للدعاة الأمان من ضربات الحكومة المركزية، كما أن أرض المغرب مازالت ميداناً بكرًا تستطيع أفكارهم أن تصول وتجول فيه؛ لأن البربر مازالوا قريبى عهد بالإسلام، وأصبح من السهل على الدعاة أن يوجهوا سكانه إلى حيث يريدون، ومما ساعد الدعاة على التقدم في مهمتهم سوء الإدارة العربية واضطرابها نتيجة سياسة بعض ولاة المغرب.

وأمام كل هذه الظروف نجحت الدعوة للمذهب الإباضى في بلاد المغرب على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان^(١) مما جعل البربر يتوقنون إلى التعمق في دراسة المذهب من أصوله المشرقية فكونوا بعثة علمية رحلت إلى البصرة، لقبوا أصحابها «حملة العلم» وكان من بينهم عبد الرحمن بن رستم.

حملة العلم

كانت البعثة العلمية التي سُمي أصحابها «حملة العلم» هي أولى الثمار الحقيقية التي جناها دعاة الإباضية في المغرب؛ إذ إن هذه البعثة تمثل مرحلة الإعداد الفكرى للأشخاص الذين سيقومون بالتطبيق العملى لمبادئ الفكر الإباضى في بلاد المغرب. ومن ثم كان حرص مسلمة بن سعيد على أن تُعد هذه البعثة إعداداً خاصاً على يد أئمة المذهب في البصرة.

واختار سلمة بن سعيد لهذه المهمة أربعة من تلاميذه المخلصين هم: عبد الرحمن ابن رستم وعاصم السدراتى وإسماعيل بن ضرار الغدامسى وأبو داود القبلى النفزاوى^(٢)، وراعى سلمة في هذا الاختيار أن يكونوا من أماكن متفرقة حتى يتيحوا للدعوة الإباضية فرصة الانتشار في أكبر مساحة ممكنة من بلاد المغرب بعد عودتهم^(٣)، فعبد الرحمن بن رستم كان من القيروان، وعاصم السدراتى من سدراتة من غرب الأوراس والمغرب الأوسط، وأبو داود القبلى النفزاوى كان ينتمى إلى

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٥٣٥.

(٢) الشماخى: السير ٩٨ و ١٢٤.

(٣) على بن يحيى معمر: الإباضية في موكب التاريخ ٢٦.

نفزاوة في جنوب إفريقية، أما إسماعيل بن ضرار الغدامسى فهو من غدامس في جنوب طرابلس^(١). وعندما وصلت هذه البعثة إلى البصرة انضم إليها أحد دعاة الإباضية العاملين في اليمن وحضرموت وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع^(٢). ويبدو أن حملة العلم وصلوا إلى البصرة في ظروف سياسية اقتضت من الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أن يلقيهم العلم في سرب على فمه سلسلة فإذا أقبل أحد حُركت فيسكنون وإذا انصرف حُركت فيأخذون في القراءة^(٣). عكفت هذه الجماعة مدة امتدت إلى خمس سنين^(٤)، درست خلالها المذهب الإباضى كما درس أفرادها أحوال المغرب السياسية وأنسب الأوضاع لإقامة دولة إباضية، وانتهت هذه الدراسة بترشيح أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافى رئيساً لهذه الدولة المنتظرة، يقول الدرجيني «فقالوا: يا شيخنا أرايت لو كانت لنا في المغرب قوة ووجدنا في أنفسنا طاقة فنولى علينا رجلاً منا؟ فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا إلى بلادكم فإن يكن من أهل دعوتكم من العدد والعدد ما يجب معه التولية عليكم فولوا على أنفسكم رجلاً منكم فإن أبا فاقتلوه، وأشار إلى أبي الخطاب»^(٥).

وأصبح حملة العلم بعد عودتهم إلى بلاد المغرب من البصرة يمثلون طلائع الرابطة الجديدة التي غدت تربط بين المغرب العربى والمشرق العربى، ورمزاً للتجاوب بين التيارات الفكرية السائدة بينهما^(٦).

ظهور عبد الرحمن بن رستم على مسرح الأحداث

عاد عبد الرحمن بن رستم مع زملائه حملة العلم من البصرة وأصبح أقوى مساعدى أبي الخطاب، فقد ولّاه منصب القضاء في طرابلس^(٧). وبعد استيلاء أبي

(١) محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ١٨٨/٣.

(٢) الشماخى: المصدر السابق ١٢٤.

(٣) محمد على ذبوز: المرجع السابق ١٩٥/٣.

(٤) الشماخى: السير ١٤٢.

(٥) أبوزكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٦٦.

(٦) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٦٦.

(٧) البارونى: الأزهار الرياضية ٤/٢.

الخطاب على القيروان سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م أسند إلى عبد الرحمن بن رستم إدارة شئونها^(١) بالإضافة إلى قسم من بلاد المغرب الأوسط كان سكانه من الإباضية، يمتد من جزائر بنى مزغنه إلى وهران^(٢).

ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كثب، وأن يغذى المذهب الإباضى بالكثير من الأنصار والأتباع؛ إذ رأى فى المغرب الأوسط امتداداً يحمى الدولة الناشئة فى طرابلس، ويؤكد نظرة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وبين قبيلة لماية البثرية التى كانت تسكن ذلك الإقليم^(٣). ولكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلاً فى القيروان؛ ذلك أن الخليفة العباسى المنصور أرسل قائده محمد بن الأشعث لضرب الإباضية فى المغرب وعلى رأسهم أبو الخطاب، وقد تمكن هذا القائد العباسى من القضاء على أبى الخطاب سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م ودخل القيروان، ورأى هذا القائد العباسى فى عبد الرحمن بن رستم أكبر الخطر على وجود العباسيين فى بلاد المغرب، وكان عبد الرحمن بن رستم قد خرج فى جيش عظيم لدعم قوات أبى الخطاب التى زحفت لمقاومة جند ابن الأشعث، وما أن وصل هذا الجيش إلى قابس حتى بلغته أنباء بمقتل أبى الخطاب وهزيمته^(٤)، فعاد مسرعاً إلى القيروان، فوجد أن الأمور قد ازدادت سوءاً فيها وأخذ أهل القيروان عامله عليه فأوثقوه فى الحديد، وولّوا على أنفسهم عمر بن عثمان القرشى^(٥)، وهكذا تبددت آمال عبد الرحمن بن رستم، ولم يكن أمامه إلا أن يفرو بنفسه وأهله إلى المغرب الأوسط.

(١) البكرى: المغرب من ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ابن عذارى البيان المغرب ١/ ٧١، ياقوت الحموى: معجم البلدان ١/ ٨١٥. ويذكر اليعقوبى فى كتابه البلدان أن عبد الرحمن بن رستم كان يتولى أمر إفريقية كلها وليست القيروان وحدها.

(٢) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٦٦، د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٣٧.

(٣) ابن خلدون: العبر ٤/ ٢٤٧.

(٤) الشماخى: السير ١٣٢.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٧٢.

التجاء عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط

وجد عبد الرحمن بن رستم أن من الأسلم له ولأتباعه النجاة إلى المغرب الأوسط؛
فهناك يستطيع بفضل أنصاره وأتباعه أن يقيم دولة على المذهب الإباضي على
غرار دولة أبي الخطاب في طرابلس، فخرج مستخفياً قاصداً المغرب الأوسط^(١)،
وقد أحاط كتاب الإباضية فرار عبد الرحمن بن رستم بهالة قصصية فيها شيء من
البطولة وقوة الإرادة، فقد وقع عبد الرحمن بن رستم قبل فراره من القيروان في يد
عبد الرحمن بن حبيب ولكنه أطلقه بعد أن تشفع له أحد القيروانيين من ذوى المكانة
عند عبد الرحمن بن حبيب^(٢)، ويبرر الشماخي سوء العلاقة بين عبد الرحمن بن
رستم وعبد الرحمن بن حبيب بأن: ابن رستم حين أراد المسلمون تولية عبد الرحمن
ابن حبيب لبعض أمورهم قال ابن حبيب إبليس أو شيطان في صورة إنسان» فحقدتها
عليه ابن حبيب^(٣). وأياً ما كان الأمر فقد أفلت عبد الرحمن بن رستم من قبضة عبد
الرحمن بن حبيب وخرج من القيروان جازاً في المسير سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م^(٤). ولم
يكن معه شيء إلا ما خفف من ماله وابنه عبد الوهاب ومملوكه وفرسه^(٥). وما سار هذا
الركب غير قليل حتى ماتت الفرس فدفنوها حتى لا يتبع آثارهم أحد ممن يجذون في
طلبهم، ولما تعب عبد الرحمن من السير وأدركه الأعياء والملل صار ابنه عبد الوهاب
وغلامه يحملانه بالتناوب^(٦) وغداً كل منهما يقول لصاحبه: «إن أدركنا العدو فما دون
الخمسمائة لا تضع الشيخ لجلدهما وشجاعتهما»^(٧).

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٣٩.

(٢) يروي الشماخي ذلك بشيء من التفصيل فيقول: «قَدِمَ ابن الأشعث وقام عبد الرحمن بن حبيب يلتمس
عبد الرحمن بن رستم وفر رحمه الله إلى المغرب قال أبو يحيى: ظفر به عبد الرحمن بن حبيب فتشفع
فيه رجل من أهل القيروان فقال له ابن حبيب كل حاجة لك عندي مقضية إلا ابن رستم، فقال: إن لم
أسألك ابن رستم فمن ذا أسألك؟ فأطلقه له، وعبد الرحمن بن حبيب هذا حفيد عبد الرحمن بن حبيب.
انظر الشماخي: السير ١٣٣، د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٣٠.

(٣) الشماخي: السير ١٣٣.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٥) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ١٥.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ٥٤٠.

(٧) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٥٤٠.

وقد سلك عبد الرحمن بن رستم في سيره الطريق الجنوبية المارة بقسطيلية^(١) إذ واصل عبد الرحمن بن رستم طريقة من جنوب نقطة محترفاً شمال وادي سوف متجهاً إلى الغرب على شمال تيفورت ومدينتي القراره وبيرريان من وادي ميزاب إلى مدينة الأغواط، ومن غرب هذه المدينة اخترق جبال بني راشد فذهب شمالاً على شرق مدينة «آفلو» وغرب وادي شنف حتى انتهى به الطريق إلى وادي «سوفجج» وعين سوفجج التي تنبع من سفح جبل سوفجج^(٢). ويؤيد هذا ما ذهب إليه الدرجيني من أن عبد الرحمن بن رستم دفن فرسته التي ماتت في خارج جهة قسطيلية، وأن هذا الموضع سُمي قبر الفرس^(٣).

وتعتبر منطقة سوفجج التي لجأ إليها عبد الرحمن بن رستم من أمتع المناطق الجبلية في المغرب الأوسط، فسوفجج هو الجبل الرابع من سلسلة الجبال التي تمتد من مدينة «السوفر» في الجنوب الشرقي منها^(٤)، وحول هذا الجبل كانت مواطن لماية ولواته وهوارة^(٥)، وهي قبائل كانت قوية الصلة بالمذهب الإباضي، بل إن لماية منها كانت على صلة قوية بعبد الرحمن بن رستم، لذا فقد أثر أن ينزل بين أبناء هذه القبيلة، وقد حفظ لنا ابن خلدون نصاً يؤكد هذه الحقيقة المهمة يقول ابن خلدون: «وقُتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان إمارته في القيروان، فاحتمل أهله وولده، ولحق بإباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم ونزل على لماية لتقديم حلف بينه وبينهم»^(٦).

وما أن وصل عبد الرحمن بن رستم إلى سوفجج حتى سمع به وجوه الإباضية وعلماءهم فقصدوه من كل النواحي حتى اجتمع عنده من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء، فسقط ما يزيد على ستين من أكابر العلماء وأهل الفضل والرأي^(٧).

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٤٠.

(٢) محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٢٥٦.

(٣) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ١٦.

(٤) محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٢٥٧.

(٥) محمد علي ذبوز: المرجع السابق ٣ / ٢٥٨.

(٦) ابن خلدون: العبر ٦ / ٢٤٧.

(٧) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٣.

أخذت أخبار عبد الرحمن بن رستم تملأ الآفاق في المغرب الأوسط حتى وصلت إلى مسامع محمد بن الأشعث في القيروان، فجهز جيشاً سار به نحو سوفجج ونزل في سفحه وحفر خندقاً حول معسكره خوفاً من هجوم عبد الرحمن ابن رستم ومن معه عليه، وظل محاصراً للجبل مدة طويلة حاول خلالها اقتحام الجبل بكل الوسائل ولكنه فشل^(١)، واضطر إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان بعد أن تفشى داء الحمى والجدرى بين جنده ومات منهم خلق كثير^(٢)، وانسحب إلى القيروان قائلاً: «إن سوفجج لا يدخله إلا دارع ومدجج»^(٣).

أخذت فلول الإباضية تتجمع وتتكاثر على جبل سوفجج الذي اتخذوه مكاناً يتدربون فيه على القتال، ويستعدون لخوض المعارك التي ستواجههم^(٤)، واستطاع عبد الرحمن بن رستم أن يقف على قدميه أمام الأحداث ويسير بخطى ثابتة في المغرب الأوسط، في الوقت الذي عاد بن الأشعث إلى القيروان محاولاً تثبيت أقدام العباسيين في إفريقية، ولم يكن ذلك بالأمر الهين عليه، فما لبث أن واجهته ثورة الجند الخلافة ولم تنته هذه الثورة إلا بإخراجه من المغرب سنة ١٤٨ هـ^(٥). وخلفه الأغلب بن سالم الذي لم يسلم هو الآخر من ثورات جند الخلافة عليه، فراح ضحية سهم طائش أصيب به حينما كان يُخضع أحد الجند الثائرين وهو الحسن بن حرب الكندي^(٦) سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م^(٧).

التحالف الإباضي الصفري

ولما بلغ أبا جعفر المنصور نبأ قتل الأغلب بن سالم بعث إلى إفريقية عمر بن حفص الذي وصلها سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م، وعُرف عمر هذا بشجاعته الفائقة

(١) الشماخي: السير ١٣٣.

(٢) الشماخي: المرجع السابق.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٣ / ٢.

(٤) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٨.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ٧٣ / ١.

(٦) ابن عذارى: المصدر السابق ٧٣ / ١.

(٧) ابن الأبار: الحلة السراء ٦٩ / ١، ابن عذارى: البيان المغرب ٧٥ / ١، ابن الأثير: الكامل ٥٨٧ / ٥.

فى مبادىء الحرب والقتال حتى أنه لُقّب بهزارمرد وهى كلمة فارسية معناها ألف رجل^(١). وهدأت الأحوال فى عهده واستقامت الأمور. طيلة ثلاث سنوات^(٢)، وقد أغرى ذلك السكون أبا جعفر فتطلع إلى بسط سلطان الخلافة على المغرب الأوسط فأمر عمر بن حفص بالتوجه إلى طبة قاعدة إقليم الزاب لتحسينها وبناء سورها^(٣). وقد أشار النويرى وابن أبى دينار إلى الكتاب الذى أرسله أبو جعفر إلى عمر بن حفص فى هذا الشأن^(٤) وتعتبر قاعدة طبة المفتاح الذى يجب الاحتفاظ به للتحكم فى المغرب الأوسط، فضلاً عن أنها السبيل لاسترداد القيروان نفسها إذا ما سقطت فى أيدي الأعداء^(٥). وأحسن عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الإباضية بخطورة العمل الذى أقدم عليه عمر بن حفص «فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وجنوب إفريقية وتلمسان على الانتفاض ومحاربة العباسيين»^(٦). ويدل ذلك على أن الأمور كانت تسير بتنسيق تام بين جماعات الخوارج فى بلاد المغرب على اختلاف مذاهبها ومواطنها. استخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب المهلبى^(٧)، وخرج هو إلى طبة لتنفيذ المهمة التى كُلف بها، حينئذ ثار البربر بإفريقية وزحفوا نحو القيروان، فخرج إليهم حبيب بن حبيب المهلبى فقتلوه^(٨)، وفى الوقت نفسه اجتمع البربر الإباضية فى طرابلس وولوا عليهم أباحتهم يعقوب بن حبيب الإباضى^(٩) الذى ألحق الهزيمة بالجند بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس. ولم يكتف أبو حاتم بذلك، بل تقدم وحاصرت قواته القيروان، واشترك أيضاً فى حصار عمر بن حفص المقيم بطبة^(١٠). واشتعلت نيران الفتنة بإفريقية

(١) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤١٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٥ / ٥٩٨.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٣٥١.

(٤) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٢، ق ١، ورقة ٢٠ - ٢١.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ١٧٨.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير ٣٥١.

(٧) ابن الأثير: الكامل ٥ / ٤٩٨.

(٨) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤١٢، ابن الأثير: الكامل ٥ / ٥٩٨.

(٩) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤١٢.

(١٠) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٢، ق، ورقة ٢١.

وجاءتها جيوش الإباضية والصفورية من كل فج، ويُجمع معظم المؤرخين على أن هذه الجيوش بلغت اثني عشر عسكرياً^(١) «ورؤساؤهم: أبو قرّة الصفري في أربعين ألفاً، وعبد الرحمن بن رستم الإباضي في خمسة عشر ألفاً، وأبو حاتم في عدد كثير وعاصم السدراتي في عدد كثير قليل في ستة آلاف، والزناطي في عشرة آلاف، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري في ألفين، سوى جماعات آخر»^(٢).

اتجهت هذه الجيوش كلها نحو الزاب لتحاصر عمر بن حفص الذي كان في خمسة عشر ألف وخمسمائة، وانجلى الموقف عن نتائج خطيرة، فالقيروان تحاصرها القوات الإباضية وعمر بن حفص تحاصره قوات التحالف الإباضي الصفري، وإزاء هذا جمع عمر بن حفص قواده واستشارهم فيما يفعلونه فأشاروا عليه بالبقاء في طنجة وقالوا: «أخرج منا من أردت إلى عدوك ولا تخرج أنت، فإنك إن أصبت تلف المغرب وفسد»^(٣). ولم يكن أمام عمر بن حفص إلا أن يعمل الحيلة لتفريق هذه المجموع فأرسل إلى أبي قرّة رسوياً يغريه برشوة من المال تقدر بستين ألف درهم ليرجع عن حصار طنجة، ولكن أباقرّة رفض ذلك بشدة قائلاً «بعد أن سلم على الخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا»^(٤).

فانصرف رسول عمر بن حفص إلى أخى أبي قرّة، ونجح في مهمته وقدم إليه أربعة آلاف درهم وثياباً ليعمل في صرف أخيه عن حصار طنجة فأجابهم وارتحل في الليلة نفسها عن طنجة وتبعه العسكر منصرفين إلى بلادهم، فلم يجد أبو قرّة بداً عن اتباعهم وانسحب مضطراً من أرض الحصار^(٥). وبعد نجاح هذه الحيلة لم يعد أمام عمر بن حفص إلا أن يحطم قوة الإباضية الذين كانوا يحتفظون بقواتهم الرئيسة عند نهودة بقيادة عبد الرحمن بن رستم الذي يظهر من الروايات التي ذكرها المؤرخون^(٦) أن عبد الرحمن بن رستم فوجئ بقوات عمر بن حفص تهاجمه بقيادة معمر بن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧٤، ابن الأثير: الكامل ٥ / ٥٩

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧٥ - ٧٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٥ / ٥٩٩.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ٧٦، ابن الأثير: الكامل ٥ / ٥٩٩.

(٦) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب ١٤٣.

عيسى العبدى، ورغم صغر حجم هذه القوات المهاجمة التى ذكر الرقيق القيروانى أنها كانت ألفاً وخمسمائة جندي، بينما كان عبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفاً، فقد استطاعت هذه القوة الصغيرة إلحاق الهزيمة بجيش عبد الرحمن بن رستم الكثيف، وهذا ما يؤكد تحقق عنصر المفاجأة التامة، الأمر الذى جعل خسائر ابن رستم كثيرة جداً، إذ قُدِّرَها ابن عذارى بثلاثة آلاف جندي^(١). تراجع عبد الرحمن بن رستم منهزماً إلى إقليم تاهرت^(٢)، وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول بارزة فى تاريخ قيام الدولة الرستمية، فقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن ينسلخ عن قوى الصفيرية المتضاربة التى لا تجمعها أهداف واحدة، وفُضِّل أن يعمل بمفرده معتمداً على نفسه وعلى التجمعات الإباضية التى تقف حوله فى المغرب الأوسط، وهكذا حمل الإباضية بقيادة عبد الرحمن بن رستم أعباء الصراع فى المغرب الأوسط بعد أن تراجعت قوى الصفيرية.. تلك القوى التى وجدت نفسها فى مأمن هناك فى المغرب الأقصى.

مبايعة عبد الرحمن بن رستم الإمامة

كان عبد الرحمن بن رستم يحمل شخصية الداعية القوى التى تستطيع أن تستقطب حولها المؤيدين بسرعة، وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئاً عن عبد الرحمن ابن رستم فى الفترة ما بين انهزامه أمام قوات عمر بن حفص وبين مبايعته بالإمامة سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م^(٣)، فالذى يظهر أن عبد الرحمن قضى هذه الفترة فى تنظيم وتدعيم صفوف الإباضية، وفى الوقت نفسه قام بدعاية واسعة شملت المغرب الأوسط كله. وقد كان للوضع الجغرافى للمنطقة التى تركز فيها عبد الرحمن بن رستم أثره فى نماء قوته، ونجاح الدعاية الواسعة التى قام بها لنشر تعاليم المذهب الإباضى؛ إذ ساعد على نجاح دعوة ابن رستم أن المنطقة التى نزلها تعتبر امتداداً لبلاد الزاب، وأن كثيراً من قبائلها من لواته وهوارة وزواغة ومطماطة، أصلها من أقاليم المغرب الشرقية فى طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد - مهد الدعوة الإباضية - ولقد سهَّل هذا

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٧٦.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٤.

(٣) الشماخى: السير ١٣٩.

الأمر مسير كثير من إباحية تلك الأقاليم إلى ابن رستم حيث أقاموا بين بني جلدتهم في المغرب الأوسط^(١). نجحت هذه الدعاية التي قام بها عبد الرحمن بن رستم على نحو جاوز كل تقدير، إذ كانت الركيزة المهمة التي اعتمد عليها في دعايته هي تحقيق المساواة الكاملة والتسامح الديني، وقد جعل ذلك الكثير من سكان المغرب الأوسط يلتفون حول عبد الرحمن بن رستم ويرحبون بدعوته^(٢). وكان من بين هؤلاء من يعتنقون مذاهب أخرى، فقد انضم إليه كثير من الخوارج الصفرية، وجماعات تسمى بالواصلية الذين اعتبرهم البكري من الإباحية^(٣)، فقد كان للواصلية مجمع قريب من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفاً^(٤)، ورغم أن الواصلية فرقة من فرق المعتزلة فالظاهر «أن الفرقتين تحالفتا نتيجة أخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبي الكبائر «موقف المنزلة بين المنزلتين»، وأنه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الإباحية^(٥).

ومما دعم موقف ابن رستم أيضاً أن الإباحية في شرق المغرب الأوسط لم يضعوا السلاح ومازالوا يناضلون في حلبة الجهاد، يدافعون عن مبادئهم في صبر وبلاء. وقد أدرك عبد الرحمن بن رستم أهمية استمرار النضال في شرق المغرب الأوسط؛ إذ إن ذلك يصرف الأنظار عن جهوده التي يقوم بها لإقامة دولة إباحية، وكذلك أدركت هذه التجمعات الإباحية في شرق المغرب الأوسط بقيادة أبي حاتم الإباحي إمام الدفاع^(٦)، هذه الحقيقة المهمة فأخذت ترسل المساعدات المالية لعبد الرحمن بن رستم. فكان أبو حاتم هذا يرسل ما زاد على ما يحتاج إليه مما جمع من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم قبل أن يتولى الأمور وولاية الظهور^(٧). ويبدو أن الأمور ظلت تسير على هذا النحو إلى أن اتسع سلطان عبد الرحمن بن رستم على نحو دفع الجميع إلى التفكير في مبايعته وإعلان قيام الدولة الجديدة.

(١) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٧٥.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٩١ - ١٩٢.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٧٩.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٧٩.

(٦) البرادي: الجواهر المنتقاة ورقة ١٦.

(٧) الشماخي: السير ١٣٨.

وفى موضع تاهرت القديمة^(١)، انعقد مجلس ضم رؤساء الإباضية وقالوا فى حوار دار بينهم «قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا الإمام نرجع إليه فى أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدى إليه زكاتنا ويقسم فيثنا» فقلّبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة، فقال بعضهم: أنتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته، ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف ويقل الائتلاف^(٢).

من هذا الحوار تنضح الظروف التى بويع فيها عبد الرحمن بن رستم؛ إذ كان رؤساء الإباضية يتطلعون إلى شخصية فريدة بين البربر لا قبيلة تحمىها إذا ما ظهر عدم صلاحيتها للحكم فيصبح من السهل عليهم تنحيها^(٣). وكان عبد الرحمن بن رستم هو تلك الشخصية التى يتطلعون إليها فقالوا: هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه، وقد كان الإمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن قاضياً وناظراً فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذى أردتم وإن سار فيكم بغير العدل عزلتموه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه^(٤).

وللشماخي رواية تحدد المبادئ الأساسية التى روعيت فى اختيار عبد الرحمن ابن رستم يقول فيها: فاتفق رأيهم «رؤساء الإباضية» على عبد الرحمن لفضله وكونه من حملة العلم، ولكونه عامل أبى الخطاب على إفريقية وما والاها؛ ولأنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل^(٥).

اتجهت أنظار الجميع إلى عبد الرحمن بن رستم لهذه الأسباب مجتمعة فنهضوا

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٩.

يقول ابن الصغير: «لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم». والذى يفهم من عبارة ابن الصغير أن تاهرت هى القديمة وأن التى استحدثها عبد الرحمن بن رستم لم تكن قد أنشئت بعد. ابن خلدون: العبر ٦ / ٢٤٧.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٩.

(٣) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٨، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٩.

(٥) الشماخي: السير ١٤٠.

إليه بأجمعهم وقالوا: «يا عبد الرحمن رضيك الإمام في ابتدائنا، ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا، فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه في أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا. فقال لهم: إن أعطيتُموني عهد الله وميثاقه لتستطيوا إليّ ولتطيعوني فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم. فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم^(١).

وهكذا تمت مراسم البيعة وأعلن قيام الدولة الإباضية الجديدة، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إماماً لها. ويسجل الدرجيني والشماعى سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م تاريخاً لهذه البيعة ثم يعودان مرة أخرى فيذكران أنها كانت سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م^(٢)، ولكن التاريخ الأول هو الأرجح؛ لأن ابن عذارى يجعل تأسيس تاهرت في سنة ١٦١ هـ / ٧٧٧ م^(٣)، والمعروف من المؤرخين أن بناء تاهرت كان بعد تقديم عبد الرحمن ومبايعته بالإمامة كما يذكر البكري^(٤)، وابن الصغير^(٥).

بناء تاهرت

رأى عبد الرحمن بن رستم بعد أن بويع بالإمامة أن يتخذ لنفسه عاصمة يباشر منها مهام الحكم، وكان عليه أن يوفر لهذه العاصمة كل عناصر الأمن والرخاء، لذا فقد استعان بأهل العلم والخبرة بالأرض وانضمَّ إليهم أيضاً في هذه المهمة رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين^(٦). وطافوا بجميع أنحاء البلاد يبحثون عن مكان يصلح لبناء العاصمة حتى استحسنوا موضع تاهرت، وهو على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة^(٧)، وجاء اختيار موقع تاهرت وليد الظروف التي واجهت الدولة الرستمية في

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٩ - ١٠.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ١٨.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٦، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٤) البكري: المصدر السابق ٦٨.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٩، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ١٨.

(٦) الشماعى: السير ١٣٩، البارونى: الأزهار الرياضية ٦ / ٢، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٧) Gautier, E.P., Le Posse de L'Afrique du Nord, pp. 3-6.

مطلع تأسيسها، فكان لموقعها مميزات ذات كفاءة عالية جعلتها تنهض بمسئولياتها على أمثل وجه وتتضح مميزات تاهرت في:

أولاً: هي بعيدة عن خطر العباسيين؛ حيث تقع في منطقة داخلية منطوية على نفسها في السفح الجنوبي لجبل كزول؛ لذا فهي تدير ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل، وهذا يمثل موقعاً استراتيجياً لحماية دولة ناشئة يحيط بها الأعداء من كل جانب^(١).

ثانياً: تقع تاهرت في منطقة محاطة بقبائل أكثر أفرادها مشهورون بانتمائهم القوى للمذهب الإباضي، وقد حدد البكري على نحو دقيق هذه القبائل فقال ويقابلها «أي تاهرت» لواطه وهوارة في قرارات، وبغربيها زواغة، وبجوبيها مطماطة وزناتة ومكناسة^(٢)، يضاف إلى ذلك أن موقع تاهرت يعتبر امتداداً لبلاد الزاب، وهذا يتيح لعبد الرحمن بن رستم سرعة الاتصال بالجماعات الإباضية في أقاليم المغرب الشرقية في طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد، مما يساعد على اتساع رقعة الدولة دون وجود عوائق طبيعية تمنع ذلك الاتساع^(٣).

ثالثاً: وإلى جانب الموقع الاستراتيجي، فتاهرت تقع في منطقة غنية اقتصادياً فهي تشتهر بمراعيها الواسعة، وثرواتها الزراعية المتنوعة، ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياه وتنوعها في المنطقة^(٤)، فتجري فيها أنهار عظيمة كنهر مينة ونهر نانس^(٥)، وكان لذلك أثره في دعم اقتصاديات الدولة، وجعل من تاهرت عاصمة تجارية مهمة بين مدن المغرب الكبرى. وقد تحدث ابن حوقل عن الغنى الاقتصادي الذي تتمتع به منطقة تاهرت فقال: «وهي أحد معاون الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات^(٦)». وذكر

(١) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ١٧٨ تحقيق: د. سعد زغلول عبد الحميد - الإسكندرية ١٩٦٨ م.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ٨.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٧٥.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٧٧.

(٥) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ١٧٨، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ٨٦.

الاصطخري أيضًا ثراء تاهرت فقال: «وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه»^(١).

رابعًا: تقع تاهرت في مكان يتوسط التل والصحراء^(٢)، وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربًا إلى المغرب الأقصى وجنوبًا إلى قلب إفريقيا عبر الصحراء الكبرى. ثم هي تشرف من موقعها هذا أيضًا على الطريق المار من منطقة التلول إلى أسفل وادي شلف المؤدى إلى البحر^(٣). وأصبحت تاهرت بذلك نموذجًا للحياة التجارية القوية في بلاد المغرب.

وكشف عبد الرحمن بن رستم باختياره موقع تاهرت عن المهارة الفائقة التي تحلى بها الإباضية في اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن، وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصاديًا وحربيًا وسياسيًا^(٤). ويروى البكري أن موضع تاهرت كان يمتلكه قوم مستضعفون من قبيلتي مراسة وصنهاجة، وقد راودهم عبد الرحمن بن رستم على بيع المكان لبناء تاهرت عليه، فرفضوا ذلك الأمر ولكنهم قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على شريطة أن يؤدي إليهم خراج أسباقًا^(٥)، وعلى الفور شرح عبد الرحمن ابن رستم في بناء المدينة واختار من أرض المنطقة موضعًا مربعًا لا شعراء فيه ولذلك قالت البربر نزل «تأقدمت» وتفسيره الدف - شبهوه بالدف لتربية^(٦).

وأضفى كتاب الإباضية على بناء تاهرت لونًا قصصيًا مثيرًا، فهم يروون لبنائها قصة عجيبة أشبه بقصة عقبة وبنائه للقيروان، فبعد أن اتفق الجميع على موضع تاهرت أمروا مناديًا: فنادى بأعلى صوته من بها من الوحش أن أخرجوا وارتحلوا فأتوا مريدون عمارتها ونازلين بها وأجلوا ثلاثة أيام. قال أبو زكرياء إنهم رأوها وحشًا تحمل أولادها في أفواهها يعني سباعًا والله أعلم وهي خارجة من تلك الأشجار

(١) الاصطخري: المسالك والممالك ٣٤.

(٢) محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٢٦٥.

(٣) إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٩٢.

(٥) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، الشماخي: السير ١٤٦، الباروني: الأزهار الرباضية ٦ / ٦.

(٦) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

والخياط طيل فرغهم ذلك فيها وزادهم بصيرة في عمارتها، فلما تم الأجل أرسلوا فيها نارا فأحرقت ما ظهر من الأشجار^(١). ويبدو أن الأمر لم يكن يعدو أكثر من عملية تطهير للمنطقة من الأشجار بحرقها لإزالتها بسرعة، وقد دفع ذلك الحيوان إلى أن تهرع من المنطقة خوفاً من الحريق فتطرق خيال الكتاب إلى نسج هذه القصص لإحاطة المدينة بهالة من الكرامة والتبريك.

ولم يسلم البكري من رواية مثل هذه القصص، فعبد الرحمن بن رستم والإباضية عندما نزلوا تاهرت أدركتهم صلاة الجمعة «فصلى بهم هنالك فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على أسد فأخذ حياً وأتى به إلى الموضع الذي صلوا فيه وقتل هنالك، فقال عبد الرحمن بن رستم هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبداً»^(٢)، وفي موضع آخر يروي البكري أنهم «لما أرادوا بناء تاهرت كانوا يبنون النهار، فإذا جنَّ الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حيث تاهرت السفلى وهي الحديثة»^(٣).

أما تخطيط تاهرت فقد جرى على النحو الذي أتبع في بناء المدن الإسلامية الكبرى؛ بحيث تساعد على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم^(٤). فاخترت الإباضية المسجد الجامع من أربع بلاطات واستعانوا في بنائه بأخشاب شجر الشعراء المنتشر في المنطقة^(٥)، وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والأسواق والحمامات والفنادق، وتفنن أهل تاهرت تدريجياً في عمارتها وتنظيمها^(٦)، وأحاطوا المدينة بعد ذلك بسور محكم شيد من الصخر^(٧).

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بناء تاهرت، فابن خلدون يجعل تأسيسها سنة

(١) الشماخي: السير ١٣٩.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٩/٢.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٩٣.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٩/٢ ويوضح لنا الشماخي أن اختيار المسجد الجامع تم بطريق القرعة بين أربعة أماكن استقر الرأي على أحدها. انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ١٨، الشماخي: السير ١٣٩.

(٦) البكري: المصدر السابق ٦٧.

(٧) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ١٩٣.

١٤٤هـ / ٧٦١م أى فى السنة نفسها التى قرّ فيها عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى المغرب الأوسط، يقول ابن خلدون: فأسسها «أى تاهرت» عبد الرحمن بن رستم واختطّها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن^(١). أما ابن عذارى فقد روى ابن القطان أن بناء تاهرت الحديثة كان بعد سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م^(٢)، ثم عاد ابن عذارى فى موضع آخر إلى تحديد تاريخ بنائها بشىء من الدقة فقال: قرّ عبد الرحمن إلى المغرب بما خفف من أهله وماله، فاجتمعت إليه الإباضية وعزموا على ببيان مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تاهرت وهى غيضة بين ثلاثة أنهار، فبنوا مسجداً من أربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم وذلك سنة ١٦١هـ^(٣). وبمناقشة هذه التواريخ المختلفة نجد أن سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م التى حددها ابن خلدون لا تنسجم مع واقع الأحداث، فالمعروف أن عبد الرحمن بن رستم قرّ إلى المغرب الأوسط فى صفر سنة ١٤٤هـ^(٤)، وفى خلال هذه السنة وقع تحت حصار^(٥) محمد بن الأشعث مدة طويلة فى جبل سوفجج^(٦) ورغم أن مدة الحصار غير معروفة فإن المتبقى من السنة لا يكفى لتجميع قوى الإباضية بحيث تفكر فى بناء عاصمة تجمعهم. أما رواية ابن عذارى التى نقلها عن ابن القطان والتى قالت إن أحداث تاهرت كان بعد سنة ١٤٠هـ، ففي هذه السنة حتى سنة ١٤٤هـ كان عبد الرحمن بن رستم قاضياً فى طرابلس، وعاملاً لأبى الخطّاب على القيروان^(٧). تبقى بعد ذلك رواية ابن عذارى الثانية وهى أن بناء تاهرت كان فى سنة ١٦١هـ / ٧٧٧م وهى الرواية الأرجح؛ لأنها تتفق مع سير الأحداث.

أولاً: لأن أقدم نص عن بناء تاهرت وهو عند البكرى يؤكد أن بناء تاهرت كان فى

(١) مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار ١٧٨ - تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، البارونى: الأزهار الرياضية ٨/٢.

(٢) ابن خلدون: العبر ٦ / ٢٤٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٢٥.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٦.

(٥) البكرى: المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب ٦٨.

(٦) الشماخى: السير ١٣٣، البارونى: الأزهار الرياضية ٣ / ٢.

(٧) اليعقوبى: البلدان ٣٥٣، البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨، ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٧١.

أعقاب مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة. يقول البكري: «إنه بعد اتفاق الجماعة الإباضية على إمامة عبد الرحمن بن رستم وبنيان مدينة تجمعهم نزلوا موضع تاهرت وهو غيضة على خمسة أميال غربى المدينة أى تاهرت القديمة؛ واختار ابن رستم موضعا لا شعراء فيه»^(١). وإذا كانت مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة قد تمت قبل بناء تاهرت تبعا لرواية البكري، وعلى وجه التحديد فى سنة ١٦٠ هـ؛ وفقا لرواية الشماخى^(٢)، فرواية ابن عذارى الثانية التى تقول بأن بناء تاهرت كان فى سنة ١٦١ هـ هى أرجح هذه الروايات.

ثانياً: أن عبد الرحمن بن رستم لم يكن ليربط مصيره ومصير أتباعه بالمغرب الأوسط إلا بعد أن يستنفذ كل محاولاته فى العودة إلى إفريقية، وبعد أن يكون قد نظم دعاية واسعة النطاق لنشر تعاليم المذهب الإباضى بين قبائل المنطقة، وهذا أمر طبيعى تطلب تنفيذه أكثر من خمسة عشر عاماً^(٣). وقد يكون عبد الرحمن بن رستم قد ارتاد موضع تاهرت قبل تأسيسها أو أنه اتخذ من موضعها هذا معسكراً للجماعة الإباضية، وهذا ما أدى إلى اختلاف الروايات حول تاريخ تأسيسها، وعند البكري إشارة تدل على أن صفة المعسكر هذه ظلت لاصقة بالمدينة فترة طويلة من الزمان^(٤)، يقول البكري «وسمى الموضع «أى تاهرت» معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم»^(٥).

مساعدة إباضية المشرق للدولة الجديدة

انتشرت أنباء الدولة الجديدة وأخبار العدل الذى سادها بفضل إمامها عبد الرحمن بن رستم الذى أحسن السيرة فى الناس وجلس فى مسجده كما يقول ابن الصغير «للأرملة والضعيف لا يخاف فى الله لومة لائم»^(٦) حتى صارت الإباضية تقصد إلى

(١) البكري: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٢) الشماخى: السير ١٣٩، البارونى: مختصر تاريخ الإباضية ٣٢.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى ٣٧٥.

(٤) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ٢٨٢ J ٢٨٣.

(٥) البكري: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٨.

(٦) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٠، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٠.

رحاب هذه الدولة من جنوب الجزيرة العربية والعراق وفارس ومصر حيث يطاردونهم إرهاب العباسيين^(١). أما الذين لم يستطيعوا الرحيل إلى أراضي الدولة الجديدة فقد جمعوا أموالاً كثيرة خرجت من البصرة مركز الدعوة الإباضية في المشرق مع نفر من ثقات الإباضية، وقال لهم إخوانهم من أهل الدعوة في البصرة «قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلاً، وسوف يملك المشرق ويملاؤه عدلاً، فانهضوا إليه بما معكم من هذه الأموال حتى تردوا المدينة التي سكنها فإن كان على ما نُقِل من حسن طريقته وصحة سيرته فادفعوها إليه وإن كان على غير ذلك فانظروا إلى أفعاله وما يتولاه من الأحكام بين رعيته ثم أتونا بذلك كله»^(٢).

وصل وفد البصرة إلى تاهرت ودخلها من بابها المعروف بباب الصفا، وسألوا عن دار الإمام لمقابلته فلما اقتربوا منها وجدوا «عند بابها غلاماً يعجن طيناً ورجلاً على سطح يصلح شقاً في الغلام يناوله ما يصلح به فسلموا على الغلام فرد السلام ثم قالوا: هذه دار الإمام؟ فقال: نعم فقالوا له: استأذن لنا منه وأعلمه أننا رسل إخوانه إليه من البصرة، فرفع الغلام رأسه إلى سيده وقد علم أنه سمع كلامهم فقال: قل للقوم يصبرون قليلاً، ثم أقبل على ما كان عليه من إصلاح عمله حتى انقضى والقوم ينظرون إليه وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا، حتى نزل عن سطحه إلى داره فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ثم ترضاً وضوء الصلاة فأذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلاً جالساً على حصيره فوقه جلد، وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل إخوان إليه فأمر غلامه بإحضار طعامه فأتاه بمائدة عليها قرص سنحت وسمن وشيء من ملح فأمر بتلك القرص فهُشمت وأمر بالسمن فُلَّت به ثم قال: على اسم الله أدنوا وكلوا، ثم أكل معهم بأكلهم»^(٣).

فلما انقضى طعامهم قال: ما مرادكم؟ وما جاءكم؟ فقالوا له: نحب أن تأذن لنا حتى نخلو فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك. فقال: افعلوا فجلسوا نجياً، فقال: بعضهم لبعض: يكفيننا من السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه

(١) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١٠٩، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٠ - ١١.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١١.

وحلية بيته فما نرى إلا أن ندفع إليه المال ولا نشاور أحداً فيه وكان الذى معهم من المال ثلاثة أحمال فأجمع رأيهم على حمل المال إليه ورجعوا إليه ثم أقبلوا عليه فقالوا: «أعزك الله معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها إليك إخوانك لتنفق بها زمانك وتصلح بها شأنك»^(١) وكان الوقت وقت صلاة فذهب الجميع إلى المسجد وبعد انتهاء الصلاة عقد عبد الرحمن بن رستم مجلس الشورى الذى كان يضم رؤساء القبائل لبحث أمر هذه المعونة وأنسب السبل لإنفاقها وتوزيعها، وقرر الجميع أن يقسم هذا المال إلى ثلاثة أقسام: ثلث على الكراع وثلث السلاح، وثلث يوزع على الفقراء والضعفاء، وظل الوفد فى تاهرت حتى قسم المال وتم توزيعه على النحو الذى اتفق عليه^(٢). وقد كان لهذه المعونة المادية أثرها الكبير فى نماء الدولة الرستمية وتقدمها؛ فقد آمنت الدولة على نفسها بما اشترته للقوم من الكراع والسلاح، وقوى الضعيف وانتعش الفقير، وأمن الجميع ممن كان يغزوهم من عدوهم لذلك «شرعوا فى العمارة والبناء وإحياء البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك واتسعوا فى البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصى الأقطار»^(٣). ولم يكتف إباحية البصرة بما قدموه من أموال للدولة الناشئة، فلم تمض ثلاث سنوات على المساعدة الأولى حتى وصلت إلى تاهرت قافلة أخرى تتكون من عشرة أحمال من الأموال^(٤)، ولكن الوفد المشرقى فى هذه المرة بهرته صورة تاهرت؛ إذ خطت خطوات سريعة فى مضمار الحضارة والتقدم، فانتشرت القصور وغُرست البساتين ونُصبت الأرحاء على الأنهار، وظهرت آثار الغنى على أهلها فاتخذوا الفرش والستائر المزخرفة والخيول المسومة، وتنوعت ألبستهم وتعددت اللغات والأزياء^(٥). اجتمع الوفد بعبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى فى المسجد بعد صلاة الظهر، وكان رأى عبد الرحمن بن رستم هذه المرة أن تعاد الأموال لأن الدولة أصبحت قوية وليست فى حاجة إليها، وقال للوفد «ارجعوا بمالكم فأربابه أجوج إليه منا؛ لأننا فى

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستمين فى تاهرت ١١-١٢.

(٢) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٠.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستمين فى تاهرت ١٢-١٣.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ١٣.

(٥) البارونى: الأزهار الرياضية ٢/ ٩٠.

أرض قد استولى عليها العدل وهم في بلد غلب عليهم الجور يدارون به على أنفسهم ومالهم ودينهم»^(١).

وهذا يدل على أن عبد الرحمن بن رستم لم يكتفِ بما تحقق من استغلال أهل المذهب في تاهرت وأعمالها، بل كان يطمح إلى تحرير الجماعة الإباضية في المشرق من الحكم العباسي، وإلى انتشار المذهب الإباضي في كل دولة الخلافة^(٢). وهذا ما يشير إليه كتاب إباضية في قولهم «واعترف كل إباضي بإمامته ووصلوه بكتبهم ووصاياهم»^(٣)، بل إن ابن الصغير يذكر أن إباضية المشرق قد اعتبروا أن إمامة عبد الرحمن بن رستم أصبحت قرصاً عليهم منذ رد الأموال إليهم ليتقوا بها، وفي ذلك يقول: «فعند ذلك رغب القوم في إمامته ورأوا أنها فرض عليهم»^(٤) ويقول الدرجيني «وأقروا الإباضية بإمامته وواصلوه بكتبهم فكانت تاهرت حرّاً وحصناً لجماعة أهل الدعوة وسُميت المعسكر المبارك»^(٥) بل أن عدل عبد الرحمن بن رستم وما ساد دولته من الأمن والرخاء لم يجذب أهل المذهب الإباضي فقط من البلدان الأخرى، وإنما جذب أيضاً التجار وأصحاب رءوس الأموال الذين قصدوا تاهرت وحلّوا بها من مصر وإفريقية وسائر بلاد المغرب الأخرى^(٦).

نجاح عبد الرحمن بن رستم في إدارة دولته

أصبح عبد الرحمن بن رستم ممثلاً لنظام حكم مثالي عملي لا نظري ملتزم بقواعد الدين الإسلامي، فالإباضية سواء في المشرق أو في المغرب لم يجدوا من خلفاء بغداد - رغم تمسكهم بالنسب إلى البيت النبوي - المثل الأعلى للحكم، ونفروا من انغماس هؤلاء الخلفاء في مظاهر الترف الفارسي وتقليد الأبهة والبلاط الفارسي^(٧).

(١) الشماخي: السير ١٤١.

(٢) الشماخي: السير ١٤١، ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين ١٣، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٩٢.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٨٧.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق في تاهرت ١٥.

(٥) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٠.

(٦) محمد بن تاويت: سيرة الرستميين في تاهرت ١٠٩.

(٧) د. إبراهيم أحمد العدوي بلاد الجزائر ١٩٧. Julien op. cit. p. ٣٥ - ٣٦.

وقد شرح ابن الصغير المالكي الذي عاصر الرستميين ملامح هذا الحكم الإسلامي المثالي في الدولة الرستمية على نحو تفصيلي فقال عنه: «لوقضاته أي عبد الرحمن بن رستم مختارة وبيوت أمواله ممتلئة، وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أواني الطعام فيقبضون أعشارهم... من أهل الشاة والبعر، يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يُظلمون ولا يَظلمون. فإذا حضر جميع ذلك صُرف الطعام إلى الفقراء وبيعت الشاة والبعر، فإذا صارت أموالاً دُفع منها إلى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم، ثم نُظر في باقى سائر المال فإذا عرف مبلغه أمر بإحصاء من في البلد وفيما حول البلد، ثم أمر بإحصاء الفقراء والمساكين، فإذا علم عددهم أمر بإحصاء ما في الأهرار من الطعام ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة فاشتري منه أكسية صوفاً وجبائناً صوفاً وفراء وزيتاً ثم دفع في كل أهل بيت بقدر ذلك ويأتى بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه، ثم ينظر إلى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين، وما أشبه ذلك، فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأمره ما يكفيهم في سنتهم، ثم إن فضل فضل صرفه في مصالح المسلمين»^(١). وكما كان عبد الرحمن بن رستم رجل إدارة على هذا النحو المثالي الذي أشاع العدل في دولته فإنه كان رجل سياسة من طراز فريد، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته، بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولاً أن يكسب لها كل دواعي الأمن والاستقرار فاتجه عبد الرحمن بن رستم بنظره نحو سجلماسة عاصمة دولة بني المدرار وأقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين اليسع بن أبي القاسم الذي تولى أمر الصفيرية في سجلماسة سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م^(٢). ويعتبر اليسع هذا المؤسس الحقيقي لدولة بني مدرار بسجلماسة^(٣). فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن رستم مدرار بن اليسع^(٤). وكان لهذا الزواج أثره في تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفي دعم علاقة حسن الجوار بين الدولتين. وقد ذهب عبد الرحمن بن رستم في مجال تأمين دولته إلى أبعد الحدود حيث رغب

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٥ - ١٦.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٥٦.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٨٤.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٩٤، ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٥٧.

فى تقوية فرص السلام مع ألد أعداء دولته وهو الوالى العباسى فى القيروان روح ابن حاتم، فكاتبه عبد الرحمن بن رستم يطلب موادعته، ويبدو أن معاهدة سلام قد عقدت بين الطرفين عام ١٧١هـ / ٧٨٧م^(١) وإن كانت شروطها غير معروفة. وقد أشار ابن خلدون إلى أحداث هذه المودعة بقوله: «ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة ١٧١هـ فى مودعة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب فوادعه»^(٢). وقد كان لهذه الاتفاقية أهميتها؛ إذ حرص روح بن حاتم على تجديدها بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم. ويقول ابن خلدون فى هذا أيضًا: «ورغب يعنى روحًا فى مودعة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبية فوادعه»^(٣). واستطاع عبد الرحمن بن رستم بذلك أن يخلق حالة من الاستقرار السياسى بين دولته الناشئة وسائر القوى السياسية الأخرى فى بلاد المغرب، فكان لذلك أثره فى تدعيم أوتاد الدولة الرستمية فأصبحت دولة قوية هابها جيرانها، وهاجر إليها الكثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس، وقصدها التجار والعلماء والكتاب ورجال الصناعة والفن وأرياب الحرف من كل مكان، فكان لذلك كله أثره فى ازدهار الدولة ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية، لذا فقد نَعِمَ المغرب الأوسط فى عهد عبد الرحمن بن رستم بالهدوء والأمن اللذين لم يعرفعهما من قبل^(٤).

ويبدو أن عبد الرحمن بن رستم فى أواخر أيامه قد أصيب بمرض أحسَّ منه بدنو أجله فاقتدى بالخليفة عمر بن الخطاب فجعل الإمامة شورى بين سبعة من رجال الدولة الرستمية ممن توسم فيهم الصلاح والعلم والتقوى والورع وهم: عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم ومسعود الأندلسى وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرنى وعمران بن مروان الأندلسى وأبو الموفق سعدوسى بن عطية وشكر بن صالح الكتامى ومصعب بن سذمان^(٥)، وأوصى عبد الرحمن بن رستم هؤلاء السبعة بالاجتماع

(١) ابن خلدون: العبر ٦ / ١١٣، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٩٣.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ٦ / ١١٣، البارونى: المصدر السابق ٢ / ٩٣.

(٣) ابن خلدون: العبر ٤ / ١٩٤، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٠١.

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥١.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٠، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٩٩، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٤ ب.

والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم^(١). ثم توفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م^(٢) أما ابن عذارى فيجعل تاريخ وفاته سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م^(٣) وارتضى هذا التاريخ الأخير زامباور في معجمه^(٤). والتاريخ الأول أولى بالصحة؛ لأنه يوافق تاريخ الموقعة بين عبد الرحمن بن رستم وروح بن حاتم الذي ذكر ابن خلدون أنه كان في سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م^(٥) ولأن مبايعة عبد الوهاب تمت في السنة نفسها أيضًا.

(١) د. السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٠.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٠١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٦.

(٤) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ١٠٠.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤ / ١٩٤.

الفصل الثالث تقوية الدولة الرستمية وازدهارها

١ - عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم موطن الدولة الرستمية ١٧١/٢١١هـ -
٧٨٧/٨٢٦م

(أ) مبايعته بالإمامة:

تعتبر الفترة التي أعقبت وفاة عبد الرحمن بن رستم من أخرج الفترات التي مرت بها الدولة الرستمية؛ ولا أدل على ذلك من أن المرشحين السبعة للإمامة لم يتتبعوا في فترة وجيزة من عملهم الذي كلفهم به الإمام الراحل عبد الرحمن بن رستم وهو اختيار واحد منهم للإمامة؛ فقد استمرت اجتماعاتهم شهرًا كاملاً دون أن يتخذوا قرارًا في هذا الشأن^(١). وطالت اجتماعات القوم وكان كل منهم يُظهر عزوفه عن منصب الإمامة كما يقول الشماخي، حتى أجمعوا رأيهم على اختيار أحد اثنين: مسعود الأندلسي أو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثم مال أكثر المرشحين للإمامة والعامّة معهم إلى تولية مسعود الأندلسي^(٢)، ويبدو أن الذي دفعهم إلى ذلك أحد أمرين:

أحدهما: أن مبدأ الإباضية كان يقضي الالتزام بالشورى دون الوراثة. والآخر: أن مسعود الأندلسي كان أعلم من عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم^(٣).

غير أن مسعود الأندلسي اختفى عن الأنظار يوم البيعة؛ زهدًا منه في تولي هذا.

(١) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٤ ب، الشماخي: السير ١٤٥.

(٢) الشماخي: المصدر السابق ١٤٥.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥١.

المنصب الخطير، وقد زاد ذلك من فرصة تولي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم للإمامة. لأنه كان الشخصية الثانية بعد مسعود الأندلسي في نظر الجميع. يضاف إلى ذلك أنه كان يتمتع بأنصار أقوياء يدعمون موقفه في هذه المعركة الانتخابية، فقد انحازت قبيلة زناتة إلى عبد الوهاب؛ لأنه أمه كانت من يفرن وهي فرع من زناتة^(١) كما انحازت إليه أيضًا جماعات الفرس الذين كانوا يكونون جالية قوية لا بأس بها في دولة الرستميين^(٢). ولما يئس الجميع من البحث عن مسعود ابتدروا عبد الوهاب لمبايعته بالإمامة، وما أن سمع مسعود بذلك حتى ظهر إلى مجتمع الناس ليكون في مقدمة المبايعين لعبد الوهاب. ولكن جدلاً خفيفاً حدث في أثناء البيعة، فقد قام أبو قدامة يزيد بن فندين خطيباً فقال: «إننا نقدم إليك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد وهو ألا تقطع أمراً دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه»^(٣)، وكان يزيد يطمع من وراء ذلك أن يكون أحد أفراد هذه الجماعة بعد أن فشل في الحصول على منصب الإمامة ومعارض مسعود الأندلسي بالرد عليه قائلاً: «ما سمعنا بهذا، وما علمنا أن في الإمامة شرطاً غير أن يحكم الإمام بكتاب الله وسنة رسوله وأثار الصالحين قبله»^(٤)، وكان الجميع يؤيدون رأي مسعود ويقفون ضد يزيد بن فندين وجماعته التي أيدت رأيه، وفي ذلك يقول الشماخي: «فسكت يزيد عن ذكر الشرط حين رد عليهم المسلمون»^(٥).

وكان مسعود الأندلسي أول من بايع عبد الوهاب وتتابع من ورائه الحاضرون، ثم بايعه المسلمون بعد ذلك بيعة عامة حملوه بعدها إلى دار الإمامة في موكب حافل امتلأت به طرقات تاهرت، وهكذا تمت البيعة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بموافقة الجميع، حتى هؤلاء الذين أرادوا وضع شرط للإمامة^(٦).

(١) الشماخي: السيرة ١٤٥، محمد بن تاووت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٣ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد.

(٢) محمد بن تاووت: الصحيفة السابقة ١١٣.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٠، الشماخي: السيرة ١٤٥.

(٤) الشماخي: السيرة ١٤٥.

(٥) أبو زكريا: السيرة أخبار الأئمة ورقة ١٤ ب.

(٦) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ١٠٠.

(ب) شخصية الإمام الجديد:

تولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم منصب الإمامة سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م وكان آنذاك في الثانية والخمسين من عمره^(١)، وقد قضى عبد الوهاب أغلب هذه السنين إلى جوار والده عبد الرحمن بن رستم يقاسمه فيها حلول الحياة ومررها. ورغم أن المصادر لم تذكر الكثير من التفاصيل عن حياة عبد الوهاب قبل توليه منصب الإمامة فإن الذي لا شك فيه أنه كان إلى جانب والده في كل جهوده السياسية والحربية التي قام بها لتأسيس دولة إياضية، وأنه عاش مع والده عبد الرحمن بن رستم في القيروان أيام ولايته عليها من قبل أبي الخطاب. ومما يؤيد ذلك ويدعمه أن عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان إلى المغرب الأوسط لم يكن معه غير ولده عبد الوهاب وغلّام لهما، وضرب عبد الوهاب في أثناء هذه الرحلة الشاقة المضنية مثلاً رائعاً في القوة والشجاعة، للمحافظة على والده عبد الرحمن بن رستم حتى وصل هذا الركب الصغير إلى جبل سوفجج، وكان عبد الوهاب ضمن من حوصروا في الجبل وذاقوا مرارة الحصار وأعبائه.

جمع عبد الوهاب من كل هذه السنين خبرة واسعة بفنون السياسة والإدارة والحرب، واكتسب من والده: قوة الشخصية، متانة الشكيمة، فهو شخصية صقلتها ونمّتها الأحداث حتى إذا جاء دورها انطلقت تساهم في صنع هذه الأحداث على نحو هو أحسن ما يُقبل منها. وفوق هذا وذاك، تمتع بين سائر أقرانه بمكانة علمية تكوّن رصيدها الهائل لديه على يد اثنين من حملة العلم، أحدهما والده عبد الرحمن بن رستم والثاني أبو داود القبلي^(٢). ويضاف إلى ذلك أنه تمتع ببعض الصفات الجسمية التي تكسب صاحبها الهيبة وتُضفي عليه الكثير من قوة الشخصية فقد كان ضخماً ممتد القامة، وقد عبر عن ذلك الشماخي فيما نقله عن أبي زكرياء من أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كانت له مصلى «بتلالت»، وفي موضع من المصلى هذه بلاطة كان الإمام عبد الوهاب يتكىء عليها إذا قعد مساوياً بها رأسه، وهذه البلاطة اليوم تحاذي رأس الواقف^(٣). استطاع عبد الوهاب بفضل هذه المميزات المتعددة لشخصيته أن يحتفظ بمركزه إماماً يقود دفة الأحداث في الدولة الرستمية التي كانت

(١) الشماخي: السير ١٥٩.

(٢، ٣) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢٣ أ.

الجبهة الداخلية فيها تغلى بأزمات انفجرت تباعاً، وحتى يتفرغ عبد الوهاب لتأمين هذه الجبهة الداخلية في دولته رأى أن يجدد فوراً وبسرعة اتفاقية المهادنة التي تمت بين والده عبد الرحمن بن رستم وروح بن حاتم أمير القيروان، والتي رغب روح بن حاتم نفسه في استمرارها^(١).

(ج) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وتأمينه الجبهة الداخلية

أولاً: تزعم يزيد بن فندين - وهو أحد الذين رشحهم عبد الرحمن بن رستم لمنصب الإمامة - تيار المعارضة ضد الإمام عبد الوهاب، وذلك سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م، وهي السنة نفسها التي تولى فيها عبد الوهاب منصب الإمامة برضا العامة والخاصة، ويزيد ابن فندين هذا ينتمى إلى بنى يفرن وهم فرع قوى من قبيلة زناتة البترية، ويُرجع بعض كتاب الإباضية^(٢) أسباب خروج يزيد بن فندين على الإمام عبد الوهاب إلى أسباب شخصية، فيزيد أخفق في وصول إلى منصب الإمامة رغم أن عبد الرحمن بن رستم جعله من بين المرشحين السبعة لهذا المنصب، ومما زاد الأمر سوءاً أن عبد الوهاب لم يُسند إليه بعد توليه الإمامة منصباً من مناصب الدولة كان يزيد يتطلع إلى توليتها. ومما ساعد يزيد على ذلك تلك الخلافات التي ظهرت في مطلع عهد عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم والتي ترجع إلى أن بعض زعماء الإباضية راعهم تحوّل إمامتهم إلى ملك وراثي في أبناء عبد الرحمن بن رستم^(٣).

ولكن الذى يبدو أن سياسة الإمام عبد الوهاب ومبادئه الصارمة في الحكم وتمسكه بها إلى درجة التشدد، دفعته إلى أن يعهد بالمناصب إلى من يعرف فيه العزوف عنها، ويُبعد عن تلك المناصب الطامحين إليها، وهو الأمر الذى سيثير عليه سخط أصحاب المطامع. وقد أوضح الدرجيني هذه الحقيقة حين قال: فأما سبب افتراق الإباضية فيما ذكر ذكر غير واحد من أصحابنا فهو أن عبد الوهاب - رحمه الله

(١) ابن خلدون: العبر ٤ / ١٩٤، القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب ١٧٣، الباروني: الأزهار الرياضية ١٠١ / ٢ GAutier, op. Cit. p. 303.

(٢) أبو الربيع الباروني: مختصر تاريخ الإباضية ٣٤، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٠٢، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٥ أ.

(٣) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الحركات السرية في الإسلام - رؤية ٢٦ - عصرية - دار العلم - بيروت ١٩٧٣ م.

لما ولى المسلمين استعمل على ولايته كلها أهل الورع والزهد، وكل من علم أنه ليست له رغبة في الولاية، واستعان على ما قلده الله من أمور المسلمين بأهل العلم والبصائر في الدين»^(١). عملت هذه السياسة على اتساع الهوة بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والطامعين في السلطان من خصومه^(٢)، وخاصة يزيد بن فندين الذي نهض مثيراً للفتنة بتاهرت، وأخذ يجمع حوله الأنصار والمؤيدين، واتخذ لذلك شتى الوسائل لإقناعهم بوجهة نظره، فأشاع أن عمال الإمام ليسوا على قدر كبير من الكفاءة والدراية لتدبير شئون الدولة، وأنه هو وأتباعه أولى بهذه المناصب^(٣). وجدد ابن فندين وأتباعه الدعوة إلى وجود جماعة معلومة لا يقطع الإمام أمراً دون الرجوع إليها^(٤).

وتدرج ابن فندين من ذلك إلى إنكار إمامة عبد الوهاب وإعلان فساد البيعة من مبدئها بدعوى أن في المسلمين من هو أكثر منه علماً. ويحدثنا الشماخي عن الطريقة التي كان يتبعها يزيد بن فندين وأتباعه لإقناع الناس برأيهم فيقول عنهم: «وخادعوا الناس بأقوالهم واضطربوا فإذا لقوا من لا بصيرة له في الدين قالوا: شرطنا أن لا يقطع أمراً ولا يقضى دون جماعة معلومة، وإذا خلوا بإخوانهم قالوا: قدم علينا من نحن أولى منه بالتقديم وقد ولىناه الأمر على أن يقدمنا ويرفع درجتنا فأخربنا، وإذا لقوا الضعفاء قالوا: لا تجوز إمامة رجل إذا كان في المسلمين من هو أعلم منه، فأفشوا القيل والقال وارتحلوا خارج المدينة وإلى الجبال ليتمكنوا من قارب الضعفاء ومن لا بصيرة له ولتتم كلمتهم»^(٥).

أدت هذه الأحداث إلى انقسام مذهبي خطير داخل الجماعة الإباضية في المغرب الأوسط فأصبح هناك النُّكَّار وهم أتباع يزيد بن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب، أما جمهور الإباضية بالمغرب الأوسط وهم مؤيدو عبد الوهاب فسُمُّوا

(١) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢١ أ.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٨٩.

(٣) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢١ أ، الباروني: الأزهار الرياضية ١٠٢/٢.

(٤) الشماخي: السير ١٤٦، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢١.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٦.

بالوهابية نسبة إلى الإمام عبد الوهاب^(١)، وانسلخ النُّكَّار عن مجتمع تاهرت وأصبح لهم مكان خاص بهم خارج تاهرت عُرف بـ «كُدية النُّكَّار»^(٢).

ظل عبد الوهاب يراقب خصومه بحذر شديد، وفي تلك الأثناء دبر يزيد بن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، والتخلص منه نهائياً، فعمد ابن فندين وأتباعه إلى وضع رجل مسلح داخل صندوق مغلق، وتظاهر رجلان من أتباع ابن فندين بأن بينهما خلافاً حول هذا الصندوق وأن كلا منهما لا يأمن صاحبه عليه وأنهما يريدان الاحتفاظ به عند الإمام حتى ينتهى ما بينهما من خلاف، واتفق القوم مع صاحبهم الذى بداخل الصندوق على أن ينهض فى الليل فيقتل عبد الوهاب، وعندما يتمكن من ذلك يؤذن لصلاة الصبح فتكون هذه شرارة ينطلق بعدها أتباع ابن فندين فيضعون السلاح فى أهل المدينة ويستولون على السلطة بالقوة^(٣).

وثارت الشكوك فى نفس الإمام؛ فالصندوق ثقيل، وقفله من داخله؛ لذا وضع الإمام فى فراشه زقاً متفوحاً وألقى عليه رداء أبيض، وفى المساء تحققت شكوك الإمام حيث خرج الرجل من الصندوق، وظن الرِّق هو الإمام فضربه بسيفه، وهنا عاجله الإمام بضربة قاتلة ووضع فى صندوقه وظل القوم حتى الصباح ولم يسمعوا شيئاً من صاحبهم، فاجتمعوا إلى الإمام وقالوا اتفقنا ونريد الصندوق وحملوه إلى مأمَنهم فوجدوا صاحبهم قتيلاً^(٤). وبفشل المؤامرة توقع النُّكَّار فتك الإمام بهم فخرجوا من تاهرت وعادوا إليها فى جموع تحمل السلاح فنهاهم الإمام عن ذلك بواسطة بعض خواصه، فقالوا لهم: ما فى إمساك السلاح معصية، ولا فى حمله من بأس والمؤمن بسلاحه، وإن رأى الإمام أن فى ذلك معصية فليقنعنا بالحجة^(٥)، فأصدر الإمام أوامره بالاستعداد للحرب، فازداد الناس خوفاً واشتدت وطأة النُّكَّار فأكثروا من التعدى حتى اشتعلت الحرب بينهم وبين الإمام وسُفكت فى هذه الحرب

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٢.

(٢) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٢، ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٦.

(٣) الشماخى: السير ١٤٩، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٧، الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٣ و ٢٤.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) البارونى: المصدر السابق ١٠٦.

دماء كثيرة، الأمر الذي جعل الإمام وأنصاره من الإباضية يطلبون الهدنة مع النُّكَّار، على أن تكون هذه الهدنة فترة يجرى فيها التحكيم بينهم وبين الإمام، ويتولى هذا التحكيم علماء الإباضية المشاركة وذلك عن طريق رسل يمثلون الأطراف المتنازعة تكون مهمتهم الذهاب إلى المشرق والحصول على رأى زعمائه من الإباضية فى هذه القضية^(٦). وانطلق رسل الإباضية نحو المشرق يحملون قضية الخلاف إلى علماء الإباضية المشاركة، ويدور الخلاف فى هذه القضية حول موضوعين أساسيين أثارهما يزيد بن فنين وجماعته:

أحدهما: أن على الإمام عبد الوهاب ألا يقطع برأى فى مسألة من المسائل، إلا إذا رجع إلى جماعة معلومة تكون بمثابة هيئة استشارية له، وهذا ما رفضه عبد الوهاب حين بويع بالإمامة.

ثانيهما: أن إمامة عبد الوهاب باطلة من أصلها؛ لأن فى المسلمين من هو أكثر منه علماً.

والذى تذكره بعض المصادر الإباضية أن رسل الإباضية مروا على مصر وأنهم قابلوا هناك من علماء الإباضية أبا المعروف شعبياً وغيره من علماء الإباضية، وهناك قاموا بعرض الأمور عليهم^(٧). ثم توجهوا بعد ذلك إلى مكة حيث التقوا هناك عدداً من علماء الإباضية، منهم: أبو عمرو الربيع بن حبيب صاحب كتاب المسند فى الحديث، وأبو غسان مخلد بن معمر الغسانى ووائل بن أيوب^(٨)، وأمام هؤلاء جميعاً طُرحت القضية ثانية وجاء رأى أولئك العلماء من إباضية مكة مؤيداً لموقف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبعثوا برسالة مطولة تضمنت فساد تعليق الإمامة على شرط وجود جماعة تحكم مع الإمام لأن ذلك فيه إيقافاً لحدود الله وتعطيلاً لها، كما ذكرت الرسالة أنه تجوز تولية رجل من المسلمين وبينهم من هو أعلم منه؛ لأن أبا بكر تولى أمر المسلمين وبينهم من هو أعلم منه^(٩).

(٦) الشماخي: السير ١٥٢، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٠٥ - ١٠٦.

(٧) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٢، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٠٦، البرادى: الجواهر المنتقاة مخطوط ورقة ٨٨.

(٨) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٢.

(٩) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٢.

وفى الوقت الذى كان فيه رسل إباحية مكة فى طريقهم إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان أبو المعروف شعيب العالم الإباضى المصرى قد خرج من مصر متوجهاً نحو تاهرت كى يستفيد من هذا التوتر الذى أصاب الدولة، فالتقى أولاً الإمام عبد الوهاب وأوضح له أن إمامته صحيحة وأن الشرط الذى وضعه النكار باطل، وأن الإمامة تجوز لأى شخص ولو كان فى المسلمين من هو أعلم منه^(١)، ثم حين قابل أبو المعروف يزيد بن فندين زعيم النكار أوضح له ضعف موقفه، وأن عليه أن يستأنف حرب الإمام ثانية قبل أن تعود الرسل من المشرق، فيقوى ذلك من مركز عبد الوهاب^(٢).

أخذ ابن فندين ومن معه من النكار ينتهزون الفرصة المناسبة للانقضاض على العاصمة تاهرت، وفى يوم كان الإمام عبد الوهاب غائبا فيه عن المدينة لقضاء بعض حوائجه هجم ابن فندين بجيشه على المدينة، «وكان أفلح بن عبد الوهاب يمشط رأسه وقد ظفر منه نحو الشطر وبقي الشطر فأخذ سلاحه وترسه فوقف على باب المدينة وقد كادوا يدخلونها ونشب إحدى رجله على العتبة السفلى من باب المدينة فانسلخت رجلاه إلى العرقوب وجالدهم حتى لم يبق فى مدرسته ما يصلح أن يكون وقاية، فأخذ أحد مصرعى باب المدينة فاتقى به وابن فندين بين يديه يضرب الناس يمينا وشمالا وعلى رأسه بيضتان فضربه فقسمه نصفين فنشب السيف فى الصفا من شدة الضربة، فلما مات ابن فندين انهزمت أصحابه^(٣)». ويذكر كتاب الإباضية أن عدد القتلى بلغ اثنى عشر ألف قتيل، وجد الإمام عبد الوهاب أكثرهم عند باب تاهرت حين عودته إليها؛ فصلّى عليهم جميعا؛ رغبة منه فى اجتماع كلمة المسلمين فى دولته^(٤). ولم تتوقف أعمال النكار عند هذا الحد، ففى أعقاب وصول رسل الإباضية من المشرق بصحة إمامة عبد الوهاب، غضبوا وعبروا عن ذلك الغضب بقتل ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومثلوا بجثته^(٥). ولكن أحد أبناء ميمون تعرف على قتلة أبيه حين كان يقوم بحماية الخراج من بعض نواحي الدولة الرستمية. وبعض كتاب الإباضية يرون أن عبد الوهاب تصرف بطريقة مثالية إزاء الجناة حيث

(١) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٢.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ج ٢، ١٠٨ - ١١٠.

(٣) الشماخى: السير ١٥٠.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ١١١/٢، الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

عمد إلى البحث عنهم حتى اتضح ارتكابهم هذه الجريمة بالحجة القوية، فأرسل في طلبهم فرفضوا الامتثال لأوامره واحتموا بمن كان معهم من بقايا ابن فندين من النُّكَّار. ولذلك اتخذ الإمام عبد الوهاب من هذه الحادثة ذريعة لتقليل أظافر النُّكَّار وكسر شوكتهم فأرسل إليهم جيشاً بقيادة ابن ميمون، فقتل الجناة وقتل من النُّكَّار عدداً كبيراً فضعف أمرهم ولم تعد لهم تلك الخطورة التي تهدد مركز عبد الوهاب^(١). إلا أن الذي يلاحظ أن حركة النُّكَّار خلقت وضعاً جديداً في الدولة الرستمية، فقد أعطت حركة النُّكَّار الفرصة لجماعات الواسلية من المعتزلة من أهل المغرب أن يناقشوا مسألة الإمامة في الدولة الرستمية باعتبارهم من رعايا هذه الدولة وهذا ما جعل بقايا النُّكَّار ينضمون إلى هؤلاء الواسلية في حركتهم، وأصبحت حركة الواسلية المشكلة الثانية التي تهدد الجبهة الداخلية في الدولة الرستمية بعد ثورة يزيد بن فندين.

ثورة الواسلية

كانت جماعات الواسلية تؤلف حزباً قوياً في الدولة الرستمية؛ فهم ينتسبون إلى واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة، ويقدر عددهم في الدولة الرستمية بثلاثين ألفاً يعيشون في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها^(٢) وقد انتشر مذهبهم إلى الشمال من تاهرت ما بين مدينة مستغانم ووهران وإلى الجنوب من تاهرت في تِلْغَمَت وفي بعض المناطق الصحراوية وفي وادي ميزاب، كما انتشرت هذه الجماعات من الواسلية أيضاً وبأعداد كبيرة في شمال المغرب الأقصى في وُلَيْي، وكان رئيسهم هناك إسحاق بن محمد الأوربي^(٣)، وكانت هذه الجماعات تتمتع بقدر كبير من الحرية الفكرية في ظل الدولة الرستمية، فاستطاعوا بذلك أن يدعوا لمذهبهم وأن يحتجوا له وأن يناظروا من يريدون حتى ولو كان إمام الدولة نفسه^(٤). ويُعزى خروج الواسلية على الإمام عبد الوهاب إلى أنهم غضبوا المقتل يزيد بن فندين^(٥) باعتباره من بني يفرن التي هي فرع من زناتة التي ينتمي إليها معظم الواسلية، ويؤكد ذلك انضمام بقايا النُّكَّار بعد مقتل يزيد بن فندين إلى هؤلاء الواسلية وخاصة الموجودين

(١) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٣) محمد علي ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣/ ٤٨٠.

(٤) الشماخي: السير ١٥٥ - ١٥٦، الباروني: الأزهار الرياضية ١١٧/٢.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٣.

منهم في شمال تاهرت^(١) ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لنشوة الواصليّة على الإمام عبد الوهاب؛ فقد كانت هناك مؤثرات خارجية دفعت الواصليّة إلى الثورة، وتظهر هذه المؤثرات واضحة عندما اتجه الإمام إدريس الأكبر بجيوشه نحو تلمسان سنة ١٧٣هـ / ٧٨٩م^(٢)، وهي إذ ذاك قاعدة المغرب الأوسط^(٣) وبها من القبائل مغراوة وبنى يفرن^(٤)، وتمكن إدريس الأكبر من إخضاع أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي الذي طلب من إدريس الأكبر الأمان واعتز بإمامته^(٥). وقد قام أمراء تلمسان من مغراوة وبنى يفرن بعد خضوعهم لسلطان الأدارسة بمحاولات لضم أجزاء من الدولة الرستمية إلى دولة الأدارسة التابعين لها. وعند ابن خلدون نص يؤيد هذا، يقول ابن خلدون: «ولم يزل الملك في بنى رستم هؤلاء بتاهرت، وحازتهم جيرانهم من مغراوة وبنى يفرن على الدخول في طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناقة من لدن ثلاث وسبعين ومائة^(٦)». وقد تكاثفت الجهود في هذا الشأن مع زعيم الواصليّة في المغرب الأقصى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي لإثارة واصلية المغرب الأوسط على حكامهم من الرستميين، وقد حدثت مكاتبات بين إسحاق الأوربي وبين هؤلاء الواصليّة بالمغرب الأوسط^(٧) وجاء مقتل يزيد بن فندين فرصة لتدخل الواصليّة وإثارة الجدل مرة ثانية حول إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم ولم يقف الأمر بهم عند حد الجدل بل جمعوا جيوشاً عظيمة اقتربت من تاهرت ودارت بين الفريقين معارك كانت الحرب فيها سجالاً بين الطرفين^(٨). وفي ضوء هذه الأحداث رأى عبد الوهاب أن يطلب المساعدة من إياضية جبل نفوسة^(٩). وكان الإياضية بجبل نفوسة يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي عن نفوذ الدولة العباسية منذ أبيه عبد الرحمن بن رستم، وفي عهد عبد

(١) محمد علي ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٤٨٤، طبقات الإياضية ورقة ٢٥

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ٢٢، حسن على حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ١١٨.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٧٦.

(٤) ابن أبي زرع الأنيس: المطرب ٢٢.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤ / ٧.

(٦) ابن خلدون: العبر ٦ / ١٢١ - ١٢٢.

(٧) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١١٦ - ١١٧.

(٨) الباروني: المصدر السابق ٢ / ٧١١.

(٩) الشماخي: السير ٢ / ١٥٤.

الوهاب ازدادت الصلات بينه وبين إياضية هذا الجبل قوة^(١)، وتقول رواية الشماخي إن عبد الوهاب طلب من أهل الجبل أربعمئة نفر «مائة من الفرسان للمبارزة ومائة مفسر، ومائة متكلم، ومائة فقيه عالم بفنون الحلال والحرام»؛ لأن الواصلية معهم عالم بارع من هناك في الكلام وفيهم شاب لا يبارزه أحد إلا قتله^(٢)، والغريب في هذه الرواية أن هذه الأعداد المطلوبة لا تنسجم مع ما أرسلته إياضية نفوسة فعلاً لمساعدة عبد الوهاب؛ إذ أرسلت له نفوسة أربعة أفراد بدلا من أربعمئة وهم: محمد بن يانس ومهدى النفوسي وأبو الحسن الأبدلاني وأيوب بن العباس^(٣)، ولكن يبدو أن هذه الرواية أرادت أن تضيفي الثناء على هؤلاء الأربعة وتقول إن الواحد منهم كان يعدل مائة^(٤). وعند الدرجيني رواية تخفف من حده هذه المبالغة في رواية الشماخي يقول الدرجيني: «فلما رأى الإمام عبد الوهاب ما نزل به منهم الواصلية وأن حربهم مستمرة وأرسل إلى أهل جبل نفوسة يستمدهم طالباً منهم جيشاً نجياً يكون فيهم رجل مناظر، عالم بفنون الرد على المخالفين ورجل عالم بفنون التفاسير ورجل شجاع يستعد لمبارزة الشاب الواصلي^(٥). وكان الإمام عبد الوهاب ينتظر قدومهم بفارغ من الصبر حتى أنه وعد غلمانه أن من آتاه بخبر وصولهم أعتقه وأخرجه حراً؛ وكان من بين الغلمان غلام أعرج، فلما رأى الغلمان يتسابقون يوماً إلى الإمام، فعلم أن ذلك من قدوم نفوسة فأخبر الإمام بقدومهم فخرج حراً، فلما بشر الغلمان الإمام عبد الوهاب، قال لهم فاز بها الأعرج، وأرسلت مثلاً^(٦).

وعلى الفور اجتمع عبد الوهاب بوفد نفوسه وقال لعالمهم الملقب بمهدى النفوسي: «وقع بيني وبين المعتزلي في مناظرتي له كذا وكذا فذكر ما وقع بينهما من الحديث، فكلما زاغ المعتزلي عن الحق وجاد عن الصواب قال مهدى: ها هنا عن الالتزام وها هنا ليس بالشبهة حتى أطلعه على مكانه وما ليس به^(٧).

(١) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٦٥.

(٢) الشماخي: السير ١٥٤ - ١٥٥.

(٣) الشماخي: السير ١٥٥.

(٤) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٦٦.

(٥) الدرجيني: طبقات الإياضية ورقة ٢٥.

(٦) الشماخي: السير ١٥٥.

(٧) الشماخي: المصدر السابق ١٥٥ - ١٥٦.

ولما تأكد الإمام عبد الوهاب من تمام استعداداته للقاء الواصلية دعاهم إلى المناظرة، فاستعد الفريقان وجمع كل منهما جموعه، وتقدم الإمام عبد الوهاب من بين الصفوف ومعه جماعة من بينهم مهدي النفوسى ومحمد بن يانس فتناظر مهدي النفوسى مع عالم الواصلية حتى غاصا فى كلام لم يفهمه الحاضرون، وتمادى بهما الحديث والمناظرة حتى أفحم مهدي عالم الواصلية فكبر الحاضرون من أتباع عبد الوهاب، وعلى أثر ذلك نشب قتال ضار بين الإباضية والواصلية استطاع فيه أيوب بن العباس أن يقتل فارس الواصلية، ويمقتله انهزمت جماعات الواصلية وعاد بعضهم إلى طاعة الإمام والبقاء داخل نطاق الحكم الرسمى^(١). والبعض الآخر كَوَّنوا لهم بعض الإمارات مثل إمارة ايزرج بجانب تاهرت، كما كان منهم من توجه إلى المغرب الأقصى والتفَّ هناك حول زعيمه المعتزلى إسحاق بن محمد الأوربى الذى امتد نفوذه ما بين طنجة إلى ولىلى بجبل زرهون^(٢) ويمثل القضاء على حركة الواصلية خطوة مهمة للمحافظة على حدود الدولة الرستمية العربية فقد أوقف الأدارسة عند حدود تلمسان، وأكد سلطان الدولة الرستمية على ما يلى تلمسان شرقاً من أراضى المغرب الأوسط.

ثورة مزاته وسدراته

لم تكن هذه الأحداث السابقة هى كل ما واجه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فالنُّكَّار مازالت بقاياهم تحاول إثارة الشغب فى الدولة عن طريق الدعوة السرية التى قاموا بها بعد هزيمتهم أمام عبد الوهاب؛ لأنهم لم يكونوا من القوة بحيث يمارسون ذلك علناً خوفاً من بطش الإمام بهم، ورأى النُّكَّار فى أشهر الربيع فرصة عظيمة لكسب الأنصار والمؤيدين لهم، ففى أشهر الربيع تكون تاهرت وما حولها مناطق رعوية مليئة بالعشب، وإلى هذه المناطق تأتى قبائل مزاته وسدراته وغيرها للانتجاع والرعى، وبعد انتهاء موسم رعيهم يدخل وجوههم ورؤساؤهم مدينة تاهرت، فيبرِّهم أهلها ويكرمونهم، ويقضون حوائجهم ثم يرتحلون بعد ذلك

(١) الشماخى: السير ١٥٦-١٥٧.

(٢) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٤-١١٥. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد.

إلى بلادهم^(١). وإلى هذه الحقائق المهمة أشار ابن الصغير بقوله: «أن قبائل مزاته وسدراته وغيرهم كانوا يتتبعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها؛ لما حولها من الكلا وغيره.... وكانوا إذا انتجعوا دخل وجوههم ورؤسائهم المدينة فيبرون ويكرمون ثم يخرجون إلى شياهم وبعيرهم فيقيمون بها إلى طعنهم^(٢)».

استغل النُّكَّار هذه الفرصة لتأليب هذه القبائل الوافدة على تاهرت وقاموا بدعوة سرية وعلى نطاق واسع بين رؤساء هذه القبائل وأفرادها فقالوا لهم «إن الأمور قد تغيرت والأحوال قد تبدلت فقاضينا جائر وصاحب بيت مالنا خائن وصاحب شرطتنا فاسق وإمامنا لا يغير من ذلك شيئاً وقد جاء الله بكم فادخلوا إلى هذا الإمام واسألوه عن قاضيه وصاحب بيت مالنا وصاحب شرطتنا وأن يولى علينا خيارنا فأجابوهم إلى ما يسألون»^(٣).

فذهب وفد من رؤساء هذه القبائل إلى عبد الوهاب وقالوا له: «إن رعيتك قد ضجّت من قاضيك وصاحب بيت مالك والقائم بشرطتك فاعزلهم عنهم وولّ عنهم خيارهم، فقال عبد الوهاب: جزاكم الله من وقد خيراً.. الأمر إليكم قدموا من رأيتم وأخروا من رأيتم»^(٤) وبعد خروجهم من عنده استشار عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده وأهل بطانته في هذا الأمر فقالوا له: وإنك لو استجبت إلى مطالبهم فلا بأس أن يطلبوا منك ما هو أكثر من ذلك فيقولون لك: «إن المسلمين قد نقموا عليك أشياء أو على ولديك. فإن أجبتهم إلى ذلك شكروك وحمدوك وإن أبيت لهم من ذلك خلعوك ونبدوك ثم لا تأمن لو أجبتهم إلى كل ما سألوك أن يأتوك فيقولون لك إن المسلمين في ابتداء أمرك لم يجتمعوا عليك فانخلع وأردد إليهم أمرهم»^(٥).

وأحسن الإمام بحرج موقفه فقد وعد رؤساء سدراته ومزاته بعزل القاضي

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٧، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/١٢٦

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ١٧.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ١٨.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ١٨.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ١٨.

وصاحب بيت المال والقائم بأعمال الشرطة وتولية غيرهم، ولكنه استطاع التخلص من هذا المأزق في اليوم التالي، فقال لهم هو ومن معه من خاصته: «إنه لا يحب عزل قاضي ولا صاحب بيت مال إلا بجرحه تظهر عليه، ولا يجب عزل القضاة بغير البغاة وسعى السعاة»^(١) فقالوا للإمام: لم يكن هذا اتفاقنا بالأمس وخرجوا من عنده متوجهين إلى الكدية المعروفة بكدية النُّكَار وأقسموا على ضرورة عزل من سألوا عزلهم ومحاكمة عبد الوهاب^(٢). ولم يجد عبد الوهاب بداً من محاربتهم والقضاء على حركتهم، خاصة أن الصلة أصبحت قوية بينهم وبين النُّكَار أعدائه القدامى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قبيلة مزاته كما يقول ابن حوقل كان لها انتماء قوى لمذهب الاعتزال على رأى واصل بن عطاء^(٣).

وجّه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الإنذار إلى تجمعات مزاته وسدراته ومن معهم من النُّكَار بالالتزام بالطاعة فلم يستجيبوا له، فخرج إليهم عبد الوهاب في قوات ضخمة قضت على حركتهم. أما من بقى من هذه القبائل فقد فر إلى مواطنهم^(٤) أما النُّكَار فإن معظمهم انحاز إلى جبال الأوراس حيث ظلوا معتصمين بها حتى نهاية الدولة الرستمية^(٥). ونجح عبد الوهاب في القضاء على هذه الحركة وتوطدت دعائم دولته، الأمر الذي جعل ابن الصغير يقول: «ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوى عليه وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك»^(٦).

عصيان قبيلة هواره

كانت سياسة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الحيلولة بين المصاهرات التي تقوم بين القبائل الكبرى في دولته وذلك باعتباره جزءاً من سياسته في تأمين الجبهة الداخلية للدولة، وقد حارب عبد الوهاب مثل هذه التحالفات بالأسلوب نفسه الذي

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين ١٩.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ١٩ - ٢٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٩٤.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة في تاهرت ٢٠.

(٥) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٤. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد.

(٦) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٠.

اتبعته هذه القبائل. ومما يذكر في هذا الشأن أن قبائل هواراة التي كانت تقيم بإزاء تاهرت كان لهم رؤساء مقدمون، يقال لهم الأوس ويُعرفون أيضًا ببني مسألة، وكان لدى أحد رؤساء قبيلة لواته ابنة جميلة فأراد مقدم بني مسألة أو رئيسهم أن يصاهر لواته، وبهذا تصبح مصالح القبيلتين واحدة وينعقد التحالف بينهما^(١).

وقد فطن عبد الوهاب إلى خطورة هذه المصاهرة «فأرسل عبد الوهاب إلى الرجل فأحضره فأجلسه وخطب إليه ابنته فزوجه إياها فاتصل ذلك بالأوس فقال: عمل على في جارية خطبتها ورضى إلى بتزويجها فانتزعها مني بسلطانه»^(٢). وغضب مقدم الأوس وغضبت معه عشيرته وأقسم ألا يقيم بتاهرت فارتحل عنها حتى نزل بوادي هواراة بينه وبين تاهرت نحوًا من عشرة أميال أو أكثر، وانضم إليهم كثير من الخارجين على الإمام، وبدأت هذه الجماعات من هواراة تقوم ببعض أعمال العنف ضد مواطني الدولة؛ فقتلوا ولدًا للبغال عند موضع يقال له دشرات بالقرب من نهر أبي سعيد^(٣)، وقام أتباع عبد الوهاب بتفقد القتيلى وذلك تبعًا لمبادئهم التي تنص على عدم محاربة خصومهم إلا إذا ثبت أنهم استحلوا الأموال، وقد وجدوا خاتم ولد البغال مفقودًا، هنا كبروا وقالوا: «قد استحلوا الأموال وحلّ قتالهم بنو ماله ومن معهم ثم أخذوا في التهيؤ للحرب والخروج إلى عدوهم فاجتمع إلى عبد الوهاب أمم كثيرة وخلق عظيم»^(٤).

والتقى الفريقان عند نهر أسلان وقد أبلى أفلح بن عبد الوهاب في هذه الحرب بلاءً عظيمًا، فكان عبد الوهاب كلما نظر في اتجاه وجد فارسًا يقاتل بشجاعة فيسأل عن الفارس «فيقال له ابنك أفلح، قال: لقد استحق أفلح الإمامة فكان أول يوم عقدت له الإمامة»^(٥). وانتهت المعركة وهُزمت جموع الأوس هزيمة فادحة ورحلت بقاياهم إلى جبل ينجان^(٦)، وهكذا بذل عبد الوهاب بن عبد الرحمن رستم جهودًا مضنية

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ١٣٣/٢.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢١.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٢١، البارونى: الأزهار الرياضية ١٣٣/٢.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين ٢٢.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٢.

(٦) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٣.

للاحتفاظ بوحدة الدولة الرستمية وتوطيد دعائمها، وتمكن بفضل هذه الجهود من القضاء على الفتن والثورات الداخلية.

خروج الإمام للحج

يذكر الشماخي أن الإمام عبد الوهاب بعد أن استقرت أوضاع الدولة الرستمية اعتزم السفر لأداء فريضة الحج^(١)، فاستخلف ابنه أفلح على تاهرت وخرج مستصحباً زوجته وجمعاً كبيراً من رجال دولته ومضى بهم نحو المشرق^(٢)، متخذاً الطريق الصحراوية المارة بقسطيلية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من مدينة قابس وإلى الشمال الغربي من جبل نفوسة^(٣). ولكن الإباضية في شرق الدولة منعوا الإمام من مواصلة السفر للحج خوفاً من أن يقبض العباسيون عليه وطلبوا منه أن يستشير علماء الإباضية المشاركة في هذا الأمر، فأرسل عبد الوهاب رجلاً نفوسياً من أهل تمزدة إلى أبي عمر الربيع بن حبيب وإلى ابن عباد من علماء الإباضية المشاركة في مكة يطلب رأيهم في أمر ذهابه إلى الحج «فأجابه الربيع من كان مثلك في العناية بأمور المسلمين وحمل أماناتهم وخاف على نفسه من المسودة أن يبعث بحجة وهو حي، وأجابه ابن عباد أن من كان على هذه الصفة فلا حج عليه، لأن من شرط الحج أمان الطريق. فلما قدمت عليه رسله أخذ يقول الربيع فأرسل رجلاً من أهل تمزدة «ايحج عنه»^(٤).

ويشك البعض في أن يكون هدف الإمام من هذه الرحلة هو الحج بدعوى أن الإمام أقام في بني زمر مدة امتدت إلى سبع سنوات، وأن أحداثاً مهمة حدثت خلال وجود عبد الوهاب في هذه المناطق، وأنه شارك فيها بنفسه^(٥). وقد أثر عبد الوهاب أن يبقى في أقاليم الدولة الشرقية لينظم الأوضاع بها، خاصة أن مناطق جديدة بأكملها قد انضمت إلى الدولة الرستمية.

(١) الشماخي: السير ١٥٩.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٣٧، السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٤ - ٥٥٥.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٥٥٥.

(٤) الشماخي: السير ١٥٩.

(٥) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٩١.

تدعيم الجبهة الشرقية للدولة

(أ) انضمام جبل دمر للدولة الرستمية

كان جبل دمر هو أول المناطق التي نزل بها الإمام عبد الوهاب، وتسكن هذا الجبل قبائل دمر الزناتية ومع أنهم من الإباضية، إلا أن استقرارهم بالقرب من إفريقية - ركيزة النفوذ العباسي في المغرب - جعلهم يفضلون حياة الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين^(١).

نزل الإمام في ضيافة أهل الجبل أياماً، وفي أثناء ذلك دعاهم الإمام عبد الوهاب إلى الانضمام إلى دولته، فبايعوه وانضموا إليه واعترفوا بإمامته عليهم وقدموا له البيعة مباشرة، فولّى عليهم شيخاً صالحاً منهم يدبر شئونهم يعرف بمدرار^(٢). وبني هناك مسجداً ومصلًى، والمسجد مشهور باسم مسجد عبد الرهاب؛ وقد أقامه في موضع يقال له تلالت من هذا الجبل^(٣).

(ب) زيارة الإمام لجبل نفوسة

مضى الإمام بعد ذلك إلى جبل نفوسة الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بجبل دمر^(٤)، ويعتبر هذا الجبل معقلاً مهماً من معاقل الدولة الرستمية، فأهل الجبل كلهم من الإباضية، وهم لا يدينون بالطاعة لأحد غير إمام تاهرت، وفي ذلك يقول اليعقوبي «لا يؤدون خراجاً إلى سلطان ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الإباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم^(٥)». ويذكر البكري أن قبائل هذا الجبل إذا تداعت للقتال فإنها تستطيع أن تجند للحرب ستة عشر ألف مقاتل^(٦)، وهذه الكثرة العددية كان لها أثرها في الحفاظ على كيان الدولة الرستمية كقوة سياسية في بلاد المغرب.

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٥.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٩، الباروني: الأزهو الرياضية ٢/ ١٣٧.

(٣) الشماخي: السير ١٥٩.

(٤) ابن سعيد: الجغرافيا ١٤٥، تحقيق: إسماعيل العربي.

(٥) اليعقوبي: البلدان ٣٤٦.

(٦) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٩٠.

أقام الإمام عبد الوهاب بجبل نفوسة سبع سنوات واتخذ من قرية «ميرى» مقرًا له وبنى بها مسجده وكان غاية في الاتساع والترتيب والصناعة^(١)، وقد شهد هذا المسجد لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جهودًا ثقافية رائعة؛ حيث عُقدت حلقات الدراسة للطلاب الذين تعاقبوا على الإمام ينهلون من علمه. ويقال: إن موضوع الصلاة قد استأثر بكثير من اهتمام عبد الوهاب طيلة هذه السنوات السبع^(٢). ولقد ظهر في جبل نفوسة جيل من العلماء الذين حملوا شعلة العلم في عصر الرستميين، ومن هؤلاء العلماء: مهدي النفوسى ومحمد بن يانس وأبو الحسن الابدانى وعمروسى بن فتح ويعقوب بن أفلاح وأبو عبيدة عبد الحميد الجناونى ومحمد الجناونى^(٣).

حصار طرابلس

ومن جبل نفوسة كان عبد الوهاب يراقب الأحداث المضطربة في طرابلس التي استشرت فيها حوادث الشغب، نتيجة الخلافات القبلية التقليدية بين القيسية واليمانية والتي حاول الأمير الأغلبى إبراهيم بن الأغلب معالجتها بنشئ الوسائل حتى إنه استعان بجند مصر في قمع هذه الفتن دون جدوى، فلجأ عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب - نائب طرابلس - إلى الاستعانة بالبربر لمواجهة الموقف المتأزم، ولكن هذه الجهود فشلت هي الأخرى وعمت الفوضى أنحاء طرابلس، وقام البربر بالثورة على جند المدينة وعلى العرب عمومًا بمن فيهم نواب بنى الأغلب، فثارت هوارة في وجه الأغلبية^(٤). ويبدو أن الذى شجعها على ذلك وجود عبد الوهاب بن عبد

(١) الشماخى: السير ١٥٩، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٤١ - ١٤٢.

(٢) الدرجينى: طبقات الإباضية ٢ / ١٤٢، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٤٢، على يحيى معمر: الإباضية فى موكب التاريخ ٢ / ٧٨.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٥.

(٤) هو عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمى أبو العباس ثالث الأغلبية من أمراء إفريقية كانت إمارته فيها استقلالاً والخطبة لبني العباس، وليها بعد وفاة أبيه ويعهد منه سنة ١٩٦ هـ، وكانت أيامه فى القيروان وأطرافها، أيام دعة وسكون إلى أن توفى سنة ٢٠١ هـ / ٨١٧ م. قال الباجى: كان حسن الصورة قبيح السيرة أبطل عشر الحب وجعله دراهم، أخصب أم أجذب، وقال لسان الدين ابن الخطيب: كان شديدًا جماعًا للأموال، اشتكى الناس من جوره إلى أن مات، وقال ابن الأثير: لم يكن فى أيامه شر ولا حرب وسكن الناس فعمرت البلاد. انظر المزيد فى: الخلاصة النقية ٢٥، تاريخ ابن خلدون ٤ / ١٩٧، الكامل ٦ / ٥٢ و ١١١، البيان المغرب ١ / ٩٥، أعمال الأعلام: ١٧.

الرحمن بن رستم في جبل نفوسة القريب من طرابلس^(١). فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون القدامى لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام^(٢). خرج جند الأغالبة من طرابلس لإخماد ثورة هوارة والتقى الجند جموع هوارة عند وادي الرمل^(٣)، ولكن هوارة استطاعت أن تسحق جند الأغالبة وجعلتهم يفرّون أمامها إلى طرابلس وتبعتهم هوارة حتى دخلت طرابلس وهدمت أسوارها، ويصوّر ابن الأثير هذه المعركة بقوله «فشارت هوارة بطرابلس فخرج الجند إليهم والتقوا واقتتلوا فهزم الجند إلى المدينة فتبعهم هوارة، فخرج الجند هارين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب ودخلوا المدينة فهدموا أسوارها»^(٤).

وصلت أنباء الثورة إلى مسامع إبراهيم بن الأغلب فسير إليها ابنه أبا العباس عبدالله في ثلاثة عشر ألف جندي، وتمكن عبدالله من إلحاق الهزيمة بهوارة، وقتل منها عددًا كبيرًا وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها^(٥). ورأى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أن هزيمة هوارة على هذا النحو اعتداء صارخ من الأغالبة على مواطني دولته، فأعدّ الجيوش وجمع القوات وتقدم بها لحصار طرابلس، وتمكن عبد الوهاب من فرض حصار قوى على المدينة سنة ١٩٦ هـ / ٨١١ م^(٦). وقد وجد عبد الوهاب متاعب كثيرة في أثناء الحصار بسبب عدم التكتّم على الخطط العسكرية في معسكره، الأمر الذي جعله يكتفى بمشورة وزيره مزور ابن عمران فقط دون غيره من القادة^(٧) ورغم هذه المتاعب التي عاناها عبد الوهاب فإن أبا العباس عبد الله لم يجرؤ على فتح أبواب المدينة والخروج منها للقاء عبد الوهاب، وإنما سدّ أبواب المدينة كلها، وكان يقاتل من باب واحد هو باب هوارة، وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب الذي كان قد عهد بالإمارة إلى ابنه

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٩٥ / ١.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٩، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ١٤٥ تحقيق: إسماعيل العربي.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٥.

(٤) الشماخي: السير ١٦٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٢٧ / ٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٧ / ٦.

(٧) الشماخي: السير ١٦٠، ابن الأثير: المصدر السابق ٢٧ / ٦.

عبد الله، وقام زيادة بن إبراهيم بن الأغلب^(١) بأخذ العهود والمواثيق على الجند، وأرسل إلى أخيه عبد الله رسالة يخبره بموت أبيه وبأن الإمارة انتقلت إليه^(٢)، ولكن الرسول والرسالة وقعا في أيدي جند عبد الوهاب، ويروى ذلك ابن الأثير فيقول «فأخذ البربر الرسول والكتاب ودفعوه إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فأمر بأن ينادى عبد الله ابن إبراهيم بموت أبيه^(٣). وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بد من عقد الصلح مع الإمام عبد الوهاب، وجاءت شروط هذا الصلح اعترافاً من دولة الأغالبة - الممثل الشرعي للخلافة العباسية في بلاد المغرب - بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس؛ إذ كانت أهم بنود هذا الصلح أن يكون للأغالبة السيادة على مدينة طرابلس والبحر، أما ما كان خارجاً على ذلك فهو لعبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم^(٤). وبهذه المعاهدة قوى مركز الإمام الرستمي عبد الوهاب في الجهات الشرقية للدولة الرستمية، ولم يتوان هذا الإمام عن انتهاز رأى فرصة لتوطيد دعائم دولته فتراه بعد ما صالح الأغالبة في طرابلس، يتطلع إلى المناطق التي يسود فيها المذهب الإباضي ليضمها إلى الدولة ويعين الولاة والعمال عليها من قبله، فأرسل سلمة بن قطغان الزواغي إلى قابس فحاصرها وشدّد عليها الحصار حتى استولى عليها، وضمها إلى الدولة الرستمية وكانت ضمن نفوذ الأغالبة، ثم تقدم ذلك القائد إلى ما يلي قابس من القرى والجبال والقبائل يخضعها لسلطان الرستمين كمطاطة وزنزقة ودمر وزواغة وجزيرة جربة^(٥). وأخذ الإمام عبد الوهاب في رصد عماله على هذه النواحي الجديدة وغيرها مما بسط الرستميون نفوذهم عليها، فجعل سلام بن عمرو اللواتي على مدينة سرت ونواحيها، وسلمة بن قطغان الزواغي على مدينة قابس، ومحمد بن إسحاق الخزري على نفرواة، ووكيل بن دراج النفوسي على مدينة قفصه، أما جارون بن القمري ونهدي بن عاصم الزناتى وبيران اليزمرتنى المراتى فيرجح أنهم كانوا عمالاً للإمام عبد الوهاب على غدامس وزويلة وتوزر^(٦). وقصارى القول أن عبد الوهاب استطاع عن طريق المعاهدة التي

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٧ / ٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢٧ / ٦.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ٢٧ / ٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٧ / ٦.

(٥) الشماخي: السير ١٦١، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٤٦ - ١٤٧.

(٦) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٦٤ - ١٦٥، محمد على دبور: تاريخ المغرب الكبير: ٣ / ٥١٣.

عُقدت بينه وبين أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أن يفرض واقعاً جديداً على الأغلبية، فجعل خط الحدود في دولته يسير مع خط المناطق التي ينتشر فيها المذهب الإباضي، والمعروف أن المذهب الإباضي قد انتشر في مناطق كثيرة من جنوب إفريقية وأن هذه المناطق خضعت للنفوذ الرستمي بفضل جهود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ومن هذه المناطق من جنوب إفريقية نذكر جبال الأوراس موطن قبائل هواره ومكناسة، يقول البكري «جبل أوراس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هواره ومكناسة وهم إباضية»^(١). أما شمال الأوراس حتى جنوب مدينة بجاية فقد كانت فيه منازل مزاته التي قال عنها الإمام عبد الوهاب «ما قامت هذه الدولة الرستمية إلا بسيوف نفوسة وأموال مزاته»^(٢) وعندما تحدث البكري عن مدينة بجاية قال مؤكداً الوجود الإباضي هناك «ويسكن فحصى هذه المدينة قبائل مزاته وضريسة وكلهم إباضية»^(٣) وعند ابن الصغير المالكي الدليل القاطع على خضوع هذه المناطق للنفوذ الرستمي وامتداد سلطاتهم الإدارية حتى هناك، فعندما مات قاضي جبل الأوراس اختار مجلس الشورى لهذا المنصب القاضي محكم الهواري وكان أحد الشخصيات البارزة في جبل الأوراس يقول ابن الصغير: «وأجمع رأيهم مجلس الشورى على محكم الهواري الساكن بجبل أوراس فأتوا إلى أفلاح بن عبد الوهاب فقالوا قد تدافعنا هذا فيما بيتنا فلم نرتضى أحداً منا وقد ارتضينا جميعاً بمحكم الهواري الساكن بجبل أوراس»^(٤).

ويتضح من هذه الحقائق التاريخية أن خط الحدود الشرقية للدولة الرستمية يبتدئ شرقاً من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ما عدا مدينة طرابلس والساحل فإنهما تقعان تحت النفوذ الأغلب، وينعطف الخط عند جنوب صفاقس نحو الغرب فيمر على قفصة وجبال الأوراس وتهودة وبعدها يرتفع خط الحدود إلى الشمال تاركاً أراضي إمارتي هاز ومتيجة حيث ينتهي في شرق شرشال على ساحل البحر. أما حد الدولة الرستمية الشمالي فيمتد على ساحل البحر من شرق شرشال إلى غرب وهران

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٤٤.

(٢) أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣١ أ.

(٣) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٥١٨.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٣، البرادي: الجواهر المنتقاة ورقة ٨٩.

متضمنًا مدناً ساحلية هامة هي: شرشال وتنس ومستغانم ووهران، أما الحدود الغربية للدولة فتبدأ من غرب وهران وشرق جبال تلمسان إلى جنوبها ثم تتجه نحو الغرب فتخترق جبال القصور إلى غرب ففيف، ومدينة بنى ونيف ثم تنحدر الحدود حتى الصحراء الكبرى فتخرج تلمسان وجبالها من نطاق الدولة الرستمية بنطاق حدود واسعة من الشمال إلى الجنوب تبدأ من ساحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال حتى أقصى الصحراء الكبرى في الجنوب إلى ما بعد وارجلان وغدامس وفزان^(١).

عودة الإمام إلى تاهرت

وبعد أن وطد الإمام عبد الوهاب النفوذ الرستمي في إقليم طرابلس وكثير من جهات جنوب إفريقية، عزم على العودة إلى تاهرت، فطلب إليه أهل نفوسة وغيرهم من القبائل أن يولى عليهم رجلاً وطلبوا أن يكون هذا الرجل السمع بن أبي الخطاب المعافى وزير الإمام عبد الوهاب، ورغم أن السمع كان عزيزاً على الإمام ولا يريد الإمام أن يفارقه، فقد نزل الإمام على رغبتهم وترك السمع واليا على إقليم طرابلس بما فيه جبل نفوسة، ومضى الإمام راحلاً إلى تاهرت^(٢). وظل السمع والياً على حيز طرابلس فأحسن السيرة «وعدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالي في النقاط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامه بحيث لم ينكروا عليه شيئاً في مدة ولايته كلها لا يخرج عن رأى الإمام ولا يخالف له أمراً»^(٣). واستطاع السمع الاحتفاظ بولاء أهالي جبل نفوسة الديني والسياسي للأئمة في تاهرت^(٤) فلما حضرت السمع الوفاة اجتمع إليه وجوه أصحابه وقالوا له «أوصنا ومرنا بأمرك يرحمك الله فإننا مطيعوك في حياتك وبعد وفاتك... فقال السمع: أوصيكم بتقوى الله والأتباع لما أمركم به والانتهاز عما زجركم عنه وطاعة إمامكم عبد الوهاب وتأيدته ما دام مستقيماً على الحق الذي

(١) الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ١ / ٢٢١، أحمد توفيق المدني: الجزائر ٢١، محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٥١٥-٥١٧.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٠.

(٣) الباروتى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٤٨.

(٤) د. إحسان عباس: تاريخ ليبيا ٦٨.

عليه سلفكم وجهاد من خالفهم^(١). وبعد وفاة السمع سارع كثير من العامة إلى تولية خلف بن السمع^(٢)، ويبدو أن خلفاً هذا قد دعا إلى نفسه على أساس أنه من أبناء أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافى الذى كان إماماً للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية. ويؤيد ذلك أن خلفاً لم يكتف بولايته على الجبل فحسب، بل إن مؤيديه أرسلوا الكتب إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل وهو من أئمة الإباضية المشاركة يستفتونه راجين أن يعجز لهم الانفصال عن الدولة الرستمية بدعوى أنهم بعيدون عن تاهرت^(٣).

رفض الإمام عبد الوهاب ولاية خلف على حيز طرابلس وأرسل كتاباً لأهل الجبل يبين لهم فساد ولاية خلف ويقول كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس. أما بعد.. فإنى آمركم بتقوى الله واتباع ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، وقد بلغنى ما كتبتم به إلى من وفاة السمع واستخلاف بعض الناس خلفاً ورد أهل الخير ذلك. فإن من ولى خلفاً من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن أبى توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل يستعمل منكم السمع إلى عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمع حتى يأتية أمرى، وتوبوا إلى ربكم وراجع التوبة عليكم تفلحون»^(٤).

ورفض خلف بن السمع ومن معه الاستجابة لأوامر الإمام وأعلنوا العصيان عليه، ورأى الإمام عبد الوهاب أخطار الانقسام تهدد دولته وكان لهذا الإقليم من أقاليم دولته أثره فى دعمها مادياً وعسكرياً، لذا سارع الإمام إلى تعيين أيوب بن العباس، وكان شخصية قوية هابها خلف والتزم بالسكون والطاعة^(٥) وبعد وفاة أيوب بن

(١) الشماخى: السير ١٦٥.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٤٨.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣١، البارونى: الأزهار الرياضية ج ٢، ١٥١.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٥٠، أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢٤ و ٢٥.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣١، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٥٢.

العباس تولى أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى أمر جبل نفوسة، وفى أيامه استفحل شأن خلف وأتباعه، وأخذ فى شن الغارات على الأطراف، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له فى حرب خلف، ولكن الإمام أشار على أبى عبيدة أن يلاطف خلفاً وألا يفتح معه باباً للقتال، فهدأت حركة خلف بن السمح مرة ثانية. وظل أبو عبيدة «قائماً بأموره فى حيزه مواصلاً للإمام بما يجب من المال»^(١).

وهكذا نجح عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فى توطيد الدولة الرستمية وفى الوصول بها إلى أوج اتساعها، وترك لخلفائه دولة قوية الدعائم متينة الأركان يقول عنها ابن الصغير: «وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله، ودان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والجند ما لم يجتمع لأحد قبله، ولقد حكى لى جماعة من الناس أنه قد بلغت قوته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملاً المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان»^(٢)، وظل الهدوء سائداً فى أنحاء الدولة الرستمية حتى توفى الإمام عبد الوهاب سنة ٢١١هـ / ٨٢٦م بعد أن مضى فى الإمامة أربعين سنة^(٣).

ازدهار الدولة الرستمية فى عهد أفلح بن عبد الوهاب ٢١١ - ٢٤٠هـ / ٨٢٦ - ٨٥٤م

١ - إمامة أفلح بن عبد الوهاب

تولى أفلح بن عبد الوهاب الإمامة بعد وفاة والده مباشرة؛ خوفاً من تجدد الخلاف حول مسألة الإمامة كما حدث بعد وفاة جده عبد الرحمن بن رستم. وكان أفلح مرشحاً للإمامة كما يقول البارونى: «بأعماله العالية وعلومه ومداركه الواسعة، فبايعوه وسلموا له مقاليد الأمور بدار الإمارة قطعاً للخلاف على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح»^(٤).

وكانت أكثر الصفات التى جعلت أفلح مرشحاً للإمامة من الجميع ومن قبل والده

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٥٧.

(٢) ابن الصغير سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ١٧.

(٣) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٨، د. السيد عبد العزيز سالم تاريخ المغرب ٥٥٧، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ١٦٣.

(٤) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٢٦ أ.

عبد الوهاب بصفة خاصة صفة الشجاعة التي تميز بها وأصبحت غالبية عليه؛ لذا فقد أوصى عبد الوهاب بأن يكون أفلح ولي عهده في الإمامة، وجاءت هذه الوصية على لسان عبد الوهاب نفسه عندما كان يقاتل بني مسالة، وكان أفلح مشتركاً معه في هذه المعركة، وقد أعجب عبد الوهاب بشجاعته فقال لمن معه: «لقد استحق أفلح الإمامة فكان أول يوم عقدت له الإمامة»^(١).

ومثل الإباضية هنا مثل أهل السنة عندما يشترطون في اختيار الإمام العلم في وقت السلم، والشجاعة في وقت الحرب^(٢) وقد كانت شجاعة الإمام أفلح بن عبد الوهاب سبباً في إنهاء كثير من مشكلات الدولة الرستمية وحسمها لصالح والده عبد الوهاب، ومن ذلك على سبيل المثال قتله ليزيد بن فنديل زعيم النكّار عندما هاجم تاهرت وبمقتله لم تقم للنكّار قائمة بعد ذلك. وكان الإمام عبد الوهاب قد حرص على إعداد أفلح ليتحمل مسؤولية الحكم إذا ما اختير من بعده إماماً وحتى يتمرس أفلح بأساليب الحكم والإدارة، فقد ترك له عبد الوهاب إدارة شؤون الدولة الرستمية من العاصمة تاهرت في أثناء غيابه في جهات الدولة الشرقية. وقد استفاد أفلح من هذه الفترة كثيراً، فعن طريق احتكاكه بالناس وتعامله معهم، عرفوا قدره، وخبروا مدى علمه. ويبدو أن هذه الفترة لم تكن هي الفترة الوحيدة التي أدار فيها أفلح شؤون الدولة، وإنما أدار شؤون الدولة مرة أخرى قبل وفاة والده عبد الوهاب بسنوات، لذا فعندما مات والده، أحس الجميع أنه أنسب الشخصيات لهذا المنصب الخطير في الدولة فتمسكوا به إماماً لهم^(٣).

ويحدد ابن الصغير هذه الفترة بأنها كانت في أعقاب آخر أعمال الإمام عبد الوهاب الحربية التي حارب فيها بني مسالة وقضى على تمردهم وفي ذلك يقول: «ورُشح أفلح للإمارة وانقطع إليه المنتطعون ودارت إليه الحوايج والعطاء من تحت يديه، فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى احترمت عبد الوهاب منيته فلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لأفلح»^(٤). وابن الصغير في هذا النص استخدم كلمة الإمارة مشيراً

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٢

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٢٢.

(٣) محمد علي ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٥٥٩ - ٥٦٠.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٣.

إلى الفترة التي تولى فيها أمر الدولة الرستمية في أواخر عهد والده، فلما توفي عبد الوهاب صارت الخلافة من نصيب أفلح.

وجدير بالملاحظة هنا، أن إمامة أفلح بن عبد الوهاب على هذا النحو تعد خروجاً على مبدأ الانتخاب العام الذي نادى به فرقة الإباضية وغيرها من فرق الخوارج؛ فقد رفض الخوارج مبدأ التقنين أو الوراثة، وطالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أى الانتخاب، على أن يكون المرشح من أى جماعة من الناس حتى ولو كان عبداً حبشياً^(١). ويعتبر خروج الإباضية فى الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام أو الشورى نوعاً من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون حفاظاً على كيان الدولة من التفتت والانقسام، من جراء الفتن والقلقل التي كانت تتعرض لها من حين لآخر، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التي تجرى عليها سائر الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب وهى احترام مبدأ الوراثة^(٢).

وقد رضى الجميع عن أفلح فما كادت أخبار تولية الإمامة تنتشر حتى جاءته كتب العمال وصلحاء المسلمين من جميع الجهات والولايات تعلن مبايعتها له، ومن هذه الكتب كتاب أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى عامله على جبل نفوسة^(٣). وقد تعرض أفلح فى مطلع عهده لاختبارات أراد الشراة^(٤) منها أن يعرفوا مدى صلاحية أفلح لمنصب الإمامة، ومن ذلك أن قاضياً من قضاة أبيه مات فى أيامه، فاجتمع الشراة إليه فسألوه أن يولى منصب القضاء من يستحقه فقال لهم: «اجمعوا جمعكم وقدّموا خيركم ثم أعلمونى به أجبره لكم وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم»^(٥).

فاختاروا لهذا المنصب محكم الهوارى - الساكن بجبل الأوراس - وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك فقال أفلح: «ويحكم دعوتكم إلى رجل كما وصفتم فى ورعه ودينه ولكن هو رجل نشأ فى بادية ولا يعرف لذى القدر قدره ولا لذى الشرف شرفه

(١) د. إبراهيم أحمد العدوى: بلاد الجزائر ٢٠١.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوى: المرجع السابق ٢٠٢.

(٣) البارونى: الأزهار الرياضية ١٦٦ / ٢.

(٤) البارونى: المصدر السابق ٢ / ٢١٠.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تأمرات ٢٣.

وإن كان ليس أحد منكم يجب أن يظلم ولكن تحبون أن يعجرى فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لأغراضكم ولا امتهان لأنفسكم»، قالوا: «فأنا لا نرضى لقضائنا أحدًا غيره»^(١). وقد أثبتت الأحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الأمور، فعندما ذهب وفد الشراة إلى محكم لإخباره باختياره لمنصب القضاء قال لهم: «إن الحق مر أمر من شرب الدواء ولا يُشرب الدواء إلا كُرْها وأنتم مرفهون أبناء نعم وغيرى أحب إليكم منى وقد نصحتكم فاقبلوا نصحتي»^(٢). ولكنهم أصرّوا على اختياره فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء، ومن القضايا المشهورة التى عرضت على محكم الهوارى وأثبتت صحة رأى أفلح فى محكم الهوارى، قضية كان فيها خصمان، الأول: أبو العباس أخو الإمام أفلح - وكان أحد المتمسكين باختيار محكم لمنصب القضاء - والثانى صهر الإمام أفلح، فما كان من محكم إلا أن ساوى بينهما فى مجلس القضاء، وكان أبو العباس يظن أن محكمًا سيحاييه ويفضّله على خصمه ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فخرج أبو العباس غاضبًا حتى دخل على أخيه أفلح وقال له: «نزل بى من هذا الهوارى الشرُّ الجافى ما لم ينزل بأحد»^(٣) فقال أفلح: يا أبا العباس قد كفت أعلمتك بهذا من قبل والصواب ما فعل والحق أولى أن يؤثر، ولو فعل غير هذا لكان مدهنا فاتصل ذلك من كلامه بوجوه الإباضية فأعجبهم وأسروا به» وبالغ أفلح فى إظهار التواضع؛ إذ رأى أن شخصيته كإمام محط الأنظار من الجميع، ومن ذلك أن وفدًا من نفوسة نزلوا ضيوفاً عليه ولما حضر الطعام وقف على رؤوسهم بالقنديل وهم يأكلون فمدّ له واحد منهم لقمة مما بين أيديهم باتفاق مع رفقائه ولما كانت إحدى يديه رحمه الله مشغولة بالقنديل ولم يكن من الأدب قبوله اللقمة بيد واحدة وضع القنديل فوق ركبتيه حتى لا يختفى عنهم نوره وتلقى اللقمة بيديه ولم يتكبر فشكروه على ذلك^(٤).

وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع. وعن هذا الرضا والتقدير تحدث ابن الصغير فقال: «فلما ولى أفلح أخذ بالعزم والحزم ونشأ له

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستمين فى تاهرت ٢٤ - ٢٥.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٢١٣.

من البنين ما لم يكن لغيره ممن قبله وطار له الصيت... ولم يكن الشراة تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أعشاره^(١).

٢ - سياسة الإمام أفلح الداخلية

ترك الإمام عبد الوهاب دولة قوية مستقرة الدعائم متينة البنيان، وكان أفلح بن عبد الوهاب الذي تولى الأمر بعده - يدرك هذه الحقيقة المهمة ويدرك أن مجتمع دولته الذي يغلب عليه النظام القبلي في حاجة إلى سياسة خاصة، ولم يكن أفلح بن عبد الوهاب أقل من والده حنكة ودهاء، فاستطاع بتعاليم أبيه وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الأمور في الدولة^(٢).

ومن الأساليب التي لجأ إلى استخدامها سياسة إضعاف التحالف بين القبائل عن طريق الوشاية بينها، فقد كانت القبائل المنتشرة حول تاهرت قد تعاظم شأنها نتيجة ما اكتسبوه من الأموال بسبب الرخاء الاقتصادي الذي عمّ الدولة، واتخذت هذه القبائل العبيد والخيول حتى خاف أفلح أن تجمع هذه القبائل عليه أو تؤثر على مكانته، لذا عمد إلى استخدام جهاز من الأعوان أشبه ما يكون بجهاز المخابرات ووظيفة هؤلاء الأعوان إلقاء الأحقاد والفتن بين القبائل الكبرى حول تاهرت^(٣). وقد نجحت هذه السياسة أيما نجاح في إضعاف مركز هذه القبائل وإبطال ما قد يقوم بينها من تحالف. يقول ابن الصغير: «فلما رأى ذلك أفلح بن عبد الوهاب أرش ما بين كل قبيلة ومجاورها فأرش بين لواته وزناته وما بين لواته ومطماطة وما بين الجند والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفاً من أن يعين صاحبها عليها»^(٤).

ولم يألُ أفلح جهداً في القضاء على ثورة خلف بن السمع تلك الثورة التي كانت تفتت في عَصْد الدولة من أيام والده عبد الوهاب، وبعد تولى أفلح منصب الإمامة وصلته من أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني - عاملة على جبل نفوسة - رسالة يطلب

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٣.

(٢) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٩.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٧.

(٤) الدرجيني: طبقات الإياضية ورقة ٣٢، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٦٦.

فيها من الإمام أن يسمح له بحرب خلف بن السمع للقضاء على حركته^(١)، ولكن أفلح لم ير هذا الرأي وأمر أبا عبيدة أن يساير خلقاً ويلاطفه، ويستعمل معه كل سياسة من شأنها أن توطن الأمن وتحقق الدماء. ولكن خلفاً ظن ذلك ضعفاً من الإمام وعامله فاتجه باتباعه إلى ناحية «تمتى» وما يليها شرقاً وهناك استطاع خلف أن يجند جيشاً ضخماً تقدم به قاصداً ناحية «حاور» فخرج إليه أبو عبيدة والتقى طليعة من طلائع جيش خلف كانت قد أغارت على قرية «أدرف» من قرى جبل نفوسة وقتلوا من أهلها عشرة رجال، ولم يصمد رجال خلف طويلاً أمام أبي عبيدة ففروا عائدين إلى خلف الذي انسحب بهم من حيث أتى^(٢).

وفي إطار سياسة الملاطفة التي أمر أفلح «أبا عبيدة» أن يلتزم بها أرسل أبو عبيدة كتاباً إلى خلف يدعوهُ إلى الكف عن الفساد أو الالتزام بالناحية التي هو فيها، وفي ذلك يقول أبو عبيدة «وإذا نزعنا يا خلف يدك عن الطاعة فكن في حيزك وأكون في حيزي وما بال الحرب»^(٣). ورغم هذه المحاولات من جانب أبي عبيدة فإن خلف استعد لجولة ثانية مع أبي عبيدة فخرج له بعد سنة في أربعين ألف جندي، وقامت بقايا النُّكَّار من أتباع يزيد بن فندي بمحاولات لصرف أبي عبيدة عن حرب خلف، ودعوه إلى خلع طاعته لأفـلح بن عبد الوهاب، ولكن أبا عبيدة رفض هذه الدعوة، كما رفض محاولة ثانية قام بها رسولان أرسلهما خلف لدعوة أبي عبيدة إلى خلع الإمام أفـلح والدخول في طاعة خلف بن السمع، ولم يجد أبو عبيدة بداً من لقاء خلف مرة ثانية رغم قلة عدد قواته فاستند أبو عبيدة الجبل، وبالقرب من جاور دارت بينه وبين خلف معركة انتصر فيها أبو عبيدة عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة ٢٢١ هـ وفرَّ خلف من المعركة بعد أن قتل من جنده أعداد كثيرة^(٤).

ولم يرتدع خلف بن السمع إلا على على يد العباس بن أيوب الذي تولى شئون جبل نفوسة بعد وفاة أبي عبيدة، ودارت بين العباس وخلف معركة فاصلة عند موضع «فانيس» بالقرب من «تمتى» ورغم ما يذكره الشماخي من ضعف شوكة خلف بسبب

(١) الدرجيني: المخطوطة السابقة ورقة ٣٢، الباروني: المصدر السابق ج ٢ / ١٦٨.

(٢) الدرجيني: المخطوطة السابقة ورقة ٣٢.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٦٨.

(٤) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٣.

هذه الحرب، فإن فرقة الخليفة - أتباع خلف بن السمع بن أبي الخطاب المعافى - ظلت حية بين فرق الإباضية الأخرى في إقليم طرابلس وجبل نفوسة^(١). ومن المشكلات الداخلية التي واجهت أفلح بن عبد الوهاب في جبل نفوسة، خروج فرج النفوس المعروف بنفات بن نصر عن طاعة الإمام أفلح وطعنه في الأئمة الرستمين، وكان نفات هذا من إحدى القرى الغربية القريبة من قنطارة في جبل نفوسة، وقد وفد إلى تاهرت لتلقى العلم في صحبة صديقه سعد بن أبي يونس الذي كان والده عاملاً على قنطارة من قبل الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وفي تاهرت ارتاداً معاً مجالس الإمام أفلح وغيرها من المجالس العلمية وأصحابها من الشخصيات المعروفة لدى الإمام وغيره من العلماء. وبعد وفاة والد سعد قرر أفلح - بعد أن شاور أهل الرأي - أن يتولى سعد عمل قنطارة خلفاً لوالده؛ لما لمسّه في سعد من الصلابة في الدين وحسن التجربة والوقوف عند نواهي الشرع^(٢). فأوغر ذلك صدر نفات على الإمام، فما لبث أن عاد إلى قريته وهناك خرج على الإمام وأشهر الطعن فيه قائلاً: «إن أفلح» أضاع أمور المسلمين ويزيد في الخلقه إذا مشا ويلبس الطرطور ويخرج إلى الصيد ويصلى بالأشبور^(٣).

يضاف إلى ذلك أن نفاتاً خالف المسلمين كما يقول الباروني في عدة أمور، منها:

- ١ - قوله إن الله هو الدهر الدائم.
- ٢ - إنكاره الخطبة في صلاة الجمعة وادعاؤه أنها بدعة وضلال.
- ٣ - إنكاره استعمال الإمام للعمال والسعاة في جباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا.
- ٤ - قوله إن ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ لأب.
- ٥ - وقوله إن المضطر بالجوع لا يمضى بيع ماله إذا باعه لأجل ذلك، وعلى من شهد مضرته تنجيته.

(١) الشماخي: السير ١٨٧، د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٩٣ - ٣٩٤.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٤، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٩٦ - ١٩٧.

(٣) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٥.

٦ - وقوله إن فقد لا يتحقق إلا فيمن تجاوز البحر^(١).

«ولما بلغ الإمام خبر نفات وانتقاده عليه قال: ليأت إلينا نفات فيوضح لنا ما أنكره منا فإن كان حقاً قبلناه وإن كان باطلاً «فإيه» فلما سمع نفات ذلك وعلم بطلان حجته قال: إن كلمة «اية» من السلطان هي القتل عينه فإلى أين أذهب؟ وبقي على ذلك والإمام لم يأذن فيه بشيء والعمال لم يتجاسروا على معاملته بسوء النظار إلا أن الإمام فيما يراه من الحكم، إلى أن شاع أمره وذاع خبر خلافه وفساد عقيدته، فكتب عمال الإمام الذين بلغهم خبره إليه ببيان حاله ومسائله التي خالف فيها^(٢).

والنص السابق يبرز لنا حقيقة مهمة تتجلى في المبدأ المهم الذي سار عليه أفلح بن عبد الوهاب متأسياً بمن سبقه من الأئمة الرستميين ألا وهو مبدأ احترام حرية الفكر والرأي لسائر الأفراد في الدولة، وقد رأينا قبل ذلك عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم يناقش الواصلية ويفند آراءهم ويفسح المجال للمناقشة معهم على جميع المستويات، والطريقة والأسلوب نفسيهما يدعو أفلح نفاتاً لعرض أفكاره أمامه فإما أن يقتنع الإمام، وإما أن يقنع الإمام نفاتاً.

وخوفاً على ما قد تُحدثه آراء نفات من بلبلة بين العامة فقد بعث أفلح بالرسائل إلى العمال كي يقرءوها على العامة لتحذيرهم من آراء نفات، وفي الوقت نفسه بعث إلى نفات برسالة أخيرة تشير إلى انتهاء مرحلة اللين معه^(٣). فخاف نفات على نفسه وجمع أمواله وهرب إلى أرض سرت ومنها إلى بغداد حيث أقام هناك^(٤) وظل هناك في جبل نفوسة بعض الذين تأثروا بأراء نفات بن نصر وظلوا يحملونها؛ لذا عُرفوا بالنفاتية^(٥). وعن طريق احترام أفلح مبدأ حرية الفكر والرأي في دولته استطاع أيضاً أن يجذب الواصلية ويستميلهم إلى جانبه بعد أن كانوا أعداء لوالده بالأمس، فأصبح رئيساً للواصلية إلى جانب كونه رأساً للإباضية والصفورية، ونجح بهذا في احتواء هذه

(١) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٥، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٩٩.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٠٤.

(٤) الباروني: المصدر السابق ٢ / ٢٠٦.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٨.

الجماعات، وفي ذلك يقول البكري: «وكان ميمون «أفلح بن عبد الوهاب» رأس الإباضية وإمامهم وإمام الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة^(١)، وتدعيماً لأركان الدولة ظل الإمام أفلح يكتب الكتب إلى العمال الذين يقومون بدورهم في نقلها إلى العامة، وتدعوهم هذه الكتب إلى تقوى الله، وأتباع آثار السلف الصالح وأن يقوموا لله بالعدل في عباده وبلاده»^(٢). وكان لهذه الرسائل أثرها في تهدئة الأحوال في الدولة، حتى أصبح عهد أفلح بن عبد الوهاب عهد ازدهار الدولة الرستمية.

٣ - مظاهر ازدهار الدولة في عهد أفلح بن عبد الوهاب

ساد الهدوء في بلاد الرستمين ومن ثم اتجهت طاقات أبنائها إلى العمل على تقدم الدولة وازدهارها، وبدأت طلائع هذا التقدم تظهر في حياة الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي شُيخ في ملكه وأخذ في بناء القصور واتخذ لها أبواباً من الحديد وبنى الجفان وأطعم فيها في أيام الجفان «وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق»^(٣).

أما البلاد فقد حفلت بأنواع التجارات التي عادت على الناس بأرباح وفيرة أنفقوها في البناء والعمران، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنوا القصور والضياع خارج تاهرت، وشقوا لها الأنهار لحمل الماء إليها، واتخذ أغنياء تاهرت لأنفسهم قصوراً غاية في الأبهة والعظمة، ذكر منها ابن الصغير قصرى أبان وحمويه باملاق، وقصر عبد الواحد الذي كان معروفاً باسمه حتى أيام ابن الصغير^(٤). وقد أعجب ابن الصغير بجمال هذه القصور وروعها ودقة النظام بها، الأمر الذي دفعه إلى وصف قصرى أبان وحمويه فيقول «ولقد حدثني بعض من أثق به أن أبان وحمويه خرجا يوماً إلى قصورهما متنزهين ومعهما جماعة من إخوانهما، فذكر بعضهم أنه قال: لما أشرفنا على القصرين سبق بنا بعض عبيدهما فأعلموا سكان القصرين بقدومهما قال: فتشوق من كان بالقصرين إليهما فوالله ما رأيت شرافة من القصرين إلا وعليها ثوب أحمر

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧ - ٦٨.

(٢) البكري: المصدر السابق ٦٨.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستمين في تاهرت ٢٦.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦.

وأصفر على الجدار كالبدور»^(١)، وإلى جانب هذه القصور الضخمة كانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات فابنت نفوسه لنفسها حتى «العدوة» وقامت جماعات الجند القادمة من إفريقية هرباً من بطش الأغالة ببناء حيهم الذي أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم «المدينة العامرة»^(٢).

وكان للعجم دورهم في إثراء الدولة الرستمية وازدهارها، عن طريق التجارة التي كانوا يمارسونها، وقد راينا أحدهم وقد ابتنى سوقاً تجارية عُرفت باسمه وهي سوق ابن وردة، وكذلك انتشرت قصور العجم في أنحاء تاهرت^(٣)، وصارت مؤسساتهم التجارية تكوّن جزءاً مهماً من اقتصاديات الدولة الرستمية. ولم تكن مظاهر الازدهار هذه مقصورة على تاهرت قائمة فيها، وإنما انتقلت إلى سائر جهات الدولة فنالت القبائل حظّها من الثورة، وظهرت عليها آثار الرخاء، يقول ابن الصغير: «وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم»^(٤)، ويقول في موضع آخر: «وآمنت الساحات وكثرت الأموال حتى أطغت أهل الحواجز والبوادي»^(٥).

كما نالت الدولة أيضاً حظّها من الازدهار الثقافي فاصبحت تاهرت مركزاً ثقافياً مهماً كغيره من المراكز الثقافية الإسلامية، فعرف الرستميون الثقافة ونبغوا في مناحيها، وخصوصاً الثقافة الدينية؛ لأن الأئمة الإباضية كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكونوا على أهبة للدفاع عن آرائهم ومبادئهم بالحجة الدامغة والدليل القوي^(٦). لذا فقد امتلأت مساجد تاهرت بطلاب العلم يتلقونه على أيدي كبار علماء الإباضية في أصول الدين والشريعة والرياضيات والطب والكيمياء والتنجيم، وشاركت المرأة الرستمية في هذه النهضة الثقافية، فكانت أخت الإمام أفلح ممن نبغن في علم الحساب والفلك والتنجيم، بل إن أفلح نفسه كان ممن ضربوا في زحمة كل فن من فنون العلم، فنبغ في الأدب وقال الشعر، وقد أورد الباروني لأفلح

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٦.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٧.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٦-٢٧.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٧.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٧.

(٦) محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ٣٠ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

قصيدة طويلة بلغت ثمانية وثمانين بيتًا يدعو فيها إلى الإقبال على العلوم الدينية^(١)
نذكر منها:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا	وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحیی به ذكرهم طول الزمان	قد يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
يحیی وإن مات ذو علم وذو ورع	إن كان في منهج الأبرار مامارا
أو أنها غيّرت أشخاصهم ومضوا	ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة	ولا يبالي أخيرا نال أم عارا ^(٢)

والذي يظهر من هذا العمل الأدبي أن الثقافة المشرقية أصبح لها جذور ثابتة في بلاد المغرب، وكانت هذه المحاولات من جانب أفلح بن عبد الوهاب في مجال الشعر مقدمة لظهور الأدب المغربي بعد ذلك.

وكان لازدهار الدولة الرستمية على هذا النحو آثاره الخطيرة على جيرانهم؛ فقد تضخم ملك الرستميين تضخمًا كبيرًا وتآلق نجمهم في سماء المغرب كله، وأصبحت تاهرت تحتل مكان الصدارة في بلاد المغرب^(٣). وقد أحس الأغلبة خطورة هذا الأمر على مركزهم السياسي والاقتصادي، فقام أبو العباس محمد بن الأغلب^(٤) ببناء مدينة قرب تاهرت سمّاها العباسية سنة ٢٣٩هـ^(٥)؛ لتقف في وجه الرستميين وتجذب الأنظار عنهم وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت، لذا لم يدخر أبو العباس محمد بن الأغلب وسعًا في ترتيب أسواقها على نسق وترتيب غريب^(٦).

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٥.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ١٩٠ / ٢.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٥٦٨.

(٤) هو محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أبو العباس سادس ملوك الدولة الأغلبية بإفريقية، ولى بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٦هـ وذات له البلاد وحسنت سياسته فاستمر إلى أن تولى بالقيروان سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م وكان مولده سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م من آثاره بناء قصر سوسة وجامعها سنة ٢٣٦هـ قال ابن الخطيب: «كان مظفرًا في حروبه على ما فيه من جهل وأفن واستغراق في اللهو». انظر المزيد في: أعمال الأعلام ١٠، الخلاصة النقية ٢٨، تاريخ ابن خلدون ٤ / ٢٠٠، البيان المغرب ١ / ١٠٧، الكامل ١٧٦ / ٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥١٩ / ٦.

(٦) الباروني: الأزهار الرياضية ١٨٦ / ٢.

وهذا ما يفسر أهمية السبب الاقتصادي الذي أقيمت العباسية من أجله.. ورغم أن أفلح بن عبد الوهاب سالم جيرانه الأغلبية - بادئ ذي بدء جرياً على ما سار عليه والده عبد الوهاب - فإنه رأى أن في إقامة العباسية تهديداً لسلامة الدولة الرستمية وأمنها^(١). فما كان منه إلا أن سكت حتى أتم أبو العباس محمد بن الأغلب بناءها ونظم أسواقها فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أضرم فيها النيران وأحرقها عن آخرها^(٢). ولم يكن في استطاعة محمد بن الأغلب أن يفعل شيئاً للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم أثر السلامة ولاذ بالصمت^(٣).

٤ - وفاة الإمام أفلح

وكان للإمام أفلح بن عبد الوهاب ولدان هما: أبو بكر وأبو اليقظان... واشتهر أبو اليقظان بالتقوى والورع، وقد أبدى رغبته قبيل وفاة والده أفلح في الحج إلى مكة. وعندما وصل أبو اليقظان إلى مكة وطاف وسعى اكتشف رجال بني العباس وجوده بين الحجيج وسمعوا أن أبا اليقظان قدم من المغرب يرتاد البلاد، ويرسل رسله في كل الآفاق إلى كل من كان على رأيهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب. قبض العباسيون على أبي اليقظان ومعه رجل من نفوسة كان يخدمه وحمل الاثنان معاً إلى بغداد؛ حيث أمر الخليفة العباسي الواثق بحبس أبي اليقظان، وفي السجن التقى أبو اليقظان «المتوكل أخى»^(٤).

(١) محمد بن تاووت: دولة الرستمين أصحاب تاهرت ١١٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦ / ٥١٩، ابن خلدون: العبر ٤ / ٢٠٠، البلاذري: فتوح البلدان ١ / ٢٧٧.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٨.

(٤) هو جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد أبو الفضل، خليفة عباسي، ولد ببغداد سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ وكان جواداً معنوياً محباً للعمران، من آثاره: المتوكلية ببغداد أنفق عليها أموالاً كثيرة وسكنها ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتاباً قرئ على المنبر بترك الجدل في القرآن، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو خير خلقه، ونقل مقر الخلافة من بغداد إلى دمشق فأقام بهذه شهرين فلم يطب له مناخها فعاد وأقام في سامراء إلى أن اغتيل فيها ليلاً بإغراء ابنه المنتصر، وبعض الشعراء هجاء في المتوكل لهدمه قبر الحسين وما حوله سنة ٢٣٦ هـ وكثرة الزلازل في أيامه فعمر بعض ما خربت. وكان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر ويأمر بالفرش الأحمر ولا يرى الورد إلا في مجلسه، وكان يقول: «أنا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين وكل منا

الخليفة الواثق^(١) فأصبح صديقاً حميماً له، وسيصبح لهذه الصداقة أثرها في حياة أبي اليقظان بعد ذلك^(٢).

ولما علم بما حدث لولده أبي اليقظان اشتد حزنه «وطال غمه به فلم يزل مهموماً محزوناً إلى أن وافته منيته وابنه محبوس ببغداد»^(٣) وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م^(٤).

أولى بصاحبه^(٥). انظر المزيد في: تاريخ بغداد ٧ / ١٦٥، النبراس ٨٠-٨٥، ثمار القلوب ١٤٩، تاريخ اليعقوبي ٣ / ٢٠٨، الكامل ١١، ٧ و ٢٩، تاريخ الطبري ١١ / ٢٦ و ٦٢، مروج الذهب ٢ / ٢٨٨.

(١) هو هارون الواثق بالله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسي أبو جعفر، من خلفاء الدولة العباسية بالعراق. وُلد ببغداد سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م وولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧ هـ فامتحن الناس في خلق القرآن وسجن جماعة، وقتل في ذلك أحمد بن نصر الخزاعي بيده سنة ٢٣١ هـ قال أحد مؤرخيه: كان في كثير من أمره يذهب مذهب المأمون وشغل نفسه بمحنة الناس في الدين فافسد قلوبهم ومات في سامراء قيل: بعلّة الاستسقاء. وقال ابن دحية: كان مسرفاً في حب النساء ووصف له دواء للتقوية فمرض منه وعولج بالنار فمات محترقاً. كان كثير الإحسان لأهل الحرمين حتى قيل إنه «لم يوجد بالحرمين في أيامه سائل». انظر المزيد في: الكامل ٧ / ١٠، تاريخ الطبري ١١ / ٢٤، تاريخ اليعقوبي ٣ / ٢٠٤، الأغاني ٩ / ٢٧٦-٣٠٠، تاريخ الخميس ٢ / ٣٣٧، معجم الشعراء ٤٨٤، النبراس ٧٣-٨٠، مروج الذهب ٢ / ٢٧٨-٢٨٨، تاريخ بغداد ١٤ / ١٥.

(٢) ابن الصغير: سيرة الرستميين في تاهرت ٢٧-٢٨.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٠.

(٤) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٢١، ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٧، الدرر جيني: طبقات الإياضية ورقة ٣٦ و ٣٧، أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣١ ب.

الفصل الرابع
خلفاء أفلح بن عبد الوهاب
(٢٤٠ - ٢٩٦ هـ / ٨٥٤ - ٩٠٨ م)

(أ) إمامة أبي بكر بن أفلح ٢٤٠ - ٢٤١ هـ / ٨٥٤ - ٨٥٥ م

نعمت الدولة الرستمية بالرفاهية التامة في عهد أفلح بن عبد الوهاب؛ إذ إن أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسة، لذا احتفظت الدولة في عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين سائر جيرانها. وبوفاة أفلح بن عبد الوهاب سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م تغيرت الأمور، إذ تولى الإمامة ابنه أبو بكر الذي لم يكن على المستوى المطلوب للحاكم الذي يسوس دولة لها أهميتها مثل الدولة الرستمية. وقد اجتمع أهل الحل والعقد من نفوسة وغيرهم وعقدوا الإمامة لأبي بكر بن أفلح سنة ٢٤٠ هـ^(١)؛ لأنهم لم يجدوا غيره في أبناء البيت الرستمي: فأخوه أبو اليقظان مقبوض عليه في بغداد، ويعقوب بن أفلح مازال صغيراً حدث السن لا ينفع للإمامة^(٢). لم يستطع الإباضية بذلك تطبيق مبدأ الانتخاب العام أو التخلص من مبدأ الوراثية «أو أنهم لم يستطيعوا التخلص من أفكارهم الأولى عندما كانوا شيعة يطالبون بأن تكون الإمامة وراثية في أهل البيت»^(٣). ورفض الكثيرون من الإباضية ممن يؤمنون بمبدأ الانتخاب العام إمامة أبي بكر؛ فقد «كان عبد العزيز بن الأوز ينادى بأعلى صوته: الله سائلكم معاشره نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من

(١) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٢١.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٥٩.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٨٦.

هو أتقى وأرضى فلا يلتفتون إلى كلامه ولا يشتغلون بمقالاته^(١). وواضح عن هذا النص أن هناك قوة سياسية ضخمة وهي قوة نفوسة في تاهرت كانت تحافظ على بقاء الإمامة في البيت الرستمي رغم معارضة المعارضين ورفض بعض الناس إمامة أبي بكر^(٢).

كان أبو بكر ضيعفًا ليس فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه، وكان سمحًا جوادًا كما يقول ابن الصغير «يسامح أهل المروات ويشايحهم على مرواتهم وبحب الأدب والأشعار وأخبار الماضين»^(٣). لذا مال إلى الخمول والكسل والراحة وانصرف إلى حياة اللهو والترف، تاركًا شئون الدولة لصهره محمد بن عرفة الذي سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح بن عبد الوهاب وملك السودان^(٤). وكان محمد ابن عرفة هذا قد تزوج بأخت أبي بكر بن أفلح، وفي الوقت نفسه كان لمحمد بن عرفة أخت أو بنت جميلة تزوجها أبو بكر^(٥)؛ لهذا تضخم نفوذ ابن عرفة وأصبح له سلطان كبير في الدولة الرستمية، وقد سجل ابن الصغير هذا فقال: «فكانت الإمارة بالاسم لأبي بكر» وبالحقيقة لمحمد بن عرفة^(٦)، وقد ترتب على ذلك ضعف سلطة الإمام على القبائل مما أدى إلى زيادة الخلافات بين هذه القبائل «فكانت الحروب بينها تهيج ثم تسكن على حد تعبير ابن الصغير»^(٧)، بل إن الخلافات تطرقت إلى داخل بعض القبائل الكبرى في الدولة وأدت إلى انقسامها ولاسيما هوار «فإنها تحاسرت حتى انقسمت، فأنحاز قسم منها يُعرف ببني أوس إلى من والاه من القبائل الأخرى، وأنحاز القسم الآخر ويُعرف بترهنة كذلك إلى غيرها»^(٨).

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣١.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٢٢.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣١.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣١.

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٢٣.

(٦) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣١.

(٧) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٢.

(٨) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٢٤.

عودة أبي اليقظان من المشرق

وفى تلك الأثناء عاد أبو اليقظان من العراق - بعد أن أطلق سراحه الخليفة المتوكل العباسي - «فوجد «أبو اليقظان» أخاه أبا بكر أميراً، والعجم على أحوالهم والنفوس على مراتبهم وسائر الناس على ما هم عليه، فلم يغير شيئاً ولم ينكره ولا ادعى إمارة ولا نازع فيها أخاه»^(١)، وانصرف أبو بكر إلى ملذاته وشهوته وترك إلى أبي اليقظان تسيير أمور الدولة، فكان أبو اليقظان يجلس في المسجد إلى الناس والعمال والقضاة وأصحاب الشرطة لإجراء الحقوق إلى الناس، عظم قدرهم أو صغر، فإذا كان آخر النهار ذهب إلى أخيه أبي بكر فإن وجدته جالساً أعلمه بما حدث في يومه من خير وحكم، فإن لم يجده قال لمن علم أنه يصل إلى حرمة: «اقرأ على الأمير السلام، وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادية وإذا كان في الليل ركب وطاف في المدينة حتى أقصاها ويحكم الأمر الضروري ويأمرهم إذا حدث حادث أن يوافقوا داره فإذا حكم جميع ذلك انصرف إلى داره»^(٢).

وبينما كان أبو اليقظان يُحكم تدبير الدولة وشئونها، كان نفوذ ابن عرفة في ازدياد وصيته في دوى وأسهمة في ارتفاع، مما أوغر صدر رؤساء الإباضية عليه، حتى إذا واتتهم فرصة الاجتماع بأبي بكر قالوا له: «إنك ذاهب ونحن ذاهبون. قال: وكيف ذلك؟ قالوا له: ما نحسب أنك تعلم مجيء ابن عرفة إذا جاء فيمن يجيء ولا انصرافه إذا انصرف فيمن ينصرف ولا اجتماع الناس عند بابك إذا جاء ولا خلوه إذا انصرف»^(٣). أقلقته هذه الأخبار أبا بكر بن أفلح وأراد أن يتأكد بنفسه من صدق ما وصله من أقوالهم، فنظر من طاقة في أعلى قصره إلى الجهة التي يأتي منها محمد بن عرفة، فإذا هو قادم في موكب من الناس قد بادروا إليه من كل جانب، فنزل أبو بكر إلى مجلسه وقد هاله ما رآه من أمر محمد بن عرفة، وتكرر هذا المنظر ثانية حين انصرف محمد بن عرفة فصعد أبو بكر إلى الطاقة نفسها ونظر منها «فإذا الأمم التي أقبلت قد انصرف وبقي بابه خالياً فتحقق عنده ما قال القائل»^(٤).

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٢.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٢ - ٣٣.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٣.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٤.

ويذكر ابن الصغير أن أبا بكر استشار أحد أصحابه في أمر محمد بن عرفة، فأشار عليه بقتله على أن تتم عملية القتل في سرية تامة. وتردد أبو بكر فيما أشار به صاحبه، وكان يقول: «أحسب نفسي تطوع في ذلك ولا سيما أخته تحتى وأختي تحتى حتى أنا شككت في البنت أو الأخت، ومتى ما فعلت ذلك تنغصت حالي وكفت كقاطع كفى بكفى»^(١)، ولكن عواطف أبي بكر بن أفلح ما لبثت أن تبددت وأرسل يدعو محمد ابن عرفة إلى نزهة خلوية في حدائق تسمى «جنان الأمير» دون أن يحضر معه أحد من حاشيته أو عبيده، وفي «جنان الأمير» قضى الاثنان يومهما حتى إذا جاءت صلاة المغرب، ووقف للصلاة أشار أبو بكر إلى غلامه فضرب محمد بن عرفة بحربة كانت بيده بين كتفيه فأرداه قتيلاً^(٢). ويصور ابن الصغير ذلك المشهد الرهيب فيقول: «فلما علم ذلك أبو بكر قال لغلامه زملته بشيابه واحمله على فرسه ففعل الغلام ما أمر به وركب أبو بكر فرسه وشيء بين يدي الغلام والغلام خلفه حتى أتى جيلاً قد تقسم نصفين له هواة أعظم يُعرف ذلك الموضع بالشقة الحمراء فقال له: ألقه في الهواة، فألقاه فيها وأمره أن يغيب فرسه ولا يُظهره وانصرفا حتى دخلا المدينة»^(٣).

وأحدث تغيب ابن عرفة درجة عظيمة في تاهرت، فخرج أتباعه وأنصاره يبحثون عنه حتى وجدوا جثته فحملوه إلى النهر الذي قُتل عنده «وبعثوا إلى داره وأتوا منها بفرس له، وكسوة طاهرة وسيفه فغسلوه في النهر وأنظفوه وطيبوه ثم كسوه ثيابه وقلدوه سيفه وحملوه على فرسه وجعلوا خلفه رجلاً يحبسه حتى أتوا به مدينة تاهرت فابتدر إليه العامة والخاصة والنساء والصبيان وألحق الناس من الجزع ما لم يلحقهم في قتل قبله، وقام مناد ينادي بين يديه: ألا إن القتل المظلوم يأمركم بطلب ثأره ودمه، فعمَّجَل الناس بجهازه ودفنه ثم جلسوا حلفاً حلفاً يذكرون أمرهم»^(٤).

الحرب الأهلية في تاهرت

كانت ردود الفعل لمقتل ابن عرفة قوية عنيفة في تاهرت؛ حيث تجمع أنصار

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ٣٤.

(٢) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٦.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٨٨، ابن الصغير: المصدر السابق ٣٥.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٦ - ٣٧، الباروني: الأزهار الرياضية ٢/ ٢٣٠.

محمد بن عرفة بقيادة محمود بن الوليد ومعهم جند القيروان بقيادة خلف الخادم مولى الأغلب بن سالم^(١) وكان هؤلاء الجند قد أعلنوا في مناسبات كثيرة تمردهم على الأغلبة واستقروا بتاهرت وأسسوا لهم ربضاً كبيراً بها يُعرف بالمدينة العامرة، وطبيعي أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدون أنصار محمد بن عرفة في محتتهم لابن عرفة عربى وقروى مثلهم وافد من القيروان^(٢). وإلى جانب هؤلاء الثائرين وقف عدد من وجوه التجار في تاهرت منهم أبو محمد الصيرفى وابن الواسطى^(٣)، وقد دفع هؤلاء التجار الكثير من أموالهم رغبة منهم في تحطيم الإمامة وإنهائها، وكانوا يقولون للمطالبين بشار ابن عرفة من العرب والجند: «لو بنيتم حصناً تأمنون فيه ليلكم وتحصنون فيه إن دهمكم شيء من عدوكم وهذه أموالنا فى أيديكم. فشرعوا فى بناء الحصن ولم يكن بين حصنهم وحصن عدوهم إلا قدر رمية رام بسهم»^(٤). هؤلاء هم الثائرون المطالبون بشار محمد بن عرفة. أما الإمام أبو بكر بن أفلح فلم يكن معه سوى خاصته من الرستميين وبعض المسيحيين، وقد خاض بهم معاركه الأولى مع العرب والجند. أما العجم فقد انتهزوا فرصة اشتغال العرب والجند فى مقاتلة الإمام وأتباعه وهاجموا أطراف المدينة التى يمتلكها العرب والجند^(٥). أما أبو اليقظان بن أفلح فقد أثر عدم الخوض فى هذه الحرب هو ونفوسه بل إنه انتقل إلى عدوة نفوسة وأقام بها. وإن كان العرب والجند ينظرون إلى موقف أبى اليقظان هذا بكثير من الشك ويرونه يحرض عليهم فى السر^(٦). تحولت الحرب الأهلية فى تاهرت إلى حرب بين العجم والعرب ومعهم جند القيروان، أما أبو بكر بن أفلح فقد تشاءم الناس منه، فبقى فى داره لا يأمر ولا ينهى^(٧)، ومما يلاحظ هنا أن العناصر المتصارعة فى هذه الحرب

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٣٦.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب العربى ٥٦٠، محمد على ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٥٧١.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٣٨ - ٣٩.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٩.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٠.

(٦) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٣٧.

(٧) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٧.

الأهلية لم يكن هدفها الأساسي هو الثأر لمحمد بن عرفة بقدر ما كان هدفها تحقيق مصالحها الخاصة وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أن جند القيروان برغم عدائهم للأغالبة فقد اندس بينهم عدد من جواسيس الأغالبة الذين قاموا في الدولة الرستمية بأعمال الطابور الخامس، بهدف تقويض هذه الدولة والقضاء عليها، وكان لخلف الخادم - مولى الأغلب بن سالم - دور خطير في القيام بمثل هذه الأعمال، فقد كانت له «أموال عظيمة فأعان القوم بنفسه وماله»^(١) كما كان خلف المحرض الأول للعرب والجند لإحراق درب النفوسيين ليقتحمهم في الحرب الأهلية. ولم يفت ابن الصغير أن يذكر هذا العمل من أعمال خلف فأشار إليه بقوله: «وكانت العرب والجند إذا غلبت على العجم أخرجتها من بعض ديارها في حالها، فقال لهم خلف الخادم: وما تصنعون شيئاً إذا غلبتم على شيء من ديارهم فأضرموه ناراً فلما كان اليوم الثاني وقع الحرب فيه بجوار درب النفوسيين... وكان أكثره للعجم وبعضه لنفوسة واضرمت الدرب ناراً فغضبت نفوسة»^(٢).

ثانياً: أن العجم عندما شرعوا في الحرب مع العرب والجند، كان هدفهم أن تصبح لهم المكانة الأولى والأخيرة في تاهرت إذ قاموا بدور المنقذ للبلاد والسلطان، وقد أشار إلى هذا ابن الصغير بقوله «فلما رأت العجم ما نزل بين الفريقين من السباب والقتل قالوا: قد أمكننا في العرب والجند ومواليهم وأتباعهم ما نريد فقوموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى نثبت على طرف المدينة فنقتل مقاتلتهم ونخرب ديارهم ونميل على سائرهم فنهلكهم فيصفو لنا البلد والسلطان وقد وقع بينهم وبين سلطان البلد «أبو بكر بن أفلح» من الفتق ما لا يرتفق أبداً له»^(٣).

ثالثاً: كانت الضغائن التي بذرها أفلح بن عبد الوهاب بين القبائل قد عملت عملها، وظهرت سافرة في عهد أبي بكر بن أفلح، وما لبثت أن طفت إلى السطح مرة أخرى حتى أصبحت الحرب لا تفتري ليلاً ونهاراً، وحميت بينهم حمية الجاهلية،

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٧.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٧ - ٣٨.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٨.

وصارت الحرب بينهم على قول ابن الصغير «سعة ورياء»^(١). ولما نجح الجند في إحراق درب النفوسيين دخلت الحرب الأهلية في تاهرت مرحلة جديدة، فقد وجدت نفوسة صفوفها مع العجم والرستمية بقيادة أبي اليقظان بن أفلح لإنقاذ الأمور المتدهورة في تاهرت، وقد أحرز هذا التحالف انتصارات متتالية على العرب والجند في وقائع كثيرة منها واقعة قنطرة الدمس وواقعة قنطرة سليس وواقعة الرد الحواج^(٢) ولكن موقف أبي اليقظان وحلفائه بدأ في الضعف والتراجع أمام قوة العرب والجند المتزايدة، حتى أنهم تفرقوا خارج تاهرت فنزلت العجم بموضع يقال له تنابغيلت وهي على مرحلتين من مدينة تاهرت، ولحق الرستميون بأبي اليقظان واستقروا عند موضع يقال له «اسكدال» وهو على مسيرة يوم بقبلة تاهرت أما نفوسة فنزلت بقلعة نفوسة التي بنوها في عدوتهم المشهورة بعدوة نفوسة^(٣) أما أبو بكر بن أفلح فقد خرج مع من خرج من تاهرت لا حيا ولا ميتا كما يقول ابن الصغير^(٤) ويدل هذا التعبير من ابن الصغير على مدى ما كان فيه أبو بكر من حالة سيئة وإحساس بالألم لما جناه على نفسه وعلى الناس.

وقد انتهز محمد بن مسألة الهواري الإباضي فرصة خروج الرستميين من تاهرت فاستولى عليها وأصبح لهوارة اليد العليا في تاهرت «وكانت لواته إذ ذاك بالمدينة مع أهل المدينة فتسلطت عليها هوارة بسلطانها وأعانها أهل المدينة، فلما رأت لواته ذلك طعنت عن المدينة وخلت عنها ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواته»^(٥). وكان لخروج لواته من تاهرت تغيير في ميزان القوى مرة ثانية في صالح الرستميين، فقد أرسلت لواته إلى أبي اليقظان ودعته إلى النزول إلى جوارها بموضع يقال له «تسلوننت» التي تخرج من عندها عيون نهر مينة الذي يجري إلى تاهرت. وهناك

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٨ - ٣٩.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٨.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٨ - ٣٩.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٧.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٧.

تمت مبايعة أبي اليقظان بالإمامة بعد أن اعتزلها أخوه أبو بكر بن أفلح سنة ١٤١ هـ^(١) «فصارت الدعوة والإمامة كلها لأبي اليقظان وأتته الإباضية من كل الأقطار»^(٢) ومن تاهرت نفسها خرج الكثيرون ممن يحبون أبا اليقظان فأعلنوا ولاءهم له وبايعوه بالإمامة^(٣).

ظل أبو اليقظان يهاجم تاهرت طيلة سبع سنوات متتالية دون جدوى، فأرسل في طلب العون العسكري من جبل نفوسة فلبّت قبائل الجبل نداءه وأرسلت إليه أعدادًا وفيرة من الرجال، تحرك بهم أبو اليقظان حتى نزل في غرب تاهرت «فلما نزل منزله قالت نفوسة: لا نقاتل حتى نرسل إلى إخواننا وننذرهم فإن جاءوا ورجعوا إلى الطاعة، كانت أيدينا وأيديهم واحدة وإن أبوا منا ذلك نزلنا معهم على حكم الله»^(٤). وما أن وصل رسل نفوسة إلى تاهرت حتى وجدوا الناس قد ملوا الحرب فاتفقوا معهم على عقد الصلح مع أبي اليقظان على ألا يأخذ أحدًا بما سلف من أعماله «ثم خرجت طائفة من عسكر أبي اليقظان حتى اجتمعت بطائفة من أهل المدينة فعقدوا ذلك فيما بينهم»^(٥). وأكدت نفوسة أهمية هذا الصلح للمجتمعين حيث قالت: «إنما جئنا لإصلاح بيضتنا وتأليف أمرنا وقوام ديننا ولم نأت لطلبه علو في الأرض أو فساد»^(٦).

وفور توقيع الصلح جرت الاستعدادات لدخول تاهرت، فرحل أبو اليقظان بعساكره حتى وصل إلى الظاهر المشرف على مدينة تاهرت المعروف بقلعة نفوسة، وهناك ضرب الإمام سرادقه الذي قدم به من بغداد. وكان سرادقًا عظيمًا، وهو أول سرادق يضرب في دولة الرستميين، إذ كانوا قبل ذلك يضربون المضارب والقباب^(٧).

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٤٠، الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٢٣٧، ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٧، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٣٧.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٤٠.

(٣) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٣٧.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٠.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٠.

(٦) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٠.

(٧) ابن الصغير: المصدر السابق ٤١.

وظل أبو اليقظان مقيمًا في سرادقة حتى بنى له أهل المدينة داره التي كانت قد تهدمت في أثناء الحرب وتحولت إلى مزبلة أوكدية من الكداء فقام الأهالي «فكنسوها في يومهم ذلك فابتنوها في أسرع الأيام فلما فرغت نزلها أبو اليقظان ورفع مضاربه ونزل الناس المدينة»^(١). وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحرب الأهلية التي أوشكت أن تقضى على الدولة الرستمية نهائيًا، وكان لجهود أبي اليقظان ونفوسة الأثر الكبير في عودة الحياة الطبيعية إلى هذه الدولة مرة ثانية.

(ب) إمامة أبي اليقظان بن أفلح ٢٤١ - ٢٨١ هـ / ٨٥٥ - ٨٩٤ م

شخصية أبي اليقظان:

لم تذكر المصادر والمراجع شيئًا عن المراحل الأولى من حياة أبي اليقظان، وإنما اكتفى بعضها بالحديث عن ورعه وتقواه وأنه كان حسن الحال عند جميع الناس، وقد أفاض ابن الصغير في الحديث عن تقواه وخوفه من الله وأن ذلك دفعه إلى طلب الذهاب إلى الحج، وألحَّ على والده أفلح أن يأذن له في ذلك، فأذن له رغم الأخطار التي قد يتعرض لها. وخرج أبو اليقظان مع قافلة الناس حتى إذا ورد مكة قبض عليه رسل بني العباس، وحملوه من مكة إلى بغداد، وهناك زُجُّوا به في السجن^(٢)، وقد نقل ابن الصغير في كتابه حديثًا لأبي اليقظان عندما سُجن في بغداد قال: «وافق حبسى حبس المتوكل أخى الخليفة الواثق كان قد نقم عليه فأنقم: قال: فأمر بنا جميعًا فحُبسنا في موضع واحد»^(٣)، وأجرى الخليفة على أبي اليقظان كل يوم مائة وعشرين درهمًا، وكان المتوكل صديقًا حبيبًا لأبي اليقظان فلا يأكل طعامًا ولا يشرب شرابًا إلا مع أبي اليقظان، وظلت الأحوال بهما كذلك حدثت ضجة في السجن من حولهم «وإذا بالخليفة الواثق قد قُتل وقدم صاحبى الخليفة المتوكل الذى فى الحبس معى مكانه قال: فما شعرنا أن دخلت له الصقالبة والأجناد علينا فاختطف من بين أيدينا ولم يسم من حدثنا من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة القائم. قال: أبو

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٤١.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٨.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٨.

اليقظان: فلما استقل الملك بصاحبي وقعدت قواعده أمر بي فأخرجت»^(١). ويتحدث أبو اليقظان عن اللحظات التي التقى فيها الخليفة المتوكل بعد أن خرج من السجن يقول: «فلما مثلت بين يديه أمرني بالجلوس فجلست قال أبو اليقظان: فذكر ما كنت عليه بما يرى منى اجتهدًا في صلاة، وغيرها»^(٢)، وعرض عليه الخليفة أن يوليه أى بلد من المشرق أو المغرب، ولكن أبا اليقظان رفض هذا العرض فقد كانت عنده رغبة شديدة في العودة إلى بلاد المغرب، فوافق الخليفة على رحيله إلى المغرب «ثم أمر الخليفة الوزير بالنظر في أمرى وأمر جهازى وأمر لى بسرادق فضرب لى ثم أمر لى بنفقة وكسوة وكتب كتابًا إلى عماله بالأمصار بالحفظ والرعاية والبر والإكرام»^(٣).

وكانت لهذه الفترة التي عاشها أبو اليقظان في بغداد أثرها في تكوين شخصيته السياسية سواء تلك الفترة التي قضها مع المتوكل في السجن أو تلك التي قضها في بلاط العباسيين حتى ارتحل عنهم إلى بلاد المغرب، فقد رأى في هذا البلاط نظامًا أعجبه وكثيرًا ما وقف منها موقف المستغرب لها، ومن ذلك أن الخليفة عندما أمر بإخراجه من السجن خصص له وزيرًا يشرف على شئونه حتى يحين موعد لقائه بالخليفة على غرار ما هو معروف الآن ببعثة الشرف التي تصاحب رؤساء الدول وكبار الزوار، يقول أبو اليقظان: «فأخرجت وصيرنى إلى الوزير فأمره بحفظى وكرامتى، والنظر في أمرى إلى أن اجتمع معه فكنت معه مبرورًا مكرمًا»^(٤).

ومما شاهده أبو اليقظان أيضًا في بلاط العباسيين واطلع عليه نظام تعبئة الجيوش عند الحاجة إليها، فذات يوم عند انصراف أبى اليقظان من قصر الخليفة إلى داره الذى أعد له وجد الوزير واقفًا فى صحن ذلك الدار على فرسه، فوقف أبو اليقظان يتحدث إليه فيبينما هما كذلك إذ أقبل على الوزير عشرة رجال فنزلوا عن دوابهم فقال لهم الوزير: أتدرون لماذا أرسلت فى طلبكم؟ قالوا: لا علم لنا بشيء، فقال الوزير: «إذا كان الغداة فأحضرونى عشرة آلاف فارس، فقالوا: نعم أصلح الله الوزير، قال أبو اليقظان: فعجبت من قوله ومن قولهم وقلت يهزأ بهم أو يهزءون به أو أراد

(١) ابن الصغير سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٨

(٢) ابن الصغير المصدر السابق ٢٩.

(٣) ابن الصغير المصدر السابق ٣٠.

(٤) ابن الصغير سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٢٨.

أن يُظهر لى شيئاً أتحدث به فى المغرب لا أصل له»^(١)، وقد لاحظ الوزير على أبى اليقظان علامات الاستغراب فقال له: «مالك يا مغربى أراك تعاظمك ما سمعت؟ فقلت (أبو اليقظان): أصلح الله الوزير، كيف لا يتعاظمنى والله أصلحك لو كان ما سألتهم دراهم فى أكمامكم لما استطاعوا إحضارها إليك بالغداة، وكيف عشرة آلاف فارس؟»^(٢)، وأراد الوزير أن يزيل دهشة أبى اليقظان فقال له: «يا مغربى ترى هؤلاء العشرة؟ قلت: نعم. قال: تحت كل واحد منهم عشرة. كم هذا معك؟ قلت: ألف. قال: وتحت كل واحد من الألف عشرة. كم هذا معك؟ قلت: عشرة آلاف. قال الوزير: فإنما تخرج هذه العشرة فيدعو كل واحد منهم من تحت يده فيأمره بإحضار عشرة ثم يخرج كل واحد منهم من المأمورين فيأمر من تحت يده فيجتمع ذلك كله فى أقل من لحظة عين»^(٣).

كانت بلاد المشرق إذن رافداً من الروافد التى صبّت فى شخصية أبى اليقظان الكثير من المؤثرات التى جعلت لهذه الشخصية الكثير من الإمكانيات التى ساعدتها على إعادة الهدوء إلى الدولة الرستمية بعد الثورة العاتية المدمرة التى حدثت فى عهد أخيه أبى بكر، ومكنت أبى اليقظان من القيام بحركة إصلاح واسعة شملت نظم الدولة كلها، وقد عبّر ابن الصغير عن ظهور هذه المؤثرات المشرقية فى شخصية أبى اليقظان عندما عاد من المشرق يقول: «فصرف أبو بكر بن أفلح النظر فى المدينة وأحوازها إلى أخيه أبى اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والأخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بنى العباس وسيرهم»^(٤).

استقرار الأوضاع الداخلية فى عهد أبى اليقظان

استطاع أبو اليقظان بفضل شخصيته القوية ومكانته بين الجميع أن يظل فى الإمامة أربعين سنة متصلة^(٥). تمتعت الدولة الرستمية خلالها بكثير من الإصلاحات الداخلية

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٩.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٩.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٠.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٣٢.

(٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٣٧.

التي ساهمت في دعم مركز الدولة السياسي والاقتصادي والاجتماعي. فعلى أثر دخول أبي اليقظان إلى تاهرت استصلح للناس قاضيًا بعد أن شاورهم في ذلك، ووقع الاختيار على أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي الشيخ ثم ولى بيت المال رجلاً من نفوسة، وقدم على منبره من ارتضاه هو بنفسه لهذه المهمة. وألقى إلى قوم من نفوسة مهمة مراقبة الأسواق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على المظهر العام للعاصمة تاهرت من حيث نظافتها، وسيادة الأمن في ربوعها، كما كانت رعاية المساجد والمصلين بتاهرت من المهام الملقة على عاتق هذه الجماعة^(١).

وواصل أبو اليقظان جهوده في إصلاح ما أفسدته الحرب الأهلية «حتى عادت الناس إلى خطة سيرها القديم في سبيل العمارة والتجارة والبنيان واشتغلوا بطلب العلم.. وكاتب الإمام بعد إصلاحه الشئون الداخلية رؤساء سائر أتباع الإمامة في كل الجهات فأنت طائفة خاضعة وقدمت البيعة برضاء فرتب الولاة والعمال والحكام والقضاة وأصحاب الشرطة في الولايات كلها»^(٢).

ومن هذه الوفود التي قدمت على أبي اليقظان وفد نفوسة الجبل، الذين طلبوا من الإمام أن يقدم عليهم عاملاً يرتضيه، فأنزلهم دار الضيافة وطلب إليهم أن يكتبوا أسماءهم وأن يرفعوها إليه، وأمر كاتبه أن يكتب السجل، وعلى هذا السجل كتب أبو اليقظان بخط يده اسم العامل الذي اختاره وهو أفلح بن العباس^(٣) ولم تقف جهود أبي اليقظان في مضمار الإصلاح الداخلي عند هذا الحد، بل نهض بنفسه بباشر إلقاء الدروس على الطلاب والراغبين في العلم، وأرسل الرسائل إلى عماله في جميع الجهات، وفي هذه الرسائل يدعو الناس إلى تقوى الله والمساواة إلى طلب العلم واتباع السلف الصالح، والبعد عن الأهواء والبدع وما ينشره أعداء الدولة من أباطيل^(٤). ونتيجة لهذه الإصلاحات قويت الدولة الرستمية واستردت هيبتها في بلاد المغرب، وأصبحت قادرة على ردع أي محاولة للنيل من أراضيها أو استقلالها.

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٤١.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٤٧.

(٤) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٤٠ - ٢٤٢.

الغزو الطولوني

تعرضت حدود الدولة الرستمية الشرقية في عهد أبي اليقظان بن أفلح إلى الغزو من جانب الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م^(١)، وقد قام بهذا الغزو العباس^(٢) بن أحمد بن طولون الذي خرج من مصر متجهًا نحو بلاد المغرب مدعيًا أن الخليفة المعتمد^(٣) قد قلده إفريقية وأنه أقره عليها^(٤). وما أن وصل العباس بن أحمد إلى برقة حتى أرسل إلى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب يأمره بالدعاء له بإفريقية ويخبره بأنه سائر إليه^(٥). وفي الوقت نفسه أرسل إلى إلياس أبي منصور النفوسى عامل الرستميين على نفوسة يتوعده وينذره ويدعوه إلى الطاعة ويقول له: «أقبل بسمعك وطاعتك وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي وأبحت رحمك»^(٦). ولم

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ٣٢ / ٧، الكندي: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٢) هو العباس بن أحمد بن طولون من شعراء الأمراء، حكم مصر نيابة عن أبيه في خلال رحلة قام بها إلى الشام، وطمع بالملك في غياب أبيه، وظهر منه ما يدل على ذلك، فنصحته الوزير أحمد بن محمد الواسطي فقبض عليه ورأى عنده كتبًا من أبيه أحمد بن طولون تدل على أن الخبر وصل إليه، فخاف العباس وحمل ما استطاع من أموال الخزائن وفرّ إلى برقة سنة ٢٦٥هـ، وأظهر العصيان وعاد أبوه إلى مصر فوجه إلى إفريقية جيشًا قاتله العباس بجموع أنفق عليها ما معه من الأموال وفشل فقبض عليه وحمل إلى مصر فأمر أبوه بضربه وسجنه سجينًا فظل إلى أن مات سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٤م، وكان مولده سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م، وولى أخوه حمادويه بن أحمد بن طولون فطلب هذا من العباس أن يبايعه فامتنع فقتله. انظر: النجوم الزاهرة ٢ / ٢٠ و ٤٠ و ٤٩، الولاة والقضاة ٢١٩ - ٢٢٤.

(٣) هو أحمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم أبو العباس المعتمد على الله خليفة عباسى ولد بسامراء سنة ٢٢٩هـ / ٨٤٣م، وولى الخلافة سنة ٢٥٦هـ بعد مقتل المهتدى بالله يومين وطالت أيام ملكه وكانت مضطربة كثيرة العزل والتولية بتدبير الموالى وغلبتهم عليه، فقام ولى عهده أخوه الموفق بالله طمحة فضبط الأمور وصلحت الدولة وأبعدت يد المعتمد عن كل عمل حتى أنه اجتاحت يومًا إلى دينار فشم ينلها، وكان من أسمع آل عباس جيد الفهم شاعرًا إلا أنه لما غلب على أمره انتقده الناس، وكان مقام الخلفاء قبله في سامراء فانتقل المعتمد منها إلى بغداد، فلم يعد إليها أحد منهم بعده، ومات أخوه الموفق سنة ٢٧٨هـ فأهمل أمر الرعية ومات مسمومًا سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م، وقيل رمى في رصاص مذاب وكان موته ببغداد وحمل إلى سامراء فدفن فيها. انظر المزيد في: الكامل ٧ / ٧٧ - ١٥١، تاريخ اليعقوبى ٣ / ٢٢٨، البدء والتاريخ ٦ / ١٢٤، تاريخ الطبرى ١١ / ٢١٤ - ٣٤١، تاريخ الخميس ٢ / ٣٤٢، تاريخ بغداد ٤ / ٦٠، النبراس ٨٩، مروج الذهب ٢ / ٣٤٥، الديارات ٦٣ - ٩٦.

(٤) ابن خلدون: العبر ٤ / ٦٤٥، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧ / ٣٢٤.

(٥) الكندي: الولاة والقضاة ٢٢٢.

(٦) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ١ / ١٢١، البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٥٧ - ٢٥٨.

يكتف العباس بن أحمد بن طولون بذلك، فما أن وصل إلى لبدة في جمادى الأولى سنة ٢٦٦هـ حتى أمر جنده باستباحة المدينة ونهبها، يقول الكندي «فأمر العباس بنهبها فنهبت وأهلها على غرة فقتلت رجالهم وفُضحت نساؤهم»^(١). وبالقرب من لبدة انهزمت قوات الأغالبة بقيادة أحمد بن قرهب عاملهم على طرابلس، وتبعه العباس بن أحمد بن طولون حتى طرابلس فحاصرها ونصب عليها المجانيق ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوماً^(٢). قام فيها جنود العباس بن أحمد بن طولون يُكثر من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية بالقرب من طرابلس «فتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا الستر، فاستغاث أهل طرابلس بأبي منصور صاحب نفوسة فقام محتسباً وناصرًا جيرانه من المسلمين»^(٣).

خرج إلياس أبي منصور النفوسى إلى ابن طولون فى اثنى عشر ألفاً وتمكن من إلحاق الهزيمة به وإخراجه إلى برقة^(٤). وانتهب أهل طرابلس الكثير من أموال الطولونيين بينما تورّع النفوسيون كمعادتهم عن أخذ شيء من هذه الأسلاب وفقاً لمبادئهم^(٥). وكانت هذه فرصة عظيمة لإبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فأخذ فى البحث عن أموال ابن طولون «وأخذها ممن وجدت عنده، فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرّاً ما أمكنه خوفاً أن تؤخذ منه»^(٦). وظلت أحوال الدولة هادئة إلى نهاية حكم أبي اليقظان حتى إذا جاءت سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م توفى أبو اليقظان^(٧) بعد أن عاش من العمر أكثر من مائة سنة قضى منها فى الإمامة أربعين عاماً، وكان كل ما وُجد فى تركته بعد وفاته من أموال سبعة عشر ديناراً^(٨) وبوفاته اعترت الدولة الرستمية عوامل الضعف والتفكك وبدأ نجمها يأفل من سماء المغرب.

(١) الكندي: المصدر السابق ٢٢٢.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١١٩.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١١٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٧ / ٣٢٤.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤ / ٦٤٦.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١١٩.

(٧) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٤٩.

(٨) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣١، ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ٤٤.

(ج) إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد ٢٨١ - ٢٩٤ هـ / ٨٩٤ - ٩٠٦ م

لم يكن أحد من أبناء أبي اليقظان في تاهرت عند وفاته، فابنه يقظان كان في الحج، وابنه أبو حاتم كان قد خرج على رأس جيش لحماية بعض القوافل التجارية من اعتداء قبائل زناتة عليها، وكانت هذه القوافل قادمة من المشرق وفيها أموال كثيرة لا تُحصى. ولما كانت المسافة بين تاهرت وأبي حاتم بعيدة فهو على مسيرة يومين من المدينة، اجتمع العوام والفرسان دون القبائل وأعلنوا مبايعتهم لأبي حاتم وأرسلوا له على الفور من يخبره بوفاة أبيه وعقد الإمامة^(١)، له وعلى عجل عاد أبو حاتم إلى تاهرت واستقبلته جماهير المبايعين عند باب المدينة حتى «ازدحم الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوا فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله وحملوه على الأيدي والأعناق حتى وصلوه إلى داره ثم أرسلوا إلى القبائل فبايعته»^(٢) ولم يجد مجلس الشورى أمام هذا الإجماع العام الحاشد بداً من مبايعة أبي حاتم، ووافقوا على البيعة بالإجماع^(٣). ولم يرض يعقوب بن أفلح عن مبايعة ابن أخيه أبي حاتم على هذا النحو، لذا أثر أن يرحل عن تاهرت حيث أقام في مدينة زواغة^(٤) في الجنوب الغربي لمدينة صبرة في غرب طرابلس^(٥).

تجدد الحرب الأهلية

كان أبو حاتم فتى شاباً يجمع الفتيان إلى نفسه فيطعم ويكسو وقد منحه ذلك الكثير من حب الناس ورضاهم عنه مما جعلهم يتحمسون إلى مبايعته على هذه الصورة التي رأيناها، ولكن ما كادت البيعة تتم له حتى انفردت به عشيرته وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه، واستهدفوا من ذلك أن يحجبوا الإمام عن جماهير الشعب، ويحيطوه بأبهة الملك والسلطان، ولكن الشعب رفض ذلك، وطالبوا بأن يُسمح لهم بالاتصال المباشر بالإمام في كل الأوقات كما كان ذلك متاحاً لهم قبل

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٥٠.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٠.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٣.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٥٣.

(٥) محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٦٣ / ٣.

إمامته^(١). ولم يكن احتجاج أبى حاتم عن العامة بتأثير من أقاربه ومواليه فحسب، وإنما شارك في ذلك عدد من شيوخ تاهرت من غير الإباضية كما يقول ابن الصغير «منهم رجل يعرف بأبى مسعود وكان كوفياً فقيهاً بمذاهب الكوفيين، ومنهم شيخ يُعرف بأبى دنون وكان على مثل صاحبه من الفقه الكوفى، ومنهم رجل يعرف بعلوان بن علوان لم يكن من أهل الفقه ولكن كانت له رياسة في البلد ومحبة عند العوام وكانوا هؤلاء قد طمعوا أن يبيتوا خبر الإباضية»^(٢). كانت هذه العناصر تحجب الإمام عن العامة لتثير عليه الرعية، بل قد وصل بهم الأمر إلى حد التآمر مع اثنين من خاصة أبى حاتم وهما محمد بن رباح ومحمد بن حماد للتخلص من أبى حاتم، ولم يشك أبو حاتم لحظة فيما سمعه عن هذه المؤامرة، لأن محمد بن رباح ومحمد بن حماد سبق لهما أن عرضا على أبى حاتم أن يقتلا والده أبا اليقظان عندما كان على خلاف مع أبى حاتم وقالوا له: «لا عليك، أثبت كما أنت وخلّ بيننا وبين هذه الخوخاء (أبو اليقظان) نحن ندخل إليه فنقلته وبصير الأمر إليك»^(٣).

وبادر أبو حاتم إلى الحيلولة دون إتمام هذه المؤامرة فأصدر أوامره بتحديد إقامة محمد بن رباح ومحمد بن حماد خارج تاهرت، وسمح لهما بالإقامة معاً في قصر لمحمد بن رباح يقال له (الثلاث). ولكنهما لم يهدأ عن تحريك ثورة ضد أبى حاتم «فلم يزالا يرسلان رسولاً بعد رسول إلى من في المدينة من إخوانها ويقولان لهم: «أترضون أن يكون مثلنا يُنفى من البلد بلا جناية كانت منا؟ فيجتمع إخوانهم ويقولون: والله لقد صدقنا ثم اتفق من بالمدينة من إخوانهم على أن يرسلوا إليهما فيدخلوهما على رضا الراضى وسخط الساخط فما شعر أبو حاتم إلا والتكبير عليهما في المدينة»^(٤). ويبدو أن عودة محمد بن حماد ومحمد بن رباح إلى تاهرت تمت بطريقة أفزعت أبا حاتم وروّعته إلى درجة جعلته يقرر الخروج من تاهرت سنة ٢٠٢هـ / ٨٩٥م هو ومن يناصره من أهلها إلى حصن لواته بعد سنة واحدة من مبايعته بالإمامة^(٥) وخرج معه نحو من مائة رجل من وجوه تاهرت، كما خرجت العجم

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٤٩.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ٥٠ - ٥١.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٥١.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرسميين في تاهرت ٥١.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٧.

ونفوسة أيضًا، ولم يبق بتاهرت غير العامة ومشايخ البلد الذين أيقنوا أن أبا حاتم إنما خرج ليستجمع قواه خارج تاهرت وأن عليهم أن يستعدوا للحرب^(١).

نجح أبو حاتم في استقطاب قوى كثيرة للوقوف إلى جانبه فانضمت إليه لواته كلها كما اجتمعت إليه قبائل الصحراء، فأعطى الأموال وحمل على الخيل وزحف إلى تاهرت «من ثلاثة مواضع: من القبلة والمشرق والمغرب، فتولى بنفسه القبلة مع لواته والرسومية وما شايعها، وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شايعها وتولى المغرب طوائل من الناس مع نفوسة»^(٢)، واستطاع أبو حاتم أن يضغط بهذه القوات على أهل تاهرت، الأمر الذي جعلهم يفكرون في استدعاء يعقوب بن أفلح عم أبي حاتم ليتولى منصب الإمامة في تاهرت. وأعتقد أهل تاهرت أنهم بهذا العمل يستطيعون إضعاف معسكر أبي حاتم بجذب كثير من أنصاره إلى يعقوب بن أفلح. وما أن دخل يعقوب تاهرت حتى ضعفت شوكة أبي حاتم؛ إذ انضم إلى يعقوب جماعة من لواته وغيرهم من أصحاب أبي حاتم. ورغم هذا فقد استمر حصار أبي حاتم لتاهرت التي أغلق يعقوب أبوابها إلا بابًا واحدًا صار يحارب منه أبا حاتم، واستمرت الأحوال على هذه الصورة حتى تدخل أبو يعقوب المراتي رئيس مزاته بين الطرفين لعقد الهدنة بينهما^(٣). وجرت مراسم الهدنة، فقدم يعقوب بن أفلح «عبدالله اللمطي» لينوب عنه في توقيع الهدنة، وقدم أبو حاتم اثنين هما: منكود وابن أبي عياض اللواتيين. وعُقدت الهدنة على شرط أن يُعزل الاثنان من الإمامة لمدة أربعة أشهر يختار الناس بعدها من يحبون إمامًا لهم، وتم العقد على هذا الأساس^(٤)، وقد انتهز أبو حاتم فرصة هذه الشهور الأربعة وقام بدعاية واسعة لنفسه فكان «إذا لقي أحدًا من وجوه أهل تاهرت وشبابهم استماله فإن كان على القرب استمال به إلى وإن كان على البعد زوده وأعطاه فمالت قلوب الناس إليه»^(٥). استعاد أبو حاتم بهذه الدعاية ثقة الناس فيه، فخرجت جماعات من أهل تاهرت إلى قصر أبي حاتم الذي يقيم فيه عند نهر مينة، وكان على رأس هذه الجماعات رجلا من وجوه المدينة هما:

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٢، ابن عذاري: المصدر السابق ١ / ١٩٧.

(٢) ابن الصغير: ميرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٥٢.

(٣) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٤.

(٤) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٥.

(٥) ابن الصغير: المصدر ٥٥.

محمد وأحمد المعروفان بابني دبوس يقول ابن الصغير: «فبينما أبو حاتم في منزله وقصره بنهر مينة إذ دخل عليه محمد وأحمد نياية عن جماعة الناس فقالا: قم فاركب الساعة، فخرج معهما وليس معه أحد من عشيرته ولا من رجاله فلم يصبح إلا على باب المدينة وبادر الناس أجمع»^(١)، وما كادت هذه الأنباء تصل إلى يعقوب بن أفلح حتى خرج وشيعته وركبوا خيولهم وعادوا من حيث أتوا إلى زواغة مرة ثانية^(٢). بعد أن قضى يعقوب في الإمامة أربع سنوات^(٣). وبعد عودة أبي حاتم إلى الإمامة مرة ثانية حاول بكل الوسائل أن يستعيد سلطة الإمامة وهيبتها، بعد أن تدهورت أوضاع الدولة الاقتصادية حتى وصلت إلى الخسيس، وظهر كثير من الأمراض الاجتماعية، يقول ابن الصغير «وكان البلد «تاهرت»، قد فسدت وفسد أهلها في تلك الحروب واتخذوا المسكر أسواقًا والغلمان أخذانًا»^(٤) لذا بادر أبو حاتم بإحكام قبضته على الأمور، فعين عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي الشيخ قاضيا، وجعل عبد الرحمن بن صواب النفوسى على بيت المال، وولى أمر الشرطة إلى جماعتين من الناس هم قوم زكار وقوم إبراهيم بن مسكين، واستكمل أبو حاتم بذلك سلطاته التنفيذية وقد نجح هؤلاء جميعًا في ضبط الأمور في الدولة، وواجهوا المنحرفين بالضرب والسجن والقيود، وحطموا الخوابي في كل دار عظم شأنها أو صغر وشردوا الغلمان وأخذانهم إلى رءوس الجبال والأودية وأمنت الطرق بعد أن قضى على اللصوص وقطاع الطرق، فانتشر الأمن في ربوع البلاد^(٥).

وفي عهد أبي حاتم خرج عليه الطيب بن خلف في خير طرابلس وجبل نفوسة، فأصدر الإمام أوامره إلى عامله أبي منصور إلياس بالقبض عليه قبل استفحال أمره، فهرب الطيب إلى قبيلة زواغة التي كانت على رأى أبيه خلف، ورفضت زواغة أن تسلم الطيب إلى أبي منصور وكان في بني يهراسن من زواغة شيخ كبير أدرك أنه لا طاقة لزواغة بالوقوف في وجه أبي منصور وحربه، فاقترح على زواغة ثلاثة أمور وقال لهم: «يا معشر زواغة اقترح عليكم ثلاثة أمور إن اخترتم منها واحدًا أصبتم وإلا

(١) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٦.

(٢) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٦.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٩٧.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستمين في تاهرت ٥٦.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٥٦ - ٥٧.

فمصيركم إلى الذلة إما أن تتركوا حوزة طرابلس وتدخلوا إلى جزيرة جربة لتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم، وإما أن ترسلوا إلى تاهرت رسلاً بكتاب من عندكم تطلبون فيه الإمام أن يخصصكم بعامل مستقل عن جبل نفوسة حتى لا تدخلوا تحت أحكامهم وسيطرتهم. وأما أن تسلموا إلى صاحبكم ابن خلف لأسلمة لنفوسة بالأمان وأنا أضمن لكم سلامتكم وأنهم لا يتجاوزون فيه الحق^(١)، ورفضت زواغه الانصياع لنصائح الشيخ، فلما وصلهم أبو منصور طالبهم بتسليم الطيب فرفضوا فناجزهم الحرب، فكان بين الفريقين قتال شديد هُزمت على أثره زواغة ونجأت إلى جزيرة جربة، وهناك اختفى الطيب بن خلف عند رجل من وجوه زواغه في جربة، فبذل أبو منصور مائة دينار إلى الزواغي، فدعاه الزواغي إلى جربة فدخلها بلا حرب، وعلى الفور توجه الزواغي إلى ابن خلف وهو في قصره وقال له: «أنزل أيها الأمير فقد أرملت كثيراً من نساء زواغة^(٢)»، ونزل الطيب بن خلف فقبض عليه أبو منصور وقيده ومضى به إلى الجبل فحبسه، وكانوا يلقبونه بالطيب بن الخبيث بن الطيب وظل في سجنه حتى أعلن توبته فأفرج عنه^(٣). وإذا كان أبو منصور إلياس النفوسى عامل الرستميين على إقليم طرابلس وجبل نفوسة قد نجح في صد الهجوم الطولونى على شرق الدولة الرستمية في عهد أبى اليقظان، واحتفظ بهذه الجهات هادئة في عهد أبى حاتم، فإن أفلح ابن العباس الذى خلف أبا منصور فى قيادة الحروب وتوجيه الأمور قد منى بهزيمة فادحة على أيدي الأغالبة حين عزم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب على غزو الطولونيين فى مصر، فخرج سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م، على رأس جيش يقوده أبو بحر بن أدهم^(٤)، فاعترضت نفوسة الجيش الأغلبى بين قابس وطرابلس وكانت فى عشرين ألف جندي، ولكن الأغالبة تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالنفوسيين وقتلوا أكثرهم^(٥). ويذكر الدرجيني أن القتلى من هذه المعركة كانوا اثنى عشر ألفاً من الإباضية كان من بينهم أربعمائة من العلماء^(٦). ولم يكتف ابن الأغلب بذلك بل زحف إلى قنطرة فقتل منها من قتل وأسر منها ثمانين عالماً، ولم تنج نفراوة هى

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٢) البارونى: المصدر السابق ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٣) البارونى: مختصر تاريخ الإباضية ٤٣.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٢٩.

(٥) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٨٠.

(٦) الدرجيني: طبقات الإباضية ورقة ٤٠.

الأخرى من ضربات ابن الأغلب^(١)، وفي غمرة هذه الأحداث لم يستطع أبو حاتم أن يحرك ساكنًا فقد كان محاصرًا لعمه يعقوب بن أفلح في تاهرت في تلك الأثناء، وقد دفع ذلك الأغلبة إلى معاودة الكرة في الهجوم على نفوسة، ففي العام التالي سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م سير إبراهيم بن أحمد ابنه أبا العباسي إلى نفوسة، فقتل منهم عددًا كبيرًا، وأسر منهم ثلاثمائة ذبحوا عن آخرهم وأخرجت قلوبهم، ونُظمت في حبال نُصبت على باب تونس^(٢).

وأمام هذه الضربات المتلاحقة انهارت نفوسة التي كانت تشكل عصب الدولة الرستمية الحساس ودرعها الواقية، ولم تعد لها تلك القدرة الفنية على مواصلة إمداد تاهرت اقتصاديًا عسكريًا^(٣). ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الهزائم كفيلة بإسقاط هيبة الإمام في تاهرت، رغم المحاولات التي بذلها للسيطرة على الأمور، ولكن الوقت كان قد فات، فطمع في الإمامة بعض أقاربه وهم بنو أخيه فلم يجدوا مشقة كبيرة في التآمر عليه وقتله سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٦م^(٤).

(د) يقظان بن أبي يقظان ٢٩٤ - ٢٩٦هـ / ٩٠٦ - ٩٠٨م

بعد نجاح المؤامرة على أبي حاتم وقتله، ارتقى يقظان بن أبي يقظان إلى الإمامة، ورغم أن فترة إمامته امتدت إلى سنتين فإن هذه الفترة سادتها عوامل الانقسام والاضطراب، أما الانقسام فإن الكثيرين من شيوخ الإباضية كانوا ساخطين على يقظان^(٥). ومن هؤلاء الساخطين شيوخ نفوسة الجبل؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن يقظان بن أبي يقظان مشترك في مؤامرة قتل أبي حاتم^(٦). ومن عوامل الانقسام أيضًا تلك المناقشات الحادة التي سادت مجتمعات العلماء وحلقات الإباضية وكان لها

(١) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٨٢.

(٢) ابن عذاري: المصدر السابق ١ / ١٣٠.

(٣) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣٣، د. محمود إسماعيل: الأغلبة سياستهم الخارجية ١٣٤.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ١ / ١٩٧.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٥.

(٦) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٩٢.

أثرها في تفتيت وحدة الفكر في الدولة الرستمية^(١)، أما عوامل الاضطراب فلأن خطر الشيعة ببلاد المغرب بدأ يلوح في الأفق ويقترب من حدود الدولة الرستمية، فأبو عبدالله الشيعي تمكن من الاستيلاء على الزاب ودخل رقادة سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م بعد أن هرب منها زيادة الله بن الأغلب^(٢).

وأمام مظاهر الاضطراب والانقسام هذه لم يستطع يقظان بن أبي اليقظان أن يفعل شيئاً لمواجهة الخطر الشيعي القادم عليه، وفي منتصف رمضان سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م كان أبو عبدالله الشيعي - داعي الفاطميين في بلاد المغرب - قد أتم استعداداته العسكرية لبدء جولته الثانية التي كانت هذه المرة مع الرستميين أصحاب المغرب الأوسط، ذلك أن ظهور حركة الشيعة كان من أهم العوامل التي أودت بالدولة الرستمية؛ إذ نمت هذه الحركة نمواً مضطرباً وأصبح لها من القوة العسكرية ما استطاعت به أن تكيل الضربات لدول المغرب وتُسقطها الواحدة تلو الأخرى، وكان من بينها الدولة الرستمية. ولا يخفى وجود مؤثرات شيعية بدأت تتسرب إلى الدولة الرستمية فظهرت خطب الإمام «علي» على منابر الدولة وهي الخطب التي يستخدمها الخطباء يوم الجمعة إلى جانب خطبهم العادية^(٣)، وقد تجلت هذه المؤثرات في اعتناق أحد الإباضية من النُّكَّار - هو شيخ من شيوخ قبيلة كتامة - دعوة أبي عبدالله الشيعي وقد استغل داعية الشيعة هذه الميول عند الشيخ أحسن الاستغلال، يقول ابن عذارى «فوجد داعية الشيعة الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة فدخل عليه من هذه الثلمة، ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه^(٤)». ويتحدث ابن عذارى أيضاً عن الاستعدادات الضخمة التي جهزها أبو عبدالله الشيعي لضرب الدولة الرستمية فيقول «فلما كمل له ما أراد من جيوشه وجهازه وعدده وآلات سفره استخلف على إفريقية أخاه أبا العباسي وأبازاكي تمام بن معارك الأجاني ثم خرج من رقادة يوم الخميس للنصف من رمضان في جموع كالوبي المنتشر معه وجوه رجاله وأهل دعوته.. فسار أبو عبدالله حتى حل بمدينة تاهرت فدخلها بالأمان وقتل بها

(١) الباروني: المصدر السابق ٢ / ٢٨٧.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٤٧ - ١٤٨، ابن الأبار: الحلة السيرة ١ / ١٩١.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٨٧.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٢٤.

من الرستمية يقظان بن أبي اليقظان وجماعة أهل بيته وبعث برءوسهم إلى أخيه أبي العباس وأبي زكي خليفته برقاده وطوقت بالقيروان ونُصبت على باب مدينة رقادة وانقضت بذلك دولة بني رستم بتاهرت^(١).

ويذكر بعض كتاب الإباضية أنه كانت لأبي حاتم يوسف بن محمد ابنة اسمها «دوسرا» ولما قُتل والدها توجهت مع أخ لها إلى أبي عبدالله الداعي ودعته إلى الأخذ بثأر أبيها من قاتليه ووعدته بالزواج منها لقاء ذلك، ولكن الداعي لم يجبهها بشيء^(٢). فلما استنجد عبيدالله الشيعي المهدي بأبي عبدالله الداعي لتخليصه من سجنه، وكان المدراريون قد سجنوه لما تحققوا من شخصيته، فوضع هو وابنه أبو القاسم في غرفة عند مريم بنت مدرار^(٣). فلما توجه أبو عبدالله الداعي إلى سجنهم، مرَّ بالقرب من تاهرت فخرج إليه من فيها من وجوه فرق الشيعة والواصلية والصفورية والمالكية وقدموا له الشكاية في اليقظان ووعدة بالإعانة بالمال والرجال ورغبوه في استئصال هذه العائلة كلها وانتزاع الأمر من أيديهم؛ لأنه لا رجال ولا عسكر لليقظان ولا قوة له لإدبار الناس عنه بما وقع من قتل الإمام^(٤). وهذه الحقيقة توضح أن سبب انهيار الرستميين أمام ضربات الفاطميين هو عدم وجود جيوش رستمية نظامية^(٥).

أرسل أبو عبدالله الداعي إلى اليقظان يطلب الاجتماع به، فخرج إليه اليقظان ومعه بنوه وإخوته وأتباعه، وعلى بعد أميال من تاهرت التقى اليقظان ومن معه أبا عبدالله الداعي فقال لليقظان متجاهلا: «ما اسمك؟ فقال له: اسمي اليقظان. فقال الحجاني: بل أنت الجيران، ما بالكم قتلتم أميركم وسلبتم من أنفسكم ملككم وأطفيتم نور الإسلام وألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار ثم أمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وذلك في شوال سنة ٢٩٦ هـ^(٦).

ولما سمعت دوسرا ما حدث هربت خوفاً من أبي عبدالله الشيعي، وقد بحث عنها

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ١ / ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٥٣.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٩٢.

(٤) أبو زكرياء: السيرة وأخبار الأئمة ورقة ٣٦.

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٩٣.

(٦) الباروني: المصدر السابق ٢ / ٢٩٣.

كثيراً فلم يعثر عليها^(١). ودخل أبو عبدالله الداعي تاهرت ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م فاستباحها ونهبها وقصد إلى المكتبة المعروفة بالمعصومة ليقضى على الفكر الإباضى المكتوب^(٢)، فقد كانت المعصومة مكتبة عظيمة ضخمة تحوى أكثر من ثلاثمائة ألف مجلد، أغلبها فى الشريعة الإسلامية وفلسفتها وفى شرح المذهب الإباضى والاحتجاج له، وفى تاريخ الدولة الرستمية، وبقدر ما كان أبو عبدالله الداعي يريد القضاء على كل مظاهر الفكر الإباضى وإفناءه بقدر ما كان حريصاً على كل ما من شأنه تدعيم الدولة العبيدية التى يقيمها، فأخذ ما فى المكتبة المعصومة من كتب الرياضة والصنائع وغيرها من كتب الفنون، وأحرق كل ما تبقى من الكتب وخصوصاً تلك التى تتعلق بالمذهب الإباضى^(٣). وقام داعية الشيعة بإنهاء الدولة الرستمية رسمياً، وذلك بتنصيب أبا حميد دواس بن صولات اللهيصى وإبراهيم بن محمد اليمانى المعروف بالهوارى على تاهرت^(٤). أما الرستميون فقد انتشرت فلولهم فى البلاد فهرب أغلبهم إلى جبال أوراس وإلى جبال بنى راشد، وبعضهم أنطلق إلى جبل نفوسه وجربه^(٥). ويذكر الدرجينى أن يعقوب بن الأفلح خرج فاراً إلى ورجلان معه عدد كبير من العائلات الرستمية، فلما كان فى بعض الطريق نظر نظرة فى النجوم وكان ممن درسوا علم الفلك والنجوم فقال لأصحابه «أنكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر إلا كان عليهم الطلب افترقوا فقد انقطعت أيامكم وزال ملككم»^(٦)، فلما نزل وأصحابه ورجلان رغب أهلها فى مبايعة يعقوب بن الأفلح وتولته عليهم ولكن يعقوب رفض طلبهم وقال لهم قولته المشهورة: «لا يُستر الجمل بالغنم»^(٧)، وبهذه العبارة طوى يعقوب بن الأفلح - آخر من بقى من الرستميين - آخر صفحة الأخيرة من صفحات الدولة الرستمية المشرقة.

(١) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٩٣.

(٢) محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٤ / ٦١٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٥٣.

(٤) د. محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٦١٨.

(٥) د. محمد على ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٦١٨.

(٦) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٤٦.

(٧) الدرجينى: المخطوطة السابقة ورقة ٤٦.

الفصل الخامس

علاقات الرستميين بالعباسيين والدويلات الأخرى

تمهيد

كانت الرستمية من أسبق الدول المستقلة عن الخلافة قيامًا في بلاد المغرب، وأصبح لها منذ إعلان قيامها سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م - ٧٧٧م شخصيتها بوصفها دولة ذات سيادة على مواطنيها وأراضيها، وأصبح من حقها أن تساهم بدورها في العلاقات الدولية، تلك العلاقات التي استفاد منها الرستميون مكاسب كثيرة كانت لها آثار بعيدة المدى في دعم أركان دولتهم؛ حيث أتاحت لهم هذه العلاقات مزيدًا من الاحتكاك سياسيًا وعسكريًا وحضاريًا. وقد تنوعت هذه العلاقات قوة وضعفًا، صداقة وعداءً بحسب مواقف الدول من الدولة الرستمية.

١ - علاقة الرستميين بالعباسيين

ارتبطت علاقات الرستميين الخارجية بالعباسيين بعاملين كانا ذا أثر كبير في طابع العداء الذي اتسمت به تلك العلاقة:

أولهما: أن العباسيين منذ آلت الخلافة إليهم يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثًا شرعيًا تركه الأمويون لهم، وعلى هذا نظرُوا إلى الرستميين نظرة عداء. وأصبحت هذه النظرة تحكم سير العلاقات بينهما، فقامت على أسس عدائية بين الطرفين باعتبار أن الرستميين اقتطعوا جزءًا من ممتلكات العباسيين.

ثانيهما: كان بين العباسيين والرستميين ذلك العداء التقليدي الذي كان بين الخلافة العباسية السنية والإباضية باعتبار أنهم فرقة من الخوارج، وقد وُضعت هذه الأسس العدائية موضع التنفيذ أيام مطاردة ولادة العباسيين بإفريقية لعبد الرحمن

بن رستم، ورغم أن أهداف عبد الرحمن بن رستم في تأسيس دولة منفصلة تمامًا عن الخلافة العباسية لم تكن واضحة للعباسيين، فقد قاوم العباسيون شخصية عبد الرحمن بن رستم منذ اللحظات الأولى التي ظهر فيها على مسرح الأحداث في بلاد المغرب؛ لأنه كان في نظرهم خليفة لأبي الخطاب عدوهم اللدود، لذا حرص محمد بن الأشعث الوالي العباسي في القيروان سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م على القضاء على عبد الرحمن بن رستم بعد قتله أبا الخطاب، ولكن ابن الأشعث فشل في محاولته واتسحب إلى إفريقية تاركًا عبد الرحمن بن رستم في مأمنه في جبل سوفجج^(١). ولما لم ينجح العباسيون في القضاء على عبد الرحمن بن رستم ورأوا أن خطر هذه الشخصية بات قريبًا من ممثلكاتهم في إفريقية، أمر أبو جعفر المنصور عمر بن حفص عامله على إفريقية أن يحصن قاعدة طبة^(٢)، وفي مواجهة هذه الخطوة من العباسيين حرص عبد الرحمن بن رستم على تكوين تحالف إباضي - صفري يضم سائر القوى المعارضة للخلافة العباسية. ولكن عمر بن حفص - الذي تولى أمر المغرب سنة ١٥١هـ / ٧٦٨م - نجح في تمزيق هذا التحالف، وانفرد بعبد الرحمن بن رستم وقواته والحق به هزيمة فادحة عند تهودة^(٣). ولكنه لم يتمكن من القضاء عليه، لذا اقتنعت الخلافة العباسية بأنه من الأسلم لها أن تحتفظ بنفوذها في إفريقية، وأن تترك المغرب الأوسط؛ لأن محاولة استرجاعه محفوفة بكثير من الأخطار، ولعل ذلك يفسر مسلك الوالي العباسي روح بن حاتم الذي تولى أمر إفريقية سنة ١٧١هـ / ٧٨٧م - ٧٨٨م^(٤)، إذ حرص على تحسين العلاقات بينه بوصفه ممثلًا للعباسيين وبين الرستميين فمد يده إلى عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين في تاهرت طالبًا موادعته، فوادعه عبد الرحمن وكان ذلك في السنة نفسها التي توفي فيها عبد الرحمن بن رستم ١٧١هـ / ٧٨٧م - ٧٨٨م^(٥).

وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم أرسل روح بن حاتم إلى عبد الوهاب بن عبد

(١) الشماخي: السير ١٣٣، الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٣.

(٢) النويري: نهاية الأرب ج ٢٢، ورقة ٢٠ - ٢١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ٧٦.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق ١ / ٨٤.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤ / ١٩٣.

الرحمن بن رستم الذي انتُخب إمامًا بعد وفاة والده، وطلب روح استمرار المواجهة فوافق عبد الوهاب على استمرارها^(١)، وتعتبر هذه المواجهة اعترافًا رسميًا من العباسيين وممثليهم في بلاد المغرب بسيادة الرستميين على المغرب الأوسط. وقد تحدثت كتب الإباضية عن شيء من العلاقات التجارية التي تمت بطريقة سرية في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بين تاهرت وبغداد، فقد بعث عبد الوهاب إلى الربيع بن حبيب بأثنى عشر ألف درهم أو دينار «فاشترى بها الربيع جهازًا من البصرة وأرسل به أخاه إلى تاهرت. فلما وردها جمع عبد الوهاب تجار تاهرت، فاشترى منه جهازه واشترى لأخى الربيع بن حبيب حوايجهم في ثمانية أيام فانصرف راجعًا إلى المشرق»^(٢). على أن الهدوء الذي ساد العلاقات بين الرستميين والعباسيين في عهد عبد الرحمن بن رستم وخليفته عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، عاد وتحرك ثانية نحو التوتر، فعندما أخفق فرج النفوسى - المعروف بنفاث بن نصر - في حركته ضد الإمام أفلح بن عبد الوهاب لم يجد مخرجًا سوى الهروب إلى المشرق قاصدًا بغداد، وهناك رحب الخليفة العباسي المأمون بمقدمه^(٣). وفي هذا الحادث ما يشير إلى احتواء الخلافة العباسية للخارجيين على الرستميين.

وما لبثت العلاقات الرستمية - العباسية أن بلغت قمة العداء، وكان ذلك عندما قبض العباسيون - في عهد الواثق العباسي - على محمد بن الأفلح الملقب بأبى اليقظان الذي كان يقوم بأداء مناسك الحج في مكة. ونُقل أبو اليقظان إلى بغداد حيث سجن هناك^(٤). ولكن هذه العلاقات ما لبثت أن وجدت شيئًا من التحسن بسبب العلاقة القوية التي تمت بين أبى اليقظان بن أفلح، والمتوكل العباسي الذي كان مسجونًا مع أبى اليقظان، فما أن اعتلى المتوكل دست الخلافة بعد مقتل أخيه الواثق حتى أفرج عن صديقه أبى اليقظان وأكرمه وسمح له بالعودة إلى بلاده^(٥). وبينما كانت العلاقات بين الرستميين والعباسيين تمضي في طريق العداء تارة والتحسين

(١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب ١٧٣، ابن خلدون: العبر ٤ / ١٧٣.

(٢) الشماخي: السير ١٦١ - ١٦٢.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٠٧، أبو الربيع سليمان الباروني: مختصر تاريخ الإباضية ٣٨.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٨.

(٥) ابن الصغير: المصدر السابق ٢٨.

تارة، كانت العلاقات الثقافية تتسم بالصلة القوية بين الرستميين وإباضية المشرق الذين كانوا من الناحية الشكلية من رعايا الدولة العباسية، وكثيراً ما جرت تفاصيل هذه العلاقات الثقافية بين تاهرت والبصرة القريبة من بغداد، فعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أرسل ألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتباً. فلما وصلهم هذا المبلغ اشتروا به رقاً فنسخوا له فيها وقر أربعين جملاً كتباً فلما بلغته تشمر وجد لقراءتها^(١). وكثيراً ما لجأ الأئمة من الرستميين وغيرهم من علماء دولتهم إلى علماء الإباضية في البصرة وفي مكة يستشيرونهم فيما قد يظهر لهم من مشكلات سياسية وعلمية، وكانت رسائل علماء الإباضية المشاركة تساهم في حل كثير من المشكلات التي تعرض لها الرستميون^(٢).

ومن معالم العلاقات الثقافية أيضاً أن نفث بن نصر الناصر على الإمام أفلح بن عبد الوهاب عندما قرأ إلى بغداد أمضى وقته هناك في استنساخ ديوان جابر بن زيد عالم الإباضية المشهور - وكان ذلك الديوان موجوداً في خزانة الخليفة العباسي في بغداد، وللصلة القوية بين نفث والخليفة طلب أن يُسمح له بنسخ الديوان، فلما سمح له استطاع أن ينسخ هذا الديوان في يوم وليلة بمساعدة عدد من الورّاقين في بغداد، وقد حمل نفث بن نصر هذا الديوان معه عندما عاد إلى المغرب ثانية^(٣). ومن العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تاهرت إلى البصرة في العراق بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي وهو من شعراء الطبقة الأولى في عصره، كان فقيهاً عالماً بالحديث ورجاله، قال عنه البكري «كان ثقة مأموناً حافظاً للحديث»^(٤)، وُلد بكر بن حماد^(٥) بتاهرت ورحل عنها إلى البصرة سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م وهناك نهل من روافد العلم، فأخذ عن مسدد^(٦) الأسدي البصري شيخ الأئمة المصنفين الاثبات،

(١) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٦٤.

(٢) الدرجيني: طبقات علماء الإباضية ورقة ٣٥ - ٣٦.

(٣) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ٥٤ بيروت ١٩٧١.

(٤) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٥) هو بكر بن حماد بن سمك الزناتي أبو عبد الرحمن التاهرتي، شاعر عالم بالحديث ورجاله، فقيه من أفاضل المغرب. وُلد بتاهرت سنة ٢٠١هـ / ٨١٥م، ورحل إلى البصرة سنة ٢١٧هـ ثم إلى القيروان وعاد منها إلى تاهرت سنة ٢٩٥هـ فتوفي فيها سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م انظر المزيد في: معالم الإيمان ١٩٢/٢، البيان المغرب ١ / ١٥٣.

(٦) هو مسدد بن مسرهد بن مسر بل الأسدي البصري أبو الحسن، محدث هو أول من صنّف المسند بالبصرة.

كما التقى هناك كبار الأدباء وعظماء الشعراء كالشاعر دعلب اللغوى^(١)، واللغوى الراوية العباسى ابن الفرّج الرياشى^(٢) والشاعر الأديب على بن الجهم بن بدر^(٣)، وكذلك سهل بن محمد السجستانى^(٤)، أحد كبار علماء اللغة والشعر. كما التقى الشاعر حبيب بن أوس الطائى أبو تمام^(٥). واستطاع بكر بن حماد أن يثبت وجوده فى بلاد العباسيين فاتصل بالخليفة المعتصم بالله العباسى ومدحه^(٦)، وقد ذكر البارونى

قال ابن ناصر الدين: كان حافظاً حجة من الأئمة المصنفين الأثبات، مات سنة ٢٢٨هـ / ٨٤٣م. انظر المزيد فى: طبقات الحنابلة ١ / ٣٤١ - ٣٤٥، هدية العارفين ٢ / ٤٢٨، تذكرة الحفاظ ٢ / ٨.

(١) هو دعلب بن على بن رزين الخزاعى أبو على، شاعر هجاء أصله من الكوفة أقام ببغداد، له أخبار وشعر جيد وكان صديق البحتري وصنف كتاباً فى طبقات الشعراء وُلد سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م، ومات سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م كان بدي اللسان مولعاً بالهجو والخط من أقدار الناس وهجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتصم والوائق فمن دونهم وطال عمره. انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١ / ١٧٨، دول الإسلام ٥ / ١٢٠، معاهد التنصيص ٢ / ١٩٠، الشعر والشعراء ٣٥٠، لسان الميزان ٢ / ٤٣٠، تاريخ بغداد ٨ / ٣٨٢.

(٢) هو العباس بن الفرّج بن على بن عبد الله الرياشى البصرى من الموالى أبو الفضل لغوى راوية، عارف بأيام العرب من أهل البصرة، قُتل فيها أيام فتنة الذبيح سنة ٢٥٧هـ / ٨٧١م، وكان مولده سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م. له كتاب الخيل وكتاب الإبل، وكتاب ما اختلفت أسماؤه من كلام العرب وغير ذلك، روى عنه المبرد. انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١ / ٢٤٦، تهذيب التهذيب ٥ / ١٢٤، بغية الوعاة ٢٧٥، تاريخ بغداد ١٢ / ١٣٨.

(٣) هو على بن الجهم بن بدر أبو الحسن من بنى سامة من لوى بن غالب شاعر رقيق الشعر أديب من أهل بغداد كان معاصراً لأبى تمام وخص المتوكل العباسى ثم غضب عليه المتوكل فنفاه إلى خراسان فأقام مدة وانتقل إلى حلب ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان من بنى كلب فقاتلهم وجرح ومات من جراحه سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م. انظر المزيد فى: الأعيان ١٠ / ٢٠٣ - ٢٣٤، وفيات الأعيان ١ / ٣٤٩، تاريخ الطبرى ١١ / ٨٦، تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٧.

(٤) هو سهل بن محمد بن عثمان العجشمى السجستانى، من كبار العلماء باللغة والشعر من أهل البصرة. كان المبرد يلزم القراءة عليه، له نيف وثلاثون كتاباً منها كتاب «المعمرين» و«النخلة» و«ما تلحن فيه العامة» و«الشجر والنبات» و«الطير»، وغيره، مات سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م. انظر المزيد فى: الفهرست ١ / ٥٨، وفيات الأعيان ١ / ٢١٨، بغية الوعاة ٢٥٦، انباء الرواة ٥٨.

(٥) هو أحد أمراء البيان وُلد فى جاسم سنة ١٨٨هـ / ٨٠٤م ورحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازته وقدمه على شعراء وقته فأقام فى العراق ثم ولى بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفى بها سنة ٢٣١هـ / ٨٤٦م. انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١ / ١٢١، المعاهد ١ / ٣٨.

(٦) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ٥٤ - ٥٥.

بعض الآيات التي كتبها إلى المعتصم يحرضه فيها على دعبل الخزاعي^(١). ولكنه عاد إلى القيروان ومنها إلى تاهرت حاملاً معه هذه المؤثرات الثقافية المشرقية.

علاقة الرستميين بمصر

سارت العلاقات بين الرستميين ومصر في طريق ودي؛ إذ كانت مصر تمثل الجار الشرقي للدولة الرستمية والمنفذ الوحيد لهم إلى شرق العالم الإسلامي، ومن ثم حرص الرستميون على أن تكون هذه العلاقات علاقات حسن جوار، إلا أنه يلاحظ أن العلاقات السياسية كانت ضعيفة على حين نشطت العلاقات الأخرى، التجارية والثقافية، ومرجع ذلك أن مصر كانت ولاية عباسية خاضعة للعباسيين وتسير على النهج نفسه الذي تسير عليه بغداد. وترجع العلاقات الثقافية القوية بين مصر والرستميين إلى أن عددًا كبيرًا من المصريين كانوا على المذهب الإباضي، بل لقد كان من بين هؤلاء الإباضية المصريين علماء لهم وزنهم في رأى الرستميين فكانوا مرجعًا لهم في شئونهم وفتاواهم ومن بين هؤلاء الإباضية المصريين العلماء شعيب المصري^(٢) الذي قدم إلى تاهرت أيام الفتنة التي حدثت بين الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ويزيد بن فندين، وقد كان شعيب هذا يطمح في الحصول على منصب الإمامة ولكنه لم ينجح في مساعيه فعاد إلى مصر بعد أن تمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على فتنة يزيد بن فندين^(٣) أما العلاقات التجارية فقد كانت مصر المعاصرة للدولة الرستمية تلعب دور الوسيط في التجارة بين الشرق والغرب، وأصبحت تمثل مخزنًا لمختلف البضائع الشرقية والغربية^(٤)، وقد حتمت طبيعة الامتداد الجغرافي لحدود الدولة الرستمية إلى طرابلس أن تكون مصر منفذًا للقوافل الرستمية المتجهة إلى المشرق الإسلامي وخاصة القوافل التي تحمل

(١) يقول بكر بن حماد محرضًا الخليفة المعتصم على دعبل الخزاعي:

أبهجو أمير المؤمنين ووهطه	ويمشى على الأرض العريضة دعبل
أما والذي أرسى ثيبراً مكانه	لقد كادت الدنيا لذلك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله	يهم فيعفسو أو يقول فيفعل
الباروني: الأزهار الرياضية ٧١/٢.	

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ١٠٨/٢.

(٣) الباروني: المصدر السابق ١١٢/٢.

(٤) د. سيدة إسماعيل: كاشف أحمد بن طولون ٢٠٤. سلسلة أعلام العرب.

الحجيج والرحالة والعلماء والتجار، وقد سارت هذه القوافل في الطرق التجارية التي امتدت بين مصر والواحات الغربية وبلاد المغرب^(١). وقد تولت هوارة في شرق طرابلس وكذلك نفوسة والقبائل الطرابلسية الأخرى هذه المهمة فكانت «تجوب صحراء سرت ذاهبة آية بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط وبين مصر وقوافلها الجرامة مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية»^(٢)، ومما لاشك فيه أن هؤلاء التجار والرحالة والعلماء من الرستميين قد نقلوا كثيراً من الأفكار الرستمية إلى مصر، كما تأثروا كثيراً بما وجدوه في مصر من مظاهر الحضارة فنقلوها إلى بلادهم، وقد شهدت العلاقات بين مصر والرستميين شيئاً من التوتر في عهد الطولونيين سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م، ولكن الذي يفهم من أحداث هذا التوتر الذي سبق عرضه قبل ذلك^(٣) أن أهدافه لم تكن بسبب سياسة عدائية رسمها الطولونيون تجاه الرستميين، وإنما تمت كل دوافع هذا التوتر في ظروف شخصية بحتة، تتصل بفتنة العباس بن أحمد بن طولون، ومما يؤيد وجهة النظر هذه أن أحمد بن طولون لم يكن في مصر حين خرجت حملة ابنه العباس نحو بلاد المغرب^(٤). ومن ناحية ثانية أفاض المؤرخون في الحديث عن بواعث هذه الحملة، يقول ابن الأثير: «عصى العباس بن أحمد بن طولون على أبيه، وسبب ذلك أن أباه كان قد خرج إلى الشام واستخلف ابنه العباس كما ذكرناه، فلما أبعد أحمد بن طولون عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والانشراح إلى برقة ففعل ذلك وأتى برقة في ربيع الأول^(٥)، ويرى البعض أن الحكومة المركزية في العراق كان لها يد في تدبير رفقاء النسوة الذين التفوا حول العباس بن أحمد بن طولون ودفعوه إلى القيام بهذا العمل، وقد عمد الخليفة الموفق إلى هذه الطريقة لخلق حالة من الاضطرابات والشغب في حكومة أحمد بن طولون^(٦). وعندما علم أحمد بن طولون بهذه التطورات الخطيرة التي حدثت في مصر، عاد سريعاً إلى الفسطاط حرصاً منه على وضع حد لهذا التوتر الذي أحدثه

(١) د. سيدة إسماعيل كاشف: أحمد ابن طولون ٢٠٦.

(٢) د. محمد علي ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣/٣٥١.

(٣) الكندي: الولاية والقضاة ٢٢٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/٣٢٤.

(٥) الكندي: الولاية والقضاة ٢٢٠.

(٦) د. سيدة إسماعيل الكاشف: أحمد بن طولون ٩٤ - ٩٥.

ابنه العباس بين الدولة الطولونية وجيرانها^(١)، وأرسل ابن طولون إلى العباس وفداً على رأسه القاضي أبو بكرة بكار بن قتيبة^(٢)، وفشل هذا الوفد في إعادة العباس إلى مصر^(٣). ولكن الهزائم التي تلاحقت على العباس من الرستميين والأغالبة أضعفت شوكته، فلم يقوَ على الصمود أمام الجيش الذي أرسله أحمد بن طولون لإعادة العباس حيث تمكن هذا الجيش من هزيمة العباس هزيمة منكرة وقبض عليه إلى مصر في شوال سنة ٢٦٨هـ^(٤).

وقد أشار المؤرخ ابن سعيد إلى الحالة النفسية السيئة التي كان يشعر بها أحمد بن طولون نتيجة تردى العلاقات بينه وبين الرستميين من جهة وبين الأغالبة من جهة أخرى، يقول: «وكان الناس يرون غمَّ أحمد بن طولون مما جنى عليه العباس وأنه لم يكتف بما حمله من مصر حتى أوقع أثراً غليظاً بينه وبين إبراهيم بن الأغلب والعباس بن منصور النفوسى عامل الرستميين على جبل نفوسة، وأنه إن حاول الانتصار منهما أجحف بنفسه، وإن أمسك عنهما نقص موقعه، وبدأت عورة من عوراته»^(٥).

علاقة الرستميين بالأغالبة ١٨٤ - ٢٩٦هـ / ٨٠٥ - ٩٠٨م

قرر الرستميون اتباع سياسة التعايش السلمى مع دولة الأغالبة، وهى الجار الأقوى على حدودهم الشرقية. وقد دفع هذا بعض المؤرخين إلى القول بأن علاقة الرستميين بالأغالبة لم تتخذ طابعاً عدائياً^(٦).

وفى الحقيقة أن انتهاج الرستميين سياسة التعايش السلمى مع الأغالبة لا ترجع

(١) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ١ / ١١٨، الكندى: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٢) هو قاض فقيه محدث ولى القضاء بمصر للمتوكل العباسى سنة ٢٤٦هـ ولما صار الأمر إلى أحمد بن طولون بمصر أمره بخلع الموفق من ولاية العهد فامتنع بكار فاعتقله فأقام فى السجن يقصده الناس ويروون عنه الحديث وينتبههم وهو باق على القضاء إلى أن توفى فى سجنه بمصر سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٤م، وكان مولده سنة ١٨٢هـ / ٧٩٨م. انظر المزيد فى: الأعيان ١ / ٩١، تهذيب ابن عساكر ٣ / ٢٨٢، الولاة والقضاة ٤٧٧ و ٥٠٥.

(٣) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق ١١٩.

(٤) الكندى: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٥) ابن سعيد: المصدر السابق ١٢١ - ١٢٢.

(٦) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة ١٢١.

إلى ما اشتهر به الرستميون «من التقوى والمسالمة وعدم الاهتمام بما يدور خارج حدودهم وانصرافهم إلى شئون الداخلية»^(١). وإنما يرجع في حقيقة الأمر إلى طبيعة الحدود المشتركة بين الدولتين، إذ تطوق حدود الدولة الرستمية الممتدة من تاهرت غربًا إلى طرابلس شرقًا دولة الأغالبة من الشرق والغرب والجنوب، ولم تكن هذه الحدود واضحة المعالم^(٢). فقد كانت دولة الرستميين «مملكة بدوية صحراوية تبسط سلطانها على قبائل البادية أو الصحراء، فمع أن هذه القبائل اتخذت بعض المراكز في القرى الجبلية أو الواحات الصحراوية، إلا أنها ظلت في حالة ميومة لا يستقر لها قرار، فكانت تنتقل من مكان إلى مكان حسب الظروف الطبيعية أو السياسية»^(٣)، وقد عقد أول اتفاق لتقرير مبدأ التعايش السلمي بين الرستميين والأغالبة سنة ١٩٧هـ / ٨١٣م^(٤)، حين اضطر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إلى الاصطدام مع الأغالبة دفاعًا عن مواطني دولته من قبيلة هواة^(٥). وجاءت نصوص هذا الاتفاق مراعية لمصالح الطرفين حيث أكد الأغالبة احترامهم الامتداد الجغرافي للدولة الرستمية ونطاقها الرعوى الداخلي في منطقة طرابلس وبالتالي احترام الرستميين حاجة الأغالبة إلى الشريط الساحلي لطرابلس لاتخاذهم البحر المتوسط ميدانًا للجهاد ضد الروم ونشر رايات الإسلام على جزر غرب البحر المتوسط^(٦). ولكن سياسة التعايش السلمي هذه التي اتبعتها الدولة الرستمية أملت عليها في كثير من الأحيان الدفاع عن نفسها ضد الأغالبة وأطماعهم، فرأى الرستميون أن قيام أبي العباس محمد بن الأغلب سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م ببناء مدينة العباسية بالقرب من تاهرت فيه مساس بمبدأ التعايش السلمي ويتعارض تمامًا مع المصالح الحيوية للرستميين، إذ استهدف الأغالبة بنائها القضاء على المركز التجاري المهم الذي احتلته تاهرت^(٧)، كما شعر

(١) د. محمود إسماعيل: الأغالبة ١٢٢.

(٢) د. محمود إسماعيل: المرجع السابق ١٢٤.

(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ٣٩٥.

(٤) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ٢٠٨.

(٥) ابن خلدون: العبر ٤ / ٤٢١.

(٦) د. إبراهيم أحمد العدوي: المرجع السابق ٢١١.

(٧) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٨٦، د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ٥٦٨.

الرستميون أنها بُنيت لتكون قاعدة للهجوم على عاصمتهم تاهرت^(١)، لهذا قام أفلح بن عبد الوهاب بإخلاؤها وحرقتها^(٢).

حقاً أن الأغالبة كان لهم مسلكهم في معاداة أعداء الخلافة العباسية، ولكنهم بالنسبة للرستميين لم يستطيعوا الإفصاح عن هذا العداء سافراً، لذا عمدوا إلى تشجيع القلاقل والخلافات الداخلية التي كانت تظهر بين الحين والحين في مجتمع الدولة الرستمية، وقد ساعدتهم على ذلك وجود جالية كبيرة من المتمردين على الأغالبة، أعطى الرستميون أفرادها ما يشبه حق اللجوء السياسي عندهم، فكانت تاهرت زاخرة بعدد كبير من هؤلاء القيروانيين الذين عاشوا في المجتمع الرستمي، وهم يتمتعون بكامل الحقوق التي تُمنح لمواطني الدولة الرستمية، بل إن بعضهم صاهر أئمة الدولة وأصبح له من النفوذ ما لم يصل إليه غيره كمحمد بن عرفة، وقد اندس بين هؤلاء اللاجئين السياسيين عدد ممن سخرهم حكام الأغالبة لإثارة الشغب كلما واتتهم الفرصة لذلك^(٣). وقد قام خلف الخادم مولى الأغلب بن سالم - في عهد أبي بكر بن أفلح - بإثارة الفتنة والشقاق بين سكان تاهرت متخذاً من مقتل محمد بن عرفة ذريعة إلى ذلك، وقد بذل في سبيل ذلك أموالاً كثيرة^(٤)، وقد تمكن أبو اليقظان - خليفة أبي بكر بن أفلح - من القضاء على هذه الفتنة بعد أعوام سبعة من إمامته^(٥). وفي إطار مبدأ التعايش السلمي نهض كل الرستميين والأغالبة للوقوف في وجه العباس بن أحمد ابن طولون عندما هدد الحدود الرستمية - الأغلبية سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م^(٦). ولم يكن اشتراكهما معاً في مواجهة أطماع العباس نتيجة تحالف أو تعاون مشترك تم بينهما، بل حدث نتيجة لما أحاط الجانبيين من خطر في وقت واحد^(٧)؛ ولأن هزيمة أي واحد منهما أمام العباس قد تعرّض الآخر لهزيمة مماثلة تغير من طبيعة

(١) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة ١٣٠.

(٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٢٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦ / ٥١٩.

(٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين في تاهرت ٣٧.

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٦) الكندي: الولاة والقضاة ٢٢١.

(٧) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة ١٣٢.

الوضع السياسى لمنطقة طرابلس. والثابت أن كلا من الرستميين والأغالبة قد نال قسطاً من تهديدات العباس بن أحمد بن طولون واعتداءاته^(١). وإذا كان الرستميون قد ألزموا الأغالبة بمبدأ التعايش السلمى بالقوة وبالاشتراك معهم فى الدفاع عن حدود الدولتين - عندما خرج العباس بن أحمد بن طولون للاستيلاء على إفريقية - تارة أخرى، فإن الأغالبة عندما استشعروا ضعف الرستميين استهانوا بمبدأ التعايش السلمى معهم واعتدوا عليهم بغية القضاء عليهم. وقد واتتهم الفرصة فى إمامة أبى حاتم يوسف بن محمد^(٢) فى سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م^(٣).

اصطدم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بقبيلة نفوسة - التى كانت من رعايا الدولة الرستمية - عند موضع «قصر مانو» بين قابس وطرابلس^(٤). وكانت نفوسة قد خرجت إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب فى عشرين ألف مقاتل، واندلعت الحرب بينها وبين إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ودارت الدائرة على نفوسة وقُتل منها عدد ضخم جداً من الرجال والعلماء^(٥). وبعد هذه المعركة انهارت نفوسة التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية ودرعها الواقية، وسرت فى الجبل حالة من الفوضى؛ لأن أهل الرأى فى الجبل اجتمعوا وقرروا عزل أفلح بن العباس عامل الرستميين على الجبل، وقد دفعت حالة الفوضى هذه الأغالبة إلى إرسال جيش آخر سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م^(٦) هجم على نفوسة واستباحها وعاد مثقالاً بالأسرى منهم. وهناك من يرى: «أنه لولا ما جرى فى هذه الأثناء من عزل إبراهيم بن أحمد وتوجهه إلى صقلية، لوجّه ضربته التالية نحو تاهرت قلب المملكة الرستمية»^(٧).

ورغم أن الأغالبة حرصوا كل الحرص على مقاطعة الرستميين تجارياً وثقافياً^(٨)، فإن هناك ما يشير إلى وجود شيء قليل من هذه العلاقات التى كانت تتم بصورة غير

(١) ابن الأثير: الكامل ٧ / ٣٢٤.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٢٩.

(٣) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٢٨١.

(٤) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٤٠.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١ / ١٣٠.

(٦) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الأغالبة سياستهم الخارجية ١٣٥.

(٧) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: المصدر السابق ١٣٥.

رسمية وعلى المستوى الشعبي، فالعلاقات التجارية اليومية كانت تسير بصورة طبيعية بين الجهات الداخلية لطرابلس التابعة للنفوذ الرسمي وطرابلس نفسها الخاضعة للأغلبية، وإلى هذه العلاقات أشار ابن سعيد بقوله «ومنه جبل نفوسة تمتاز طرابلس بأنواع الخيرات»^(١). كما كانت هناك علاقات ثقافية قائمة بين تاهرت والقيروان تمثلت في العلماء والأدباء الذين انتقلوا من تاهرت إلى القيروان بغية تحصيل العلم على يد من فيها من العلماء، ومن هؤلاء العلماء الأدباء: بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتى التاهرتى، وصل إلى البصرة في العراق سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م^(٢)، وظل جاداً في تحصيل العلم حتى عاد إلى القيروان سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م، فأخذ فيها عن عون بن يوسف الخزاعي^(٣) وسحنون بن سعيد^(٤) حتى إذا كانت سنة ٢٧٤هـ / ٨٨٧م تصدر لإملاء الأدب والعلوم بجامعة الكبير، فارتحل إليه كثير من أهل إفريقية والأندلس للأخذ عنه، وكان منهم محدث الأندلس في عصره قاسم^(٥) بن أصبغ بن محمد البياني القرطبي، وقد عاد بكر بن حماد إلى تاهرت سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م، حيث توفي سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م بعد سنة من عودته في قلعة ابن حمة شمال تاهرت^(٦). وله شعر ذكره أكثر المؤرخين في الحديث عن تاهرت ووصفها^(٧).

(١) ابن سعيد: الجغرافيا ١٤٥.

(٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٣) ورد في طبقات علماء إفريقية للخشني.

(٤) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التتوخي الملقب بسحنون قاضي فقيه، انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب، كان زاهداً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله، أصله شامي من حمص، مولده سنة ١٦٠هـ / ٧٧٧م في القيروان، ولي القضاء بها سنة ٢٣٤هـ واستمر إلى أن مات سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م أخبار كثيرة جداً. وكان رفيع القدر، صفيّاً أبي النفس. انظر المزيد في: معالم الإيمان ٢ / ٤٩، وفيات الأعيان ١ / ٢٩١، قضاة الأندلس ٢٨، المحلل السندسية في الأخبار التونسية ١٠٥، رياض النفوس ١ / ٢٤٩ - ٢٩٠.

(٥) هو قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح أو واضح، الإمام الحافظ محدث الأندلس أبو محمد الأموي القرطبي. سمع بقى بن مخلد وابن وضاح والحرث بن أبي أسامة وابن أبي الدنيا وابن أبي حشمة وكتب عنه التاريخ وصنف سنناً مخرّجاً على أبي داود و«مسند مالك» و«الصحيح» على هيئة «صحيح مسلم». وكان بصيراً بالحديث ورجاله، رأساً في العربية، فقيهاً، كبير وكثير نسيانه وما اختلط فأحسن بذلك، فقطع الرواية صراحةً لعلمه، وانتهى إليه علو الإسناد بتلك الديار والحفظ والجلالة. ولد سنة ٢٤٧هـ، ومات سنة ٣٤٠هـ انظر المزيد في: إرشاد الأديب ٥ / ٧٩، تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٥٦، شذرات الذهب ٢ / ٣٧٠، طبقات المفسرين للداودي ١ / ٣٨٢، العبر ٢ / ٢٦٧، النجوم الزاهرة ٣ / ٣١٥.

(٦) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧.

(٧) ذكر البكري في كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٦٧ هذه الأبيات:

تمثل دولة الأداسة الجار الغربى لدولة الرستميين، وهذه الدولة تضم إقليم المغرب الأقصى بأكمله، وهذا الإقليم يحده من الشرق وادى ملوية وجبال تازة وهما يمثلان خط الحدود مع الدولة الرستمية، أما حدّها من جهة الغرب فالبحر المحيط، ومن الشمال بحرم الروم، ومن الجنوب جبال^(١) درن، ومؤسس هذه الدولة هو إدريس^(٢) بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ودولة الأداسة دولة شيعية من النوع المعتدل الذى تقترب آراءه مع آراء أهل السنة^(٣). ولذا أطلق عليها ابن عذارى اسم الدولة الهاشمية^(٤) وقربها من أهل السنة جعلها من ناحية أخرى قريبة فى ميولها السياسية من الرستميين أصحاب المذهب الإباضى المتأخمين لهم فى المغرب الأوسط والذين يمثل مذهبهم الإباضى آخر تطورات الفكر الخارجى فى تلك الفترة؛ إذ أصبح هذا المذهب أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة، ومن ثم لم تكن هناك خلافات مذهبية حادة بين الدولتين الجارتين؛ لذا وضع الرستميون سياستهم مع الأداسة على أساس حسن الجوار المتبادل بينهما. ومما دعم علاقات حسن الجوار بين الدولتين «أنه كان يجمع بينهما موقف موحد إزاء

ما أحسن اليرد وريعانه	وأحرق الشمس بتاهسرت
تبدد من الغيم إذا ما بدت	كأنها تنتشر من تعبت
ففتح فى بحر بلا لجة	تجرى بنا الريح على السميت
نفرح بالشمس إذا ما بدت	كفرحة الدّمسى بالسّهت

(١) ياقوت الحموى معجم البلدان ٢/ ٢٧.

(٢) هو إدريس بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأداسة فى المغرب وإليه نسبتها، أول ما عرف عنه أنه كان مع الحسين بن على بن الحسن المثلث فى المدينة أيام ثورته على الهادى العباسى سنة ١٦٩هـ ثم قُتل الحسين فانهزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ ونزل بمدينة ولىلى على مقربة من مراكش ولعلها اليوم مدينة قصر فرعون، وكان كبيرها يومئذ إسحاق بن محمد فعرفه إدريس بنفسه فأجاره وأكرمه ثم جمع البربر على القيام بدعونه وخلع طاعة بنى العباس، فتم له الأمر يوم الجمعة ٤ رمضان ١٧٢هـ جمع جيشاً كثيفاً وخرج به غازياً فبلغ بلاد تادلة قرب تلمسان وفاس ففتح معاقلها وعاد إلى ولىلى، ثم غزا تلمسان فباع له صاحبها، وعظم أمر إدريس فاستمر إلى أن توفى مسموماً فى ولىلى سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م. انظر المزيد فى: الاستقصا ١/ ٦٧، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢، البيان المغرب ١/ ٨٢ و ٢١٠.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٨٢.

(٤) حسن على حسن: دولة الأداسة بالمغرب ٢٤٥ رسالة ماجستير - دار العلوم.

الخلافة العباسية وهو العداء المشترك نحوها؛ حيث استقلت كلتاها بجزء من الدولة العباسية، وأصبح لكل منهما شخصيتها الخاصة وكيانها المستقل بعيداً عن سلطة الخلافة العباسية وولاتها، كما كان الأدارسة يشعرون أن دولة الرستميين بالمغرب الأوسط تمثل الحارس الأمين لحدودهم الشرقية^(١)، فهي بمثابة حاجز يفصل بين دولة الأدارسة في المغرب الأقصى والولاة العباسيين أعدائها في المغرب الأدنى، فأى جيش يرسله العباسيون أو وولاتهم في إفريقية لابد أن يخترق أراضي الدولة الرستمية، وهذا ما لا تسمح به الدولة الرستمية؛ لأنهم كانوا يتمتعون بالسيادة التامة على أراضي دولتهم، ومن ناحية ثانية لم تكن العلاقة طيبة بين الرستميين والعباسيين أو وولاتهم بإفريقية^(٢). وقد كان لموقع دولة الرستميين على هذا النحو أثره في الأساليب التي اتبعتها الخلافة العباسية لمقاومة الأدارسة والقضاء عليهم، حيث لجأت الدولة العباسية إلى أسلوب الاغتيال لمؤسس هذه الدولة؛ لأنها رأت أن فكرة إرسال جيش للقضاء على هذه الدولة يُعدُّ ضرباً من المستحيل^(٣). وحققت الخلافة أملها في التخلص من إدريس فاغتالته سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م^(٤).

وقد أفسحت الدولة الرستمية صدرها لكثير من العلويين الفارين من العباسيين، وقد عاش هؤلاء في المدن المنتشرة حول تلمسان، وبعضهم أثر البقاء في بقاع الدولة الرستمية، فعاشوا في بعض مدنها في شمال تاهرت على ضفاف نهر شلف كالمدينة الخضراء، وسوق إبراهيم ومدينة ثمطلاس. وقد كان أكثر هؤلاء العلويين من أبناء محمد بن سليمان العلوي، وسليمان هذا أخو إدريس بن عبدالله مؤسس الدولة الإدريسية. وقد استقل هؤلاء العلويون بهذه المدن بعد انقراض الدولة الرستمية وذلك في القرن الرابع الهجري^(٥).

وظلت العلاقات الرستمية - الإدريسية تسير في جملتها في إطار علاقة حسن الجوار التي رسمها الرستميون، إلا أن شيئاً من القطيعة أصاب هذه العلاقات في عهد

(١) GAuter, op: Cit. p. 315.

(٢) حسن علي حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ٢٤٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٨٣ / ١، ابن الأبار: الحلة السراء ٩٨ / ١.

(٤) د. محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي ٥١.

(٥) ابن خلدون العبر ٣٤ / ٤، د. محمد علي ذبور: المغرب الكبير ٢٣٦ / ٣.

الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم. وكان ذلك نتيجة لموقف مغراوة وبنى يفرن أمراء تلمسان الخاضعين لنفوذ الأدارسة^(١). فقد سعى هؤلاء في تأليب واصلية المغرب الأوسط وهم رعايا الدولة الرستمية وحرصوهم على القيام بثورة ضد الإمام عبد الوهاب بهدف الاستقلال بالأمكن التي يعيشون فيها من أراضي الدولة الرستمية والعمل على ضمها للأدارسة واستعانوا في ذلك بواصلية المغرب الأقصى وزعيمهم إسحاق بن محمد الأوربي، وقد تمت مكاتبات بينه وبين واصلية المغرب الأوسط في هذا الشأن^(٢). ويبدو أن الذي دفع مغراوة وبنى يفرن إلى ذلك أن بنى يفرن هالها مقتل يزيد بن فندين زعيم النكار في دولة الرستمين - والمعروف أن يزيد بل فندين من بنى يفرن وهو فرع من زنانة التي ينتمي إليها معظم وأصلية المغرب الأوسط^(٣) ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح. وتمكن الإمام عبد الوهاب من القضاء على ثورة الواصلية بعد حوار فكري دار بين مفكري الإباضية وعلماء الواصلية، تلتها معركة عسكرية انتهت بهزيمة الواصلية وقمع ثورتهم^(٤).

علاقة الرستمين بدولة سجلماسة ١٤٠-٢٩٦هـ / ٧٥٧-٩٠٨م

قامت إلى الجنوب الغربي لحدود الدولة الرستمية دولة بنى مدرار في سجلماسة، تلك الدولة التي ترتبط مع الرستمين بأوثق الروابط، وقد قامت دولة سجلماسة سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م^(٥)، على أساس المذهب الصفرى. وعلى هذا فأصحابها ينتمون إلى المذهب الخارجى مثلهم في ذلك مثل الرستمين، ولذلك التقت أهداف الدولتين معاً وتوطدت بينهما أواصر المودة والصداقة^(٦). وسعت كلتا الدولتين إلى كسب احترام الأخرى لها، إذ نظر الرستميون إلى سجلماسة على أنها منفذ مهم لهم إلى بلاد السودان تنتقل من خلالها تجارة الرستمين وقوافلهم التجارية؛ ومن ثم فهي شريان

(١) حسن على حسن: دولة الأدارسة بالمغرب ٢٤٦.

(٢) البارونى: الأزهار الرياضية ١١٧/٢.

(٣) الدرجينى: طبقات الإباضية ورقة ٢٥.

(٤) البارونى: المصدر السابق ١٢٣-١٢٥.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٥٦.

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٢.

الحياة بالنسبة لبني رستم، كما كان بنو مدرار يشعرون بأهمية الرستميين لهم؛ إذ إن توثيق الصلات بهم وتعمق الروابط معهم يعطى المدراريين الأمان الذى يشعرون بالحاجة إليه كدولة صغيرة، خاصة أن لها جاذباً قوياً وهم الأدارسة يحاربون أصحاب النحل المتطرفة من أمثال الخوارج، فقد قام الأدارسة بالقضاء على الخوارج داخل دولتهم فى المغرب الأقصى^(١). لذا حرص المدراريون على إقامة ما يشبه الحلف الثنائى بينهم وبين الرستميين، ومما دعم هذا الحلف وقوى من شأنه تقارب زعماء كل من الدولتين والتقاؤهما فى الأهداف^(٢). وظهرت نتائج هذا التقارب عندما تزوج مدرار بن المنتصر بن اليسع الذى تولى حكم دولة سجلماسة سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣^(٣)، من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم أول أئمة الدولة الرستمية، ويمثل هذا الزواج قمة التقارب فى العلاقات بين الدولتين. وقد تحدث البارونى عن الأهداف الحقيقية لهذا الزواج فقال: «وعلى عهده اليسع بن القاسم الذى تولى الحكم سنة ١٧٤هـ استفحل أمرهم واشتد ملكهم، وكان يرى فى نفسه العظمة لكثرة الجنود والأتباع، وله ابن يُعرف بمدرار فلم ير له كفواً للمصاهرة غير الإمام عبد الرحمن، وكانت له ابنة تعرف بأروى فخطبها اليسع وبعد أن أظهر الإمام العزة والامتناع مع إلحاح الخطيب أجابه إلى طلبه وزوجها من مدرار ابنه ولم يصغ للمعترضيين والمنكرين عليه مؤملاً أن يأتى يوم ما على أولادها إن قدر الله بحملها، وهم على مذهبه فيضمهم هو أو خلفه إليه أو تتوثق علائق الود بين المملكتين فلا يطرقه منهم طارق سوء ولا يأتيه من قبلهم ما يكدر راحته أو يوجب له قلقاً أو خللاً فى داخلته؛ إذ كانت تحت حكمه من الصفرية ما يعد بعشرات الألوف من المقاتلين الموصوفين بالشجاعة والبراعة كما أن بسجلماسة من الإباضية أمثال ذلك من الفرسان الأشداء^(٤)». والذى يفهم من هذا النص أن اليسع سعى إلى هذا الزواج رغبة فى كسب حليف قوى يحميه وأن عبد الرحمن بن رستم سعى إلى هذا الزواج رغبة فى كسب تأييد هذا العدد الضخم من الصفرية من مواطنى دولته. وقد أنجبت أروى لمدرار ولداً أسماه ميموناً وهو الذى

(١) ابن خلدون: المعبر ٤ / ١٤.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ٤ / ١٤.

(٣) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٥٠.

(٤) البارونى: الأزهار الرياضية ٢ / ٩٤.

لعب دورًا مهمًا في حياة دولة بني مدرار في سجلماسة^(١). كانت العلاقات السياسية إذن قوية متينة بين الدولتين الرستمية والمدرارية بسجلماسة، وقد فتح ذلك باب العلاقات الثقافية والتجارية على مصراعيه، فبدأ المذهب الإباضي بغزو أراضي دولة سجلماسة، حتى أنه بدأت تظهر كثير من مؤثرات هذا المذهب بين مواطني دولة سجلماسة، وفي هذا الصدد أشار بعض المؤرخين إلى أن المذهب الإباضي غزا فكر أئمة دولة سجلماسة وعلمائها^(٢). ومما وثق هذه العلاقات ودعمها أن كثيرًا من رعايا الدولة الرستمية كانت تغشى دولة سجلماسة وتعيش فيها كما قام بذلك كثير من أهل سجلماسة فأقاموا في أنحاء الدولة الرستمية^(٣). أما العلاقات التجارية فكانت نشيطة إلى درجة كبيرة بين الدولتين؛ لأن طريق التجارة الرستمية إلى بلاد غانا^(٤) والسنغال يمر بسجلماسة، يقول البكري «ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانا وبينها وبين مدينة غانا مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة». وكانت القوافل التجارية الرستمية تغدو ذاهبة آية تعبر سجلماسة أو تستقر فيها، تحمل من سجلماسة أنواع التجارات والمنتجات إلى الدولة الرستمية، ومن هذه المنتجات الزراعية التي تكثر في سجلماسة مثل الكمون والكروياء والحناء^(٥). كما تنقل هذه القوافل الأزر المصنوعة في سجلماسة والتي تفوق في جودتها القصب التي تصنع في مصر^(٦). ويحمل أيضًا من سجلماسة ثمار شجر التاكوت الذي يستخدم في دبغ الجلد الغدامسي في غدامس^(٧)، على أن أهم السلع التي كانت تسعى إليها هذه القوافل هي الذهب الذي كانت تحمله من غانا وتجنى من ورائه ثراء كبيرًا، كان له أثره في ازدهار دولة الرستميين.

وقد أشار محمد علي ذبور إلى هذه العلاقات القوية بين الرستميين وبني مدرار بسجلماسة فقال: «وكانت المعاملات التجارية، والعلاقات الثقافية والصلات

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٥

(٢) د. محمد علي ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٤٤٥.

(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٤٩، ابن سعيد: الجغرافيا ١١٣.

(٤) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارة ٢٨.

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ٧٩.

(٦) الباروني: المصدر السابق ٢ / ٧٩.

(٧) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ١٥٢.

السياسية على أتمها وأحسنها بين الدولتين دولة بنى واسول في سجلماسة، والدولة الرستمية في تاهرت»^(١).

علاقة الرستميين بالسودان

كانت العلاقات الرستمية ببلاد السودان في جملتها علاقات تجارية^(٢) حيث كانت الدولة الرستمية تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى السودان، وقد امتلك الرستميون عددًا من القواعد الصحراوية التي تقع على طرق التجارة مع بلاد السودان، وأولى هذه القواعد الصحراوية في الدولة الرستمية كانت ورجلان التي ترتبط ببلاد السودان ارتباطًا وثيقًا والسفر منها إلى هذه البلاد كان كثيرًا يقول عنها ابن سعيد: «والسفر من ورجلان في الصحراء إلى بلاد السودان كثير»^(٣). أما القاعدة الثانية فهي غدامس حيث يهبط منها إلى الجنوب طريق التجارة إلى بلاد الكانم من أرض السودان، وعنها تحدث ابن سعيد قائلًا: «وفي غدامس حصون على الجادة التي تمر ببلاد كانم»^(٤). وكانت أهم المنتجات التي تحملها القوافل الرستمية إلى بلاد السودان، الأكسية القطنية والكتانية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وأصناف من الزجاج، كخرز الزجاج الأزرق والأصناف والأحجار وأنواع الأفايه والعطر المأخوذ من عقد خشب الصنوبر، كما تحمل هذه القوافل النحاس الأحمر والملون ومنتجاته من الأساور والخواتم والحلق وأيضًا آلات الحديد المصنوع والفخار والخزف ذي البريق المعدني والملح^(٥)، ويعتبر الملح أهم هذه السلع؛ إذ يتعامل به أهل السودان كقطع العملة، يقول ابن بطوطة: «وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعًا ويتبايعون به»^(٦). وكانت هذه القوافل تعود محملة من السودان بالذهب الخام والعاج وريش النعام، وجلود الحيوانات. وقد

(١) د. محمد علي ذبوز: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٤٤٥.

(٢) د. صلاح الدين المنجد: مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ٢١، بيروت ١٩٦٣ م.

(٣) ابن سعيد: الجغرافيا ١٢٦.

(٤) ابن سعيد: المصدر السابق ١٢٧.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٣.

(٦) ابن بطوطة: رحلته ١٧٤.

تخصص أهل ورجلان في قيادة هذه القوافل التجارية، فكان منهم الأدلاء ذوو الخبرة بالطرق الصحراوية في بلاد السودان^(١).

وأشهر ممالك السودان التي كانت لها علاقة وثيقة بالدولة الرستمية مملكة كوكو^(٢)، التي تقع في شرق نيل غانات الذي ينبع من بحيرة كوري «تشار» كما يقول ابن سعيد^(٣). وقد ظهرت معالم هذه العلاقات في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي أرسل سفارة إلى ملك كوكو الذي كانت تبعد مملكته عن تاهرت بمسافة ثلاثة أشهر سيرًا تقريبًا^(٤)، وقام بهذه السفارة محمد بن عرفة. وقد أعجب ملك كوكو بعظمة هذا السفير الرستمي الذي جاءه - يحمل هدايا أفلح بن عبد الوهاب - يقول ابن الصغير، «فعجب ملك السودان ما أراه من هيئته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل فهز يديه محمد بن عرفة وقال له ملك السودان كلمة بالسودانية ليست تعبر بالعربية لأن لا مخرج للإمسالك إنما هو فيما بين القاف والكاف والجيم، إلا أن معناها أنت حسن الوجه حسن الهيئة والأفعال»^(٥). وقد ظهرت آثار الاتصال بين التجار الرستمين وأهالي هذه البلاد واضحة في سلوكهم وملبسهم وطرق معيشتهم «وتجار أهل كوكو يلبسون القداوير الجنب والأكيسة وعلى رؤوسهم الكرازي وحليهم الذهب وخواصهم وجلتهم يلبسون الأزرق وهم يداخلون التجار ويجالسونهم ويضعونهم بالبضائع على جهة المقايضة»^(٦)، وكما حمل التجار الرستميون هذه الألوان الحضارية حملوا معهم الإسلام إلى هذه الجهات، وكثيرًا ما كان يرافق القوافل التجارية عدد من فقهاء المسلمين الذين خالطوا أهل البلاد وتركوا فيهم آثارًا بعيدة المدى. وبطبيعة الحال كان الأثر الذي تركه التجار المسلمون في نفوس الأهالي أكثر بكثير من الذهب الذي كانوا يحصلون عليه، وتعتبر جهود هؤلاء الفقهاء الأسس التي قامت عليها دولة مالي الإسلامية التي كان غالبية سكانها مسلمين لهم مساجدهم

(١) د. محمد علي ذبور: تاريخ المغرب الكبير ٣ / ٣٤٧.

(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ٢ / ١٨٤.

(٣) ابن سعيد: الجغرافيا ٩٣.

(٤) الباروني: المصدر السابق ٢ / ١٨٤.

(٥) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستمين في تاهرت ٣١.

(٦) د. صلاح الدين المنجد: مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين ٤٣ - ٤٥.

وفقاؤهم^(١). وقد ظهرت في هذه المناطق بعض المؤشرات الإباضية التي تركها تجار الإباضية تمثلت في بعض من شاهدتهم ابن بطوطة من الإباضية الخوارج في بلاد السودان في رحلته المشهورة^(٢).

وصاحب انتشار الإسلام انتشار اللغة العربية، فكان هناك الكثيرون ممن يجيدون الحديث باللغة العربية إلى جانب لغاتهم الخاصة^(٣).

علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس ١٢٨ - ٢٩٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٠٨ م

قامت العلاقات بين الرستميين والدولة الأموية في الأندلس على أساس التحالف القوى المتين والصداقة المتبادلة^(٤). وقد بدأت العلاقات بين الأمويين ممثلة في شخص عبد الرحمن بن معاوية^(٥) الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس وبين الرستميين

(١) ابن بطوطة: رحلته ٦٨.

(٢) د. صلاح الدين المنجد: المرجع السابق ٤٥.

(٣) د. صلاح الدين المنجد: المرجع السابق ٦٢.

(٤) ابن الأبار: الحلة السراء ١ / ٣٥، المقرئ: نفخ الطيب ٤ / ٢٨.

(٥) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بصقر قريش ويعرف بالداخل الأموي مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وأحد عظماء العالم. وُلد في دمشق سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م، ونشأ يتيمًا مات أبوه وهو صغير، فتربى في بيت الخلافة، ولما انقرض ملك الأمويين في الشام، وتعقب العباسيون رجالهم بالفتك والأسر، أفلت عبد الرحمن وأقام في قرية على الفرات، فتنبعته الخيل، فأوى إلى بعض الأدغال حتى أمن، فقصده المغرب فبلغ إفريقية فلبج عاملها عبد الرحمن بن حبيب الفهري بطلبه فانصرف إلى مكناسة، وقد لحق به مولاة بدر بنفقة وجواهر كان قد طلبها من أخت له تدعى «أم الإصبع» ثم تحول إلى منازل نفراوة وهم جيل من البربر، أمه منهم فأقام مدة يكاتب من في الأندلس من الأمويين وبعث إليهم بدرًا مولاة، فأجابوه وسيروا له مركبًا فيه جماعة من كهرائهم فأبلغوه طاعتهم له، وعادوا به إلى الأندلس فأرسل بهم مركبهم سنة ١٢٨ هـ في المنكب وانتقلوا إلى إشبيلية ومنها إلى قرطبة فقاتلهم والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري فظفر عبد الرحمن الأموي، ودخل قرطبة واستقر وبني فيها القصر وعدة مساجد وجعل الخطبة للمنصور العباسي، فاطمان إليه أهل الأندلس، ولما انتظم له الأمر ووثق بقوته قطع خطبة العباسيين وأعلن إمارته استقلالًا والمنصور العباسي أول من لقبه بصقر قريش، ولقب بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك الأمويين. وكان حازمًا سريع النهضة في طلب الخارجين عليه لا يخلد إلى راحة ولا يكل الأمور إلى غيره ولا ينفرد برأيه، شجاعًا مقدامًا شديد الحذر، سخيا، لسانًا شاعرا، عالمًا يقاس بالمنصور في حزمه وشده و ضبطه الملك، وبني الرصافة بقرطبة تشبهاً بجده هشام بن الرصافة الشام، وتوفي بقرطبة ودُفن في قصرها. انظر المزيد في:

في مرحلة مبكرة، فحين وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية فأرأى من العباسيين لجأ إلى المغرب الأوسط، حيث أقام بين بني رستم الذين حافظوا عليه وأجاروه من الأخطار التي تعرض لها يقول المقرئ: «وآل أمره في سفره عبد الرحمن ابن معاوية إلى أن استجار ببني رستم ملوك تاهرت من المغرب الأوسط»^(١). كان من الطبيعي إذن أن يتم التآلف بين أمراء بني أمية في قرطبة وبين الأئمة الرستميين في تاهرت، وتقوم العلاقات بين الدولتين على أساس من الصداقة والتحالف والمودة، إذ كان الأمويون في الأندلس محط عداء العباسيين ومكائدهم، كما كان العباسيون أيضاً أعداء للإباضية في تاهرت. ومما دفع أمراء بني أمية أيضاً إلى توطيد علاقتهم بالرستميين أنه لم يعد أمامهم من منفذ في بلاد المغرب سوى المغرب الأوسط؛ لأن المغرب الأدنى قامت فيه دولة الأغالبة الموالية للعباسيين، والمغرب الأقصى قامت فيه دولة الأدارسة الشيعية التي كانت علاقاتها بالدولة الأموية في الأندلس تنسم بالعداء والحذر والترصص^(٢)، وفي إطار التعاون السياسي بين الدولتين ارتبطت كل منهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً، وكان زعماء كل من الدولتين يتابع نشاط الآخر بإعجاب بالغ، واستقبل الرستميون كبار رجال الأندلس الذين وفدوا إلى تاهرت واستوطنوها وأصبح منهم من عاون الأئمة في شئون الإدارة والحكم، وقد اشتهر من بينهم اثنان هما عمران بن مروان الأندلسي ومسعود الأندلسي اللذان كانا ضمن الجماعة التي رشحها عبد الرحمن بن رستم لاختيار واحد منها لتولي الحكم في الدولة الرستمية بعد وفاته^(٣). وظلت الدولتان تسعى كل منهما إلى كسب صداقة الأخرى، ففي سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م بعث عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أبناءه الثلاثة في سفارة رسمية إلى قرطبة عاصمة الإمارة الأموية، وقد كان يوم وصول هذه السفارة الرستمية إلى قرطبة يوماً عظيماً مشهوداً^(٤) حيث استقبلهم عبد الرحمن الثاني استقبالا ملكياً رائعاً أنفق عليه مليوناً من الدينانير حتى أصبح حديث الناس ومصدر إعجابهم^(٥).

البيان المغرب ٢/ ٤٩، الكامل ٥/ ١٨٢، ثم ٦/ ٣٧، نفع الطيب ١/ ١٥٥ ثم ٢/ ٧٠١، الاستقصا ١/ ٥٣ - ٥٤، أخبار مجموعة ٤٦، الحلة السيرة ٣٢، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٠.

(١) د. محمود علي مكي الخوارج في الأندلس ١٧١. مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية - العدد الأول ١٩٥٦ م.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٦٩.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ٥٧٠.

(٤) د. محمود علي مكي: الخوارج في الأندلس ١٧٢.

(٥) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ٢٢٢.

وفى عهد أفلح بن عبد الوهاب نمت العلاقة الرستمية الأندلسية نموًا مضطربًا وكانت كلتا الدولتين تبلغ الأخرى بأخبار انتصاراتها أولاً بأول وتتبادل الهدايا فيما بينها بهذه المناسبات، فحين ابتنى الأغلبة مدينة العباسية سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م قرب تاهرت لتهدد عاصمة الرستمين وتؤثر على مركزها الاقتصادى والسياسى، قام أفلح بن عبد الوهاب بهدمها وإحراقها، وبادر بإخبار حليفه عبد الرحمن الأوسط بما فعل فأرسل إليه عبد الرحمن الثانى الأوسط هدية كبيرة قدرها المؤرخون بمائة ألف دينار^(١)، وأصبح تبليغ أنباء الانتصارات بين الدولتين تقليدًا سياسيًا متبادلًا بينهما، فحينما انتصر عبد الرحمن الأوسط على المجوس «النورمانديين» فى سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٤م بادر بإبلاغ أنباء ذلك النصر إلى حليفة الرستمى أفلح بن عبد الوهاب^(٢)، وقد استعانت الدولة الأموية فى الأندلس بعدد من خيرة القادة الرستميين فى أعمالهم الحربية فاستعان الأمير عبد الرحمن الثانى الأوسط بالقائد الرستمى محمد بن رستم فى القضاء على الثورة التى قام بها هاشم الضراب بطليطلة سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م^(٣)، كما استعان الأمير عبد الرحمن بمحمد بن رستم أيضًا فى صد الغارات التى دأب المجوس «النورمانديون» على شنّها على شواطئ الأندلس، وتمكن هذا القائد الرستمى من القضاء على هذا الخطر المجوسى الذى كان يتهدد المسلمين فى بلاد الأندلس^(٤). كما شهد بلاط الأمويين فى الأندلس عددًا من رجالات السياسة من الرستميين الذين احتلوا منصب الوزارة والحجابه فى دولتهم، فكان منهم الوزراء والحجابه الذين أثبتوا كفاءة لا مثيل لها. يقول ابن القوطية: «وكان له عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٦هـ / ٢٣٣هـ وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم، بعد عبد الكريم بن مغيث الحاجب الكاتب المتقدم ذكره، فمنهم عيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وعبد الله بن أمية بن زيد وعبد الرحمن بن رستم^(٥)» «وقد تولى عبد الرحمن بن رستم هذا أيضًا منصب الحجابه فى عهد عبد الرحمن بن

(١) د. إبراهيم أحمد العدوى: تاريخ الجزائر ٢٢٢، البلاذرى: فتوح البلدان ١/ ٢٧٧.

(٢) د. محمود على مكى: المجلة السابقة ١٧٢.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ٨٧-٨٨، ابن خلدون: العبر ٤/ ٢٨١-٢٨٤.

(٤) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ٨٣، بيروت ١٩٥٧م.

(٥) ابن القوطية: المصدر السابق ٨٣.

الحكم بعد وفاة عبد الرحمن بن غانم الحاجب، وفي ذلك يقول أيضًا ابن القوطية «ثم مات عبد الرحمن بن غانم فصارت الحجابة بين عيسى بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم»^(١). ويوجد عند ابن الأبار نص يثبت أن عبد الرحمن بن رستم الوزير الحاجب في عهد عبد الرحمن بن الحكم الثاني هو ابن القائد الرستمي محمد بن رستم وأنه هو ووالده قد دخلا الأندلس أيام كان عبد الرحمن بن الحكم أميرًا من قبل والده لحكم على شذونة، يقول ابن الأبار «محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم.. دخل أبوه إلى الأندلس وكان محمد هذا بناحية الجزيرة واصطنعه عبد الرحمن بن الحكم في إمارته على شذونة من قبل أبيه الحكم، فكان يأنس به في بعض الأحيان، ثم أفضت إليه الخلافة فاستقدمه وصرفه في الحجابة والوزارة، وهو أحد القواد الذين كان فتح المجوس على أيديهم بإشبيلية إلى فتوحات تعلم له، وكان أريبًا حكيماً»^(٢).

وإذا كانت الدولة الرستمية قد منحت بعض مواطني الدول التي تختلف معها سياسيًا ومذهبيًا حق اللجوء السياسي، وأعطتهم كل ألوان الحماية فإنها لم تكفل مثل هذا الحق للخارجين على الدولة الأموية ولم تسمح لهم بالقيام بأي نشاط سياسي ضد حلفائهم الأمويين في الأندلس، وفي الوقت نفسه منحت الدولة الرستمية حق الاستيطان والإقامة لكل أندلسي وفد إليها للتجارة أو العمل دون الإضرار بالعلاقات الطيبة المتوطدة بين الدولتين. ويروي ابن القوطية قصة طريفة تبين لنا مدى حرص الرستميين على توثيق هذه العلاقات وهذه القصة تروي أن عمر بن حفصون الذي قام بثورة أمير قرطبة فرًّا إلى تاهرت واختفى بها استعدادًا للعمل ضد الأمويين، واشتغل مساعدًا لأحد الخياطين الذين وفدوا على تاهرت من مدينة ربة بالأندلس ضمن الوافدين من أهل الأندلس رغبة في متابعة نشاطهم الاقتصادي وازدياد الثراء. وبينما عمر بن حفصون يجلس عند الخياط جاءه شيخ ومعه ثوب، فقام إليه الخياط، ووضع له كرسيًا فقعد عليه فسمع الشيخ كلام ابن حفصون، فأنكره عند الخياط، فقال له: من هذا؟ فقال: غلام من جيرانى بربة أتى ليخيط عندي، فالتفت الشيخ إليه فقال له: متى عهدك بربة؟ قال له: منذ أربعين يومًا. قال: تعرف جبل بيشتر؟ فقال به: أنا ساكن عند أصله. قال له الشيخ فيه حركة؟ قال: لا، قال: قد أذهله ذلك ثم قال: هل تعرف فيما

(١) محمد بن تاويت: دولة الرستميين أصحاب تاهرت ١١٦.

(٢) ابن الأبار: الحلة السراء ١ / ٣٧٢.

يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون، فدعر من قوله وأخذ الشيخ يطيل النظر إليه، وكان ابن حفصون قد أفضى الشئفة فقال له: يا منحوس تحارب الفقر بالإبرة، أرجع إلى بلدك فأنت صاحب بنى أمية وسيلقون منك غبا وستملك ملكًا عظيمًا، فقام من فوره وذلك خوفًا أن ينبش الأمر وأن يتقبض عليه بنو أبى اليقظان ٢٤١هـ / ٨٥٠م، وكانوا مالكي تاهرت وولاءهم لبنى أمية فأخذ خبزتين من الخبار، وألقاهما فى كفه وخرج فأتى الأندلس^(١).

ولم تكن العلاقات السياسية هى كل ما يربط الرستميين بالإمارة الأموية فى بلاد الأندلس، بل قامت العلاقات الاقتصادية التجارية على نحو فريد بين الدولتين، وتمثل هذه العلاقات الاقتصادية التجارية فى تلك التسهيلات التى منحها الرستميون للتجار الأندلسيين، فقد فُتحت أمام هؤلاء التجار الطريق إلى سائر بلدان العالم الإسلامى، وأنقذتهم بذلك من الحصار الاقتصادى الذى فرضه عليهم الأغلبة والأدارسة، وقد قويت هذه العلاقات التجارية فى ظل حاجة الأمويين فى الأندلس إلى الأسواق الخارجية لتصريف منتجاتهم التى زادت بسبب التقدم الذى أحرزه الأمويون فى الأندلس فى ميادين الزراعة والصناعة، كما أنهم كانوا فى حاجة إلى الحصول على بعض المواد الخام من البلاد الإسلامية، وقد يَسَّر لهم الرستميون جميع السبل، ففتحوا لهم موانئهم فى تنس ومستغانم ووهران لاستقبال البضائع الأندلسية ولاسيما المصنوعات الحريرية، وقام الرستميون بدور الوسيط فى نقل هذه المنتجات وتصريفها فى بلاد السودان ومصر والمشرق العربى، حتى أصبحت قوة الاقتصاد الرستمى سندًا للإمارة الأموية فى عمليات التصدير والاستيراد وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من المصادر العالمية، وترددت أصداء هذا الازدهار الاقتصادى بين الدولتين فى نشاط الأساطيل التجارية الأندلسية وازدهار المدن والموانئ الرستمية الأموية وبخاصة تاهرت وقرطبة^(٢). وصاحب هذه العلاقات السياسية والاقتصادية علاقات ثقافية حضارية ضخمة بين الرستميين والأمويين فى الأندلس، إذ أصبحت الدولة الرستمية الجسر الذى ضمن استمرار التدفق الحضارى من المشرق إلى بلاد الأندلس، لذا حرص الأمراء الأمويون على استغلال هذا الجسر رغبة منهم فى ربط إمارتهم البعيدة

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ١٠٩ - ١١٠.

(٢) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ٢٦٠.

بتيار الحضارة الإسلامية في المشرق، وعن طريق الرستميّين نجح أمراء بني أمية في الأندلس في الحصول على ما يحتاجون إليه من كنوز المشرق العربي ومؤلفاته ومخطوطاته وكذلك علمائه، وكانت لدى الرستميّين مكتبتهم الضخمة التي عُرفت بالمعصومة والتي حوت عددًا ضخمًا من الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم والفنون بالإضافة إلى جهود علماء الدولة المحليين^(١) وبذا يكون الرستميّون قد قاموا بدور الوسيط الثقافي كما قاموا من قبل بدور الوسيط التجاري، فأخذوا من المشرق وأعطوا الأندلس فكانت بلادهم ماء الحياة الذي جدد انطلاق الإسلام إلى غرب أوربا عن طريق الأندلس^(٢). ونتيجة لهذا الدور الثقافي الذي اضطلع به الرستميّون ظهرت مؤثرات إباضية في بلاد الأندلس، إذ إنه من الطبيعي أن تترك هذه العلاقات القوية آثارها في الشعب الأندلسي، وإن لم يكن لها من القوة ما يُظهرها بشكل واضح نتيجة سيطرة العقيدة السنية المطلقة على الأندلسيين، وقد ظهرت هذه الآثار في مناطق الاحتكاك التجاري بين الرستميّين والأمويين في قرية بلقين في منطقة المرية «التي كان أهلها على مذهب الخوارج لا يسترون»^(٣)، وكان أحد المعلمين بقرطبة وهو جابر بن غيث الليلي يعلم أبناء الوزير هاشم بن عبد العزيز، وكان هذا المعلم كثير التشدد حتى أنه كان في صرامته يقارب الإباضية^(٤).

والى الأندلس رحل كثير من علماء الدولة الرستمية يسمعون على علمائها ويروون عنهم. ومن هؤلاء: قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي^(٥) وبكر بن حماد التاهرتي وأحمد ابن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي الذي حظى بملكانة عظيمة عند منذر بن سعيد^(٦)

(١) د. إبراهيم أحمد العدوي: بلاد الجزائر ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) د. إبراهيم أحمد العدوي: المرجع السابق ٢٢٤.

(٣) د. محمود علي مكي: الخوارج في الأندلس ١٧٥ مجلة الأبحاث المغربية والأندلسية.

(٤) د. محمود علي مكي: المجلة السابقة ١٧٥.

(٥) الحميدي: جذوة المقتبس ٣٣٢، القاهرة - ١٩٦٦ م.

(٦) هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النقرى القرطبي أبو الحكم البلوطي قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً نسبته إلى «فحص البلوط» بقرب قرطبة ويقال له: «الكزني» نسبة إلى فخذ من البربر يسمى كزنة. رحل حاجاً سنة ٢١٨ هـ، فأقام في رحلته أربعين شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر. قال ابن الفرضي: كان بصيراً بالجدل، منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام، لهجاً بالاحتجاج، ولي قضاء ما ردة وما والاها ثم قضاء الثغور الشرقية فقضاء الجماعة بقرطبة

القاضي فسمع منه تواليفه كلها كما سمع من أبي وكيم وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة^(١) ومحمد بن معاوية القرشي^(٢) وأبي بكر الدينوري^(٣).

سنة ٣٣٩ هـ واستمر إلى أن توفي فيها سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م، وكان مولده سنة ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م لم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور. له كتب في القرآن والسنة والرد على أهل الأهواء، منها «الإنباء عن استنباط الأحكام من كتاب الله»، ويسمى أحكام القرآن، و«الإبانة عن حقائق أصول الديانة» و«الناسخ والمنسوخ». انظر المزيد في: تاريخ علماء الأندلس ١٧/٢، مطمح الأنفس ٣٧، نفح الطيب ١/ ٣٣٥، قضاة الأندلس ٦٦، فهرسة ابن خير ٥٤، بغية الملتمس ٤٥٠، بغية الوعاة ٣٩٨، أزهار الرياض ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧، جذوة المقتبس ٣٢٦، الكامل ٨/ ٢٢٣، إنباء الرواة ٣/ ٣٢٥، ارشاد الأريب ٧/ ١٧٨ - ١٨٥.

(١) هو وهب بن مسرة بن مفرج بن حكيم التميمي الحجازي أبو الحزم. سمع بقرطبة من ابن وضاح وعبيد الله وأحمد بن إبراهيم الفرضي وابن معاذ وأبي صالح وأسلم وابن الوليد وابن أبي تمام ومحمد بن أبي تمام ومحمد بن عمر بن لبابة وطاهر بن عبد العزيز وأحمد بن خالد وابن أيمن ومحمد بن قاسم وقاسم بن أصبغ والخشني وبيبله من ابن وهب وابن أبي نخيلة ومحمد بن عزرة وغيرهم كان حافظاً للفقه بصيراً وبالحدِيث واللغة، بصيراً حسناً ضابطاً لكتبه مع ورع وفضل، أفتى بموضعه وله أوضاع حسنة واستقدم بكتبه إلى قرطبة وأخرجت إليه أصول ابن وضاح اللاتى سمع فيها فسمعت عليه، وسمع منه علم كثير. وهو إمام ثقة مأمون وإليه كانت الرحلة ثم انصرف إلى بلده. حدث عنه أبو محمد القلعي وأثنى عليه وحدث عنه غير واحد. وكان يتكلم في الحديث وعلمه وكان خيراً فاضلاً وله كتاب في السنة وإثبات القدر والرؤية والقرآن رحمه الله تعالى: انظر المزيد في: بغية الملتمس ٤٦٥، جذوة المقتبس ٣٣٨.

(٢) روى عن عبيد الله بن يحيى بتدقيقه وخلق وفي الرحلة عن النسائي والفرياني وأبي خليفة الجمحي ودخل الهند، ورجع وكان ثقة. انظر: الديباج المذهب ٢/ ٣٠٤.

(٣) هو أحمد بن مروان الدينوري المالكي أبو بكر قاضي من رجال الحديث، كان على قضاء القلزم ثم ولي قضاء أسوان بمصر عدة سنين وتوفي بالقاهرة سنة ٣٣٣ هـ / ٩١٥ م من كتبه «المجالسة» و«الرد على الشافعي»، و«مناقب مالك» وفي العلماء من يتهمة بوضع الحديث. انظر المزيد في: لسان الميزان ١/ ٣٩، حسن المحاضرة ١/ ٢٠٨.

الفهرس

تمهيد	٥
الفصل الأول: الأحوال السياسية للمغرب الأوسط قبيل قيام الدولة الرسمية	١٥
الفصل الثاني: تأسيس الدولة	٦١
الفصل الثالث: تقوية الدولة الرسمية وازدهارها	٩١
الفصل الرابع: خلفاء أفلح بن عبد الوهاب (٢٤٠ - ٢٩٦ هـ / ٨٥٤ - ٩٠٨ م)	١٢٧
الفصل الخامس: علاقات الرسميين بالعباسيين والدويلات الأخرى	١٥١

Inv:1968

Date:4/4/2016

<http://albordj.blogspot.com>

Bibliotheca Alexandrina



1502193

ISBN 978-977-495-121-3



9 789774 951213